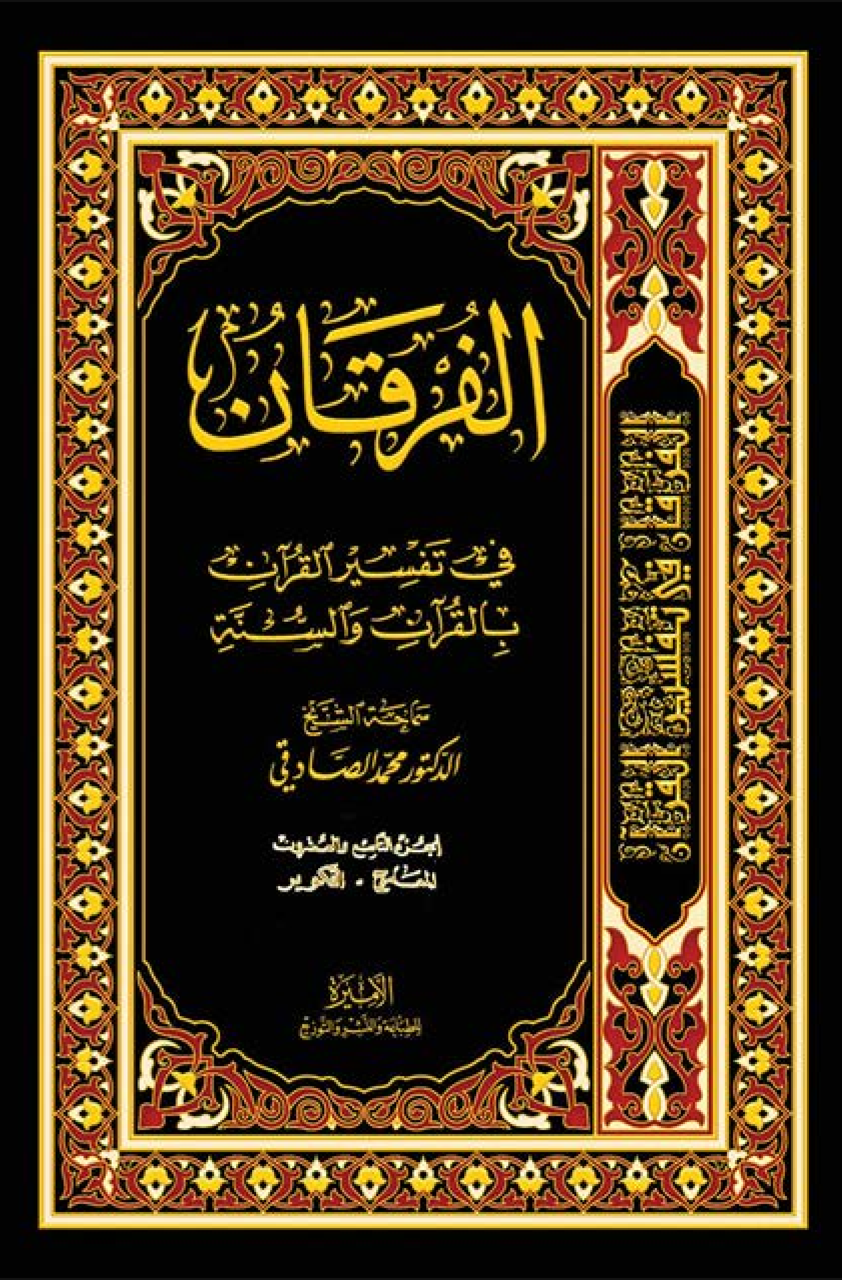


الفرقان
في تفسير القرآن بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الجزء التاسع والعشرون

سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي



٦٧

سُورَةُ المُلْكِ



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مكية - وآياتها ثلاثون

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾

إنه تعالى متبارك في مُلكه، دون لعنة ولا نكسة ولا نكبة، خلاف ملك الخلق، إلا الملوك الذين هم ظلال الرب في ملكهم، إلا فيما يجهلون ويعجزون للقصور الذاتي، فهو تعالى متبارك في كافة شؤون الربوبية خَلقاً وأمراً: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١) ومتبارك في الأمر التشريعي كما التكويني - سواء: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾(٢) ففي ملك السماوات والأرض ككلٍّ وفي كلٍّ: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾(٣) فـ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ١.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٨٥.

إنه ليس مَلِكاً ومالكاً يملك مُلكه ومِلكه، إنما هما بيده لا سواه، وهما له لا سواه، وكل مالك مملوك إلا إياه، وكل ملك يملك عليه سواه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ...﴾[1] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾[2].

وفيما إذا يؤتي ملكه من يشاء لا يتحلل هو عنه، ولا يؤتيه المُلك الخاص به: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

فالملك الحق من الخلق ليس وكيلاً عن الله بانعزاله - سبحانه - عن شيء من الملك، ولا شريكاً له ولياً من الذل، ولا معيناً يعينه - بعض الشيء - في الملك، وإنما يؤتاه تطبيقاً لحكمه العدل بين الخلق، بشيراً ونذيراً، دون أن يكون له من الأمر شيء: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[4] ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾[5] ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ...﴾[6].

﴿تَبَارَكَ﴾:

ولأنه بيده الملك فهو متبارك: متعاظم بذاته وصفاته وأفعاله، لا تُحد بركاته ولا يَمدُدُ فيها وإنما يُمددُ، ولا تُعَد نعمائه ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[7] وبما أن الملك يخصه، فالبركة أيضاً تخصه:

﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾:

إن اليد - هنا وفي سواه مما نسبت إلى الله - توحي بالسلطة الإلهية اللامحدودة غير المغلوبة، والملك قرينة أخرى إضافة إلى القرينة العقلية،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١١١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.
(٥) سورة المؤمنون، الآية: ١١٦.
(٦) سورة الحشر، الآية: ٢٣.
(٧) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

يوحي أن اليد هنا ليست هي الجارحة الجسدانية، فإن الملك لا تصله هذه اليد، وإنما السلطة، وتقديم الظرف ﴿بِيَدِهِ﴾ والاستغراق المستفاد من ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ يفيد أن الحصر، أن الملك - أياً كان - إنما هو بيد الله.

والملك أعم من ملك الخلق والتقدير والتدبير، ومن ملك النبوة والسلطة الزمنية، ولماذا يؤتيها الفجار إذا كانت هي أيضاً منه تعالى؟ له تأويل يأتي في محله الأنسب.

كلام في القدرة الإلهية:

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

فما هو كل شيء، وما هي القدرة؟

فهل يقدر ربّنا أن يجمع بين المتناقضين ذاتياً، أو يخلق نفسه، أو يخلق مثله، أو يلد من لا يولد ولا يُخلق، أو أن يُدخل الدنيا في بيضة دون أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة، أو ما إلى ذلك من المستحيلات الذاتية عقلياً؟.

نقول: الأمور المتصورة - من حيث تعلق القدرة بها وعدم تعلقها - على أربعة أضرب:

١ - الكائنات التي بالإمكان تحويرها وتغييرها، دون حاجة إلى معجزة أو اختراع، فهي من أبسط الأشياء التي تتعلق بها القدرة.

٢ - التي تحتاج إلى قواعد علمية كالمخترَعات، فهي قبل اختراعها قد تُزعم مستحيلة، ولكنما العلم يثبت إمكانيتها.

٣ - التي لا تقدر المحاولات العلمية عليها من الطرق العادية، كمعجزات النبيين، التي يزعمها الإنسان - ولا سيما المتحلل عن وحي السماء، الشاك فيه - يزعمها: من المستحيلات، ولكنها من الممكنات الذاتية، مهما كانت مستحيلة بالنسبة للقدرات المحدودة.

ومن هذه خلق العالم لا من شيء، وسائر الاختصاصات الإلهية في خلقه المبدعَ، فاللاشيء الذي بالإمكان إيجاده بالقدرة اللّامحدودة، إنه يستحق اسم الشيء بهذه الإمكانية الاستعدادية لقبول الخلق، سواء أخلق أم لم يخلق، فالمادة الأولية كانت هي اللاشيء الممكن إيجاده، وقد خلقت، والسماوات الثمانية وما فوقها، كانت اللاشيء الممكن إيجاده ولم تخلق، ولكنهما على سواء في أنهما شيء لإمكانية خلقهما، مهما كانت الأولى راجحة في الحكمة والثانية مرجوحة، فهي من المستحيل عرضياً، لا ذاتياً.

٤ - الأمور التي لا تستحق اسم الشيء، لأنها ليست كائنة، ولا بالإمكان تكوينها: معدومات مستحيلة التكوين، كالأمثلة المسبقة، فإنها ليست من الأشياء حتى تشملها القدرة، مهما كانت إلهية لا نهائية.

إن القدرة تعني إمكانية تعلقها بشيء مما قدمناه، والاستحالة الذاتية تعني - فيما تعنيه - استحالة تعلق القدرة بها وإن كانت القدرة الإلهية، غير المحدودة، فإذا تعلقت القدرة بأمر - مما يزعم استحالته - فالواقع المقدور، دليل لا مرد له على إمكانيته.

فهل بالإمكان الجمع بين النقيضين معاً: «أنا أنا ولست أنا» أو «سلبهما معاً»: «أنا لست أنا» ولا لا أنا مهما كانت القدرة المحاولة لجمعهما أو سلبهما إلهية؟

وهل بالإمكان أن الله خالق نفسه، فخلقُ شيء يسبقه عدمه، وهذا ينافي ألوهية المخلوق، وخالقية شيء تقتضي كونه قبل مخلوقه، فهل إن الله كان قبل كونه! أمران مستحيلان ذاتياً!.

وهل بالإمكان أن يخلق الله مثله، فيكون المثل خالقاً غير مخلوق، مثله. فالإله المخلوق إذا لم يكن مخلوقاً، حتى يماثل خالقه. فهو معدوم لم يخلق! فهل المعدوم يماثل الخالق، وإذا كان مخلوقاً فكيف يماثل خالقه في

أنه غير مخلوق. أم هل هو مخلوق وغير مخلوق لكي يربح الواجبين: مماثلته خالقه، وعموم القدرة الإلهية لخلق مثله؟ الأمر إليكم!.

إنه - رغم ما يزعمه الثالوثيون وأضرابهم -، ليس عدم تعلق القدرة الإلهية بالمحالات الذاتية، نقصاً في القدرة، ونقضاً في شمولها، وإنما هي المحالات النسبية، التي لا يقدر عليها إلّا الله، فيختصها بقدرته فإن الله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

نسألكم: هل بالإمكان أن يكون الله إلهاً وليس إلهاً؟ خالقاً ولا خالق، عالماً ولا عالم! فإذا «نعم» فليس الملحدون خاطئين إذ تمسكوا بأحد جزأي القضية المتناقضة «موجود ومعدوم» إذ زعموا أنه معدوم، وإذا «لا» فلماذا «لا» فهل إلا لأنه من المحالات الذاتية! فكذلك سائر المحالات الذاتية كالأمثلة المسبقة.

فالمستحيل ذاتياً ليس شيئاً حتى تتعلق به القدرة، ولا أن القدرة تتعلق باللاشيء الذي يستحيل أن يكون شيئاً، اللهم إلا اللاشيء الممكن إيجاده.

فذلك ليس لنقص في القدرة اللانهائية، وإنما لأن القدرة لا تعني إلا التي بإمكانها إيجاد الممكن الذاتي، فالنقص كل النقص في المستحيل الذاتي الذي لا يقبل الإيجاد، إن صح التعبير بـ «يقبل ولا يقبل» عن اللاشيء المستحيل وجوده!.

ولئن سألت: هل لا يقدر ربنا أن يخلق في المحالات، حالة قبول لخلقها. فالجواب أنه «ليس للمحال جواب»! فإنما الحالة والصفة تخلق في شيء موجود، لا المعدوم المستحيل الوجود، وفيما إذا كان الشيء موجوداً، لا يحمل صفة تناقض كيانه، فهل يحمل ذات الله صفة الحدوث، أو هل تحمل ذوات الممكنات صفة الأزلية. كذلك - وبالأحرى - لا تحمل الذوات المستحيلة الوجود - إن صح تعبير الذوات - لا تحمل صفة الإمكان والقبول، المناقضة للاستحالة الذاتية!

فقبول صفة الإمكان للمفروض استحالته الذاتية يحمل تناقضين:

١ - فرض القبول للمعدوم حالة عدمه: صفة دون موصوف!

٢ - تحميل الحالة المناقضة لذات المحمول، عليه، جمعاً بين الصفة والموصوف المتناقضين: مستحيل ذاتي يقبل حالة الإمكان! ظلمات بعضها فوق بعض.

فالمحال الذاتي محال أينما حل، ويجنب القدرة الإلهية أيضاً، وليس عنه خبر ولا جواب، إلا أنه «ليس للمحال جواب» يجيب به الإمام الصادق زنديقاً سأله: أليس هو قادراً أن يظهر لهم حتى يروه ويعرفوه فيُعبد على يقين؟ فيجيبه: «ليس للمحال جواب» يعني بذلك: أن المحال ليس شيئاً يذكر فيسأل عنه، فلو أن الله أظهر نفسه فلتره العيون بمشاهدة الأبصار، وفي ذلك تحول المجرد عن اللامادة إلى المادة، لكي تشاهَد، وهذا محال!.

كما يُسأل الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «هل يقدر ربك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة؟ قال: إن الله تبارك وتعالى لا ينسب إلى العجز، والذي سألته لا يكون»(١).

وإن كان هنا وجه آخر للجواب، فهو عن وجه آخر للسؤال وكما أجاب علي عليه السلام نفسه عن نفس السؤال: «ويلك إن الله لا يوصف بالعجز، ومَن أقدر ممن يلطِّف الأرض ويعظِّم البيضة»(٢).

يعني الحالة الممكنة في موضع السؤال: أن يلطف الله الأرض عن حجمها برفع الخلل والفواصل عن عناصرها وجزئياتها وذراتها، ودمجها كما يمكن، فتصبح قدر البيضة فيدخلها فيها، فالبيضة إذاً لا تكبر حجماً مهما كبرت ثقلاً، كما الدنيا لا تصغر ثقلاً مهما صغرت حجماً، فهذه هي

(١) نور الثقلين ج ١ ص ٣٢ عن التوحيد للصدوق عن عمر بن أذينة عنه عليه السلام.
(٢) نور الثقلين ج ١ ص ٣٢ عن أبان بن تغلب عن الصادق عليه السلام عنه عليه السلام.

الحالة الممكنة من إدخال الأرض البيضة، بتلطيف الأرض حجماً وتكبير البيضة ثقلاً!.

ثم استحالة تعلق القدرة الإلهية قد تكون ذاتية عقلية كالأمثلة المسبقة، وقد تكون واقعية كصدور القبيح منه سبحانه، أو خلق المرجوح كونياً، وحسب المصلحة الجماعية للكائنات أو للمكلفين كالمقترحين المعجزات تعنتاً ولجاجاً: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. فالأخيران - رغم إمكانيتهما ذاتياً، وبالنسبة للقدرات المحدودة أيضاً - هما مستحيلان على الله، إذ يتنافيان وعدله وحكمته تعالى وتقدس، استحالة بالاختيار.

إنه لا قديرَ على كل شيء إلا الله، فلا يعجزه شيء، ولا يفوته شيء، يخلق ما يشاء، ويفعل ما يريد، إنه عزيز حميد، وهو غالب على أمره، غير مغلوب فيما يريد، فما يحيله الإنسان بحساب قدرته المحدودة، إنه عند الله سهل يسير، لا يعزب عنه شيء ولا يعزبه شيء.

وما يحيله العقل واقعياً، من المنكر، أو عقلياً من المحال الذاتي، فهو ليس شيئاً يذكر، أو لا يليق به تعالى حتى تتعلق به قدرته، فما دام القابل ناقصاً لا يقبل الكمال، أم هو دون النقص والكمال لاستحالة شيئيته، فعدم تعلق القدرة الإلهية به ليس نقصاً فيها، ولا نقضاً لعمومها وشمولها.

وهل أن القدرة الإلهية تتعلق بالشيء الموجود: خلقُ الشيء شيئاً: خلقه كما كان قبل خلقه؟ فهو من تحصيل الحاصل! أو خلقه شيئاً آخر بمعنى تغييره وتحويره؟ أو بمعنى إعدامه؟ فليست قدرته محصورة في حصار الكائنات بعد كونها، فمن هذا الذي كوّنها إلا هو؟! أم تتعلق قدرته بما كوّنها ويخلق الأشياء من اللاشيء؟ فكيف يتحول اللاشيء شيئاً! أن يخلق

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٧.

الله العالم من اللاشيء! أم خلق الأشياء لا من شيء؟ وهذا هو الصحيح المعقول، أن لا مصدر لخلق المادة الأولية وجودياً ولا عدمياً، إنما مصدرها أولاً إرادته تعالى: أن خلق الأشياء لا من شيء: «إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون» وإنما استحق اسم الشيء قبل تكوينه، اعتباراً بإمكانية تكوينه وبحالة كونه المستقبل «علاقة ما يكون».

ثم مصدر الأشياء ثانياً هي المادة الأولية - المخلوقة لا من شيء -، بإرادته تعالى، أن يحوِّرها ويحوِّلها ويبدِّل ماهيتها، ثم ماهياتِ الأشياء إلى ما يريد، أو يعدمها، وسوف نخوض في البحث عن كيفية التكوين في محالِّها.

إذاً فعموم قدرته تعالى ليس إلا لعموم الممكنات: المعدومات المتمكنة للإيجاد، والموجودات المتمكنة للتغيير والتحوير، أو الانعدام، فهي كلها أشياء معنية بـ«كل شيء» دون المحالات الذاتية فإنها ليست شيئاً لكي تتعلق بها القدرة، ودون الموجودات في وجوداتها، فإن الموجود لا يحتاج إلى الإيجاد، اللهم إلا إبقاءه فإنه أيضاً بحاجة إلى القدرة والعناية الإلهية كما في بداية وجوده، إذاً فليست القدرة الإلهية فوضى تتعلق بالمحالات لكي تبرز الفلسفة الكنسية تقولها في الثالوث، المستحيل عقلياً، وأن الابن إله، مولود منذ الأزل، غير مخلوق، وأن الإله المجرد اللامحدود حلَّ في الجسم اللامجرد المحدود[١].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾:

ومن عموم قدرته للأشياء أنها تعم الموت والحياة، فالموت شيء لأنه إعدام للحياة وفصل بين الكائن الحي وبين حياته، والحياة شيء وهي أصل الأشياء في الكائنات.

---

(١) راجع كتابنا (حوار بين الإلهيين والماديين).

والموت الشيء، المخلوق، هو الموت عن الحياة وبعدها[(١)]، لا قبلها، فإنه أمر عدمي وليس إعدامياً لكي يكون شيئاً، وتقدُّمه على الحياة هنا في التعبير، لا يقدِّمه عليها في الواقع المعني، إذ لا واقع له قبلها إلا عدم الحياة، وهو ليس شيئاً يخلَق، فخلق الموت هو الإماتة: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾[(٢)]، لا الذي قبل الحياة فإنه كائن قبلها دون خلق، ولم يُذكر إلا في آيـة واحـدة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(٣)].

ثم إن بلوى الإنسان ليس بالموت قبل الحياة، إذ لا يشعره قبلها، وإنما حالها، بما يعلم أنه يدركه لا محالة، فليهيئ له نفسه، وبعدها كذلك، ليذوق ألم الحسرة: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾[(٤)] فليحسن عمله في حياة التكليف، ليحيا فيها وبعد الموت في حياة الخلود حياة طيبة.

إن التسابق في الأعمال الحسنة هو الهدف لهذه الازدواجية من الموت والحياة، وليست الحياة فقط هي الباعثة لهذا التسابق، وإنما التي معها الموت علماً، وبعدها واقعاً، ومهما أنكر الإنسان حياة الحساب بعد الموت، الذي لا ينكره أحد، ولكن احتمال الحساب بعدُ قائم لا يمحى، فليحسب العاقل له حساباً، وكما يحسب كل تاجر حسابات في احتمالات الفائدة والضرر، ولأن الموت يحمل هذه الذكرى الضرورية، والبلوى

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٧٩ عن الكافي عن الباقر عليه السلام (قال: إن الله خلق الحياة قبل الموت) وفيه أيضاً عنه عليه السلام قال: الحياة والموت خلقان من خلق الله، فإذا جاء الموت فدخل في الإنسان، لم يدخل في شيء إلا وخرجت منه الحياة، وفيه أيضاً عنه عليه السلام ما الموت؟ قال: هو النوم الذي يأتيكم في كل ليلة. إلا أنه طويل لا ينتبه منه إلى يوم القيامة.
أقول: كل ذلك يعني الموت عن الحياة، لا الذي قبلها، ولا يشمله كذلك.

(٢) سورة النجم، الآية: ٤٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

(٤) سورة الفجر، الآية: ٢٤.

العالية، تقدَّم هنا على الحياة رغم تأخره في غيرها من الآيات، إلا الذي هو قبل الحياة وليس فيه بلوى! ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾[١].

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ والعمل هنا يعم عمل القلب - وهو أولى - وعمل القالب - وهو أدنى - لأن القالب يتبع القلب ويتّبعه في عمله، وليس كذلك القلب، مهما تأثر هو بالقالب في خيره وشره.

ثم العمل منه حسن ومنه أحسن، كما أن منه سيّئ ومنه أسوأ، والغاية القصوى من بلوى الموت والحياة الوصول إلى واقع العمل الأحسن قلباً وقالباً، وهو الذي يبتغى به وجه الله كأعمال المقربين، ودونه الأبرار الذين يريدون الآخرة، فعملهم حسن، كما أن الأسوأ هو أعمال الكافرين الذين توافق سيئاتهم نياتهم.

ومن حسن العمل الأحسن نسيانه وعدم استعظامه، كما أن من الأحسن ذكر العمل السيّىء فجبرانه.

فالموت والحياة دليلان، بما معهما من أدلة إلهية، عقلية وفطرية وواقعية، يدلان الناس اليقظين إلى العمل الأحسن، فليس الموت قبل الحياة داخلاً في المعني من الموت الابتلاء هنا.

هذا - وإن كان بالإمكان شمول الموت هنا لما قبل الحياة أيضاً، بتأويل أنه مخلوق ضمن الكائن الميت[٢]، وكذلك الحياة غير الدنيوية فإنها حياة وأحيا من الدنيوية، ولكنما البلوى ليست إلا في الحياة الدنيا لواقع الاختيار والتكليف فيها، وفي الموت عنها علمياً حالها، فإنه الذي يحمل الذكرى، ويحمل صاحبه على التسابق في الأعمال الحسنة ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وللموت رحمات أخرى إضافة إلى البلوى[٣].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

(٢) ولكن الخلق هنا يوحي بالاستقلال فلا يشمل الموت ضمن الكائن الميت.

(٣) إن رحمة الموت لا تختص بالبلوى التي تدفع إلى التسابق في الصالحات، وإنما هي الأهم=

ولولا العزة والغلبة الإلهية لم تكن هناك بلوى ولا حسن الأعمال، فبعزته خلق الموت والحياة، وبعزته يحافظ على الأحياء والأموات، وعلى الأرواح والأجساد، وعلى أعمال الإنسان، وبعزته يجازي كلًّا على عمله، إذ لا يفوته من أساء.

ولولا مغفرته كانت الحياة الأخرى كلها بلاءً وعذاباً، ولكنه يغفر ما دامت المغفرة لا تنافي عدله، ويكفي أن مصير الموحدين كلهم الجنة، بعد

= مر فوائده لبني الإنسان حال الحياة اعتباراً، وبعد الموت جزاءً للحسنى بالحسنى، وللذين كفروا عذاب، وهو رحمة للمحسنين - وهنا رحمات أخرى نتيجة الموت في النبات والحيوان والإنسان: فللإنسان: هل يا ترى لو لم يكن موت، أكانت الكرة الارضية بفضائها تسع نسله المتواصل؟ ولو وسعت، فهل بإمكان الأولاد أن يتحملوا عبء معايش الآباء والأمهات: الآلاف الالآف! وإذا أمكن، فهل بإمكان هذه الكثرة الخالدة في الحياة، المعايشة السلمية؟ كيف! ولا تعيش الآن - وهي تلمس الموت ليل نهار - إلا في اضطرابات ناتجة عن تخلفات!.

فيا للموت من رحمة لبني الإنسان، بنّاء لحياة سليمة، لو تذكروا بها، وواعظاً لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد، ورادعاً عن الشرور لمن أراد الحياة سالمة غير منغصة وإن لم يؤمن بالآخرة، وباعثاً على التقوى لمن آمن بالله واليوم الآخر!.

وللحيوان: لو أن بيضات الأسماك (البطروخات) صارت كلها أسماكاً ولم تمت، لأصبحت البحار جامدة من زحامها، فامتنعت الحياة عليها كلها.

ولو أن الجراثيم استمرت على التوالد خمسة أيام دون انقطاع ولا موت لملأت المحيط إلى عمق ميل، فكيف الحياة؟! ولو أن ميكروب الوباء (الكوليرا) - الذي يتضاعف كل عشرين دقيقة - لو مضى عليه يوم واحد دون عائق، لبلغ وزنه ٧٣٦٦ طناً، وعدده رقم ٥ مع ٢١ صفراً، فأين الحياة!

إن بعض المحار في البحار تبيض الواحدة منها ستين مليوناً، لو بقيت أنسالها بين عام وعامين لزادت على الكرة الأرضية، فكيف الحياة!

والذباب الذي ينغص عيش الإنسان، تبيض أنثاه خمس أو ست مرات، في كل مرة ١٢٠ - ١٥٠ بيضة، فلو عاشت دون موت لم يعش على وجه الأرض إنسان ولا حيوان!

فلو لا الموت لم تكن حياة، وإنه يتبنى الحياة مادية ومعنوية، خلقية وخلقية، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] سبحان الخلاق العظيم، فهل لا يستحق الموت - إذاً - أن يحتل الرتبة السابقة على الحياة: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢]؟ فإن الموت رحمة للأحياء وللأموات!.

المغفرة، أو والعذاب فيما لا يتحمل المغفرة ثم الجنة، فرحمته وسعت كل شيء ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾.

أجل: وإن الخلق عامة، وخلق الموت والحياة خاصة، ليس جزافاً دون هدف، وإنما هو الابتلاء لإظهار المكنون في علم الله من سلوك المكلفين على الأرض، بلوى: «بتكليف طاعته وعبادته، لا على سبيل الامتحان والتجربة، لأنه لم يزل عليماً بكل شيء»[(١)] و«أكيس المؤمنين أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم له استعداداً» «فليأخذ الإنسان من حياته لموته» واستقرار هذه الحقيقة الحية من واقع الموت في ضمائر الأحياء، يدعهم أبداً يقظين منتبهين حذرين واعين، للصغيرة والكبيرة، في النية المستسرة، والعمل الظاهر، لا يدعه يطمئن أو يستريح، إلا أن يسامح عن عقله وضميره، فإن حسن العمل ليس إلا من حسن العقل، وعلى حد تفسير الرسول الأقدس ﷺ: «أيكم أحسن عقلاً، ثم قال: أتمكم عقلاً، وأشدكم لله خوفاً، وأحسنكم فيما أمر الله عز وجل به ونهى عنه نظراً، وإن كان أقلكم تطوعاً»[(٢)].

السماوات السبع الطباق:

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾:

الآراء حول السماوات بين مُفرط يزعمها مليارات، عدد الأجواء المحيطة

---

(١) (نور الثقلين) عن الاحتجاج للطبرسي عن الرضا عليه السلام في الآية: (فإنه عز وجل خلق خلقه)...

(٢) (مجمع البيان): أبو قتادة قال: سألت النبي ﷺ عن قوله: ﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢] ما عنى به؟ فقال: يقول: أيكم أحسن عقلاً.

وفيه عن ابن عمر عنه ﷺ قال: (أيكم أحسن عقلاً، وأروع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله)، وفي الكافي عن الصادق عليه السلام: (ليس يعني أكثركم عملاً، ولكن أصوبكم عملاً، وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة، ثم قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد العمل، ألا والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله، والنية أفضل من العمل، ألا وإن النية هي العمل، ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤] يعني على نيته.

بالكواكب، زعم أن السماء تعني الجو المحيط بكل كوكب، وبين مفرِّط يزعمها الأجواء المحيطة بالسيارات السبع، معتذراً عن الجديدين «بلوتو - نبتون» أنهما غير مرئيين غالباً، بالعين المجردة، رغم أن سبع المفرِّط ومليارات المفرط، هي كلها في السماء الدنيا: الأولى، حسب القرآن.

نجد السماء في القرآن، تذكر ١٢٠ مرة، والسماوات ١٨٣، والسبعَ سبعاً بسبعها، ومرتين بسبع شداد وسبع طرائق[١].

فالسماء تعني مطلق الجو المحيط حول الأرض، سواء في حالتها الأولى الغازية الدخانية قبل تسبيعها أم بعدها، والسماوات تعني السبع، لا أقل ولا أكثر، ولأن الآيات التسع التي تعتبرها سبعاً إنما هي بصدد عرض عدد السماوات المخلوقة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[٢] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ . . .﴾[٣] قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[٤].

فالسماء الدنيا، وهي أدنى السماوات إلينا نحن المخاطبين في الآيات، هذه السماء تحمل سماوات المفرطين والمفرِّطين، ثم لا ندري ماذا تحمل السماوات الست الباقية.

ولقد وُصِفت هذه السبع بأوصاف عدة، كالشداد والطباق، مما تدلنا

(١) الجزء الثلاثين القسم الأول ففيه تفصيل عن السبع الشداد.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٩.
(٣) سورة الطلاق، الآية: ١٢.
(٤) سورة فصلت، الآية: ١٢.

على خروجها وتحللها عن الحالة الدخانية قبل تسبيعها، إلى حالة أخرى وحالات، ومن ذلك قصورها ومصابيحها ومدنها الشداد الطباق.

وإنها طباق لتطابقها بعضها على بعض، وتشابهها مع بعض، وتماسكها ببعض، وترابطها مادياً ومعنوياً مع بعض، وتآخيها بما أنها وُلِدت من الدخان الأم: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ. . .﴾[1] ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ﴾[2].

فلماذا تتهافت وتتفاوت؟ فإنها والخلق كله - كخلق الله - لم تُخلَق متفاوتة، وإنما التفاوت من الخلق نفسه، تخلفاً عما خُلِق له، وأراد الله منه:

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾:

إن رحمانيته تعالى، وهي رحمته العامة الشاملة لخلقه أجمع، إنها تشهد بعدم التفاوت والتهافت في خلقه كخلقه، فللائتلاف خلقهم لا للاختلاف: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ﴾[3] رحمة التآلف في التكوين، وأخرى في التشريع، وثالثة لمن يطبق التشريع، توفيقاً لما أراده من الرحمة «فالخير كله بيديه والشر ليس إليه» فالمخلوقون هم المتفاوتون المتضادون مع بعض، تخلفاً عن شرعة التكوين والتشريع، ولكنما الخالق لا يخلق متفاوتاً متهافتاً، مما يدلّ على وحدته ورحمته، فـ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾.

هل ترى من فطور؟

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾:

هنا يؤمر من له بصر وبصيرة لينظر في خلق الرحمن نظر الناقد البصير،

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٩.
(٣) سورة هود، الآيتان: ١١٨، ١١٩.

هل يرى من اختلال وفطور؟ فلينظر نظرة أولى فـ ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ ثم ليرجع البصر عله يجد ما ضل عنه في الأولى ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ ثم ثالثة هي الكرة الثانية: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ وفي آخر المطاف: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾!

كرر أيها الناظر نظرك إلى السبع الطباق، من بعيد، وأحرى لك من قريب، على ضوء غزو الفضاء، مفكراً في عجائبها، مستنبطاً غوامض تراكيبها ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾: بعيداً عما طلبه، من نقد في نظمها أو غور في ماهيتها ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾: ذليل بفوت ما قدَّره من تفاوت وتناحر: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[1] وأما المؤمنون من الناظرين في آيات الأرض، ومن غزاة الفضاء، فهم تغنيهم آياتها، دلالة على مدبر واحد حكيم.

إن الخاسئ هو البعيد المرذول، وكما يخسأ الكلب، والحسير هو البعير المُعيَى، الذي بلغ السير مجهوده، واعتصر عوده، فالبصر يرجع بعد كرتيه، وسروحه في طلب مراده، وإبعاده في غايات مرامه، يرجع كالّاً معيّى بعيداً مرذولاً ذليلاً من إدراك بغيته، ونيل طلبته، من اكتناه حكمة الخلق، أو نقدِ زَعْمَ التفاوت فيه.

فليتجول الجوالون في غزوهم الجوي، ولينظر الناظرون، فليس آخر المطاف إلا عجزاً عن الغور، دون أن يدركوا فطوراً وفتوراً إلا في أنفسهم، إذ لا تبلغ قمة المعرفة بخلق الرحمن، وكيف بالنقد فيه، أو شبهة فيما يحويه، اللهم إلا لمن سامح عن عقله، ولجَّ في غيه، فليخسأ وهو حسير!.

إن الكائنات، رغم اختلافها في صفاتها وماهياتها، وعناصرها، وجزئياتها، وذراتها، فالاختلاف في آثارها وخواصها، وتفاعلاتها، إنها بالرغم من كل ذلك متلائمة متناسقة، تحصل من ازدواجها وحدة، ومن

(١) سورة يونس، الآية: ١٠١.

قربها وحدة، ومن خلطها وحدة، ومن بُعدها وحدة، تضرب - على تضاربها ظاهرياً - إلى وحدة أنيسة رحيمة أليفة، مما يدل على مدبر ومكون واحد.

هذه الآيات تتحدى الناقدين، أن ينظروا في خلق الرحمن، هل يقع نظرهم، بعدّته وعدّته، على شق أو صدع أو خلل؟. . ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾: من وهي أو وهن، به يتصدع أو ينصدم، وهذه النظرة الفاحصة المتأملة هي التي يريدها الله: للمؤمنين لكي يزدادوا إيماناً، ولغيرهم ليزدادوا حجة تحسم مواد الشك والريبة عن قلوبهم، وغشاوات الأوهام عن أبصارهم، فبلادة الألفة تذهب بروعة النظرة إلى هذا الكون الرائع العجيب الجميل الجليل، لا تشبع العيون من تملّي جماله وروعته، ولا القلب من تلقّي إيماءاته وإيحاءاته، ولا العقل من تدبر نظامه بقوانينه، فليعش الإنسان نظراً في خلق الرحمن، ولكي يعرف عجزه وقدرة الرحمن، وجهله يجنب علمه، ونقصه حيال كماله.

ومن الرائع جداً أن قراءة كتاب التكوين لا تحتاج إلى ثقافة زائدة، ودراسة خاصة، وإنما بصر وبصيرة منح الله الإنسان إياهما وإن كانا في درجات، وإن كان للعلم أثراً عميقاً في مزيد المعرفة، ولكنما القرآن يخاطب ساكن الغابة والصحراء، كما يخاطب ساكن المدينة ورائد البحار وغازي الفضاء على سواء! ولأنه كتاب الناس أجمع، يحمل هداية الناس أجمع.

وكما قلناه مسبقاً: إن التفاوت المنفي هنا هو التضاد والتنافي وعدم انسجام والتحام أجزاء الكون، في أصل الكيان والنظام، فهذه أرضنا تحول حول نفسها وحول شمسها في جادة فضائية، لا تنزلق عنها، ولا تبطئ ولا تزيد عما قرر لها من حراكها، ونرى كذلك كافة السابحات في يمِّ الفضاء، بالمليارات المليارات، فكل في فلك يسبحون، دون اصطدام واصطكاك واحتكاك، مما يدل على أن عليها سائق واحد مدبر حكيم.

فكلما تواترت الأنظار الدقيقة إلى خلق الرحمن، لم تزدد إلا زيادة المعرفة بنظمه الشامل، وتنسيقه الكامل، دون تفاوت فيه، ولا نقص يعتريه.

ترى رحمانية الخالق - نتيجة كرور الأنظار - من خلال هذا الكون، فـ ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾: أياً كانت الرؤية ومن أي كانت، ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾؟ تأكداً وتثبتاً، في رجوع نافذ ناقد أعمق من النظرة الأولى، عله فاتك شيء فلتجده هنا، هل ترى من فطور: من فروج وشقوق وفتوق وخروق؟.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾: بغية الإحاطة على ما عله خفي عنك من فطور، أو رجاء الإحاطة على خفيات الكون الغامضة: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ مبعداً مصغراً ذليلاً كليلاً عما يهواه ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾: ذليل أسير كليل أن يتعاطى نقداً، أو تحيط علماً!

إن الأنظار المتجهة إلى الكون، كلما تغرق في يمه المتلاطم، حائرة، لا يزداد أصحابها في سبرهم غوره إلا حيرة وبهراً، يذعنون أنهم خاسئون بجنب هذه العظمة الباهرة، وإذا عميت عليها حكمة فيه، كما في الكثير منه، فالناظر المنصف لا يتسرع بالنقد، لما يعلمه بإتقان أن صانعه أعلم منه وأحكم مهما تسرَّع الجاهلون الملحدون والمتسامحون عن عقولهم وعن فطرهم وضمائرهم.

وقد تكون النظرة الأولى، المأمور بها هنا، النظرة البصرية الميسورة لكل واحد، والثانية النظرة العقلية على ضوء الفلسفات العقلية والعلوم التجريبية، والثالثة هي النظرة في ملكوت السماوات والأرض، في حقيقة كيانها، وأصل كونها، وكيفية تكونها وتعلقها في ذواتها بالرحمن، سواء أكانت النظرة من بعيد، أو وأحرى من قريب على ضوء غزو الفضاء: ﴿أَوَلَمْ

يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾[(١)] ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[(٢)].

هذه نظرات ثلاث أمرنا بها هل نرى من فطور، ولو كان كياننا كله نظراً إلى الكون وكررناه إلى يوم الدين، لم نرجع في نقدنا إلا خاسئين، ونرجع في استكشاف القدرة العجيبة الرائعة الإلهية إلى معرفة أسمى وبصيرة أنفذ وأسنى، إن الخلقة تملك كمالاً دون نقص من حيث الصنعة الإلهية، ثم نجد له جمالاً فوق الكمال وكما الآيات التالية تتحدث عن ذلك الجمال الرائع، بعدما برهنت الآيات المسبقة لكمالها وعدم فتورها:

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.
(٢) سورة قٓ، الآية: ٦.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾

السماء الدنيا بمصابيحها الرجوم:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾:

هنا تتحدث الآية ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ عن سمائنا التي نواجهها، وهي الأولى، دون الستة الباقية البعيدة عن أنظارنا، وإن كانت بالعيون المسلحة، فضلاً عن غزو الفضاء، فإننا حتى الآن لم نسبر غور السماء الأولى، فضلاً عن سواها!

هنا ﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ الموصوفة بأنها الدنيا: أدنى السبع إلينا، لا سماء الدنيا! أمقابل سماء الآخرة؟ فليست الآن مخلوقة! والآية تحدثنا عما مضى، فهذه الآية مع نظيراتها، تدلنا أن المصابيح السماوية التي نشاهدها،

والكواكب التي نراها: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾[1] إنها - كلها - في السماء الأولى، فما هي الكائنات في سواها، من الستة الباقية؟ لا ندري، وكيف لنا أن ندريها، وما ندري ما في سمائنا الدنيا!

رجوم الشياطين؟

هل أن المصابيح هنا هي النجوم كلها، أو الكواكب كلها، أم قسم خاص منها؟ وهل الشياطين هم شياطين الجن فقط؟ أم والإنس أيضاً؟ ثم كيف تكون المصابيح رجوماً على أية حال؟

المصابيح هي الكواكب ونجومها الطالعة وسواها، فهي مدرعات جوية ومقاذيف تقذف: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ...﴾[2]. هذه الكواكب هي كلها رجوم، ولا سيما بروجها: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ۝١٨﴾[3].

فموقع الكواكب - بين مواقعها - أنها حفظ من مردة الشياطين، بعضها قذائف وشهب بحرسها: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا﴾[4] بين منفصلة عن بروجها ومدنها: عن وزارات الدفاع ومراكز الأسلحة، انفصلت شهاباً رصداً، ترصد وترقب مسترقي السمع ﴿فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾[5] وبين ما هو كرة سماوية، مهما كبرت أو صغرت.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٦.

(٢) سورة الصافات، الآيات: ٦-١٠.

(٣) سورة الحجر، الآيات: ١٦-١٨.

(٤) سورة الجن، الآية: ٨.

(٥) سورة الجن، الآية: ٩.

تدفع من قاذفاتها شهباً ونيازك نارية، تهدف أهدافاً مقصودة، يدفعها الحرس الملائكي، أو تندفع دون حرس.

إن قذف الكواكب حتم لا مردّ له، ولكنه ليس من نوع واحد، فقد يكون رجوماً، وقد يكون شهباً: الأحجار السماوية ونيازكها النارية.

فالرجوم هي الأحجار التي تحمل النار، أو تتبدل ناراً باصطكاكها الجوي، والمصابيح الرجوم ليست هي الكرات، إذ لا يرجم بها الشياطين، وإنما يرجمون منها، من قذائفها المنفصلة عنها، فـ ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ لا تعني في الكرات إلا أنها مقاذيف، طالما تعني في الأحجار المنفصلة الحائرة في الجو، تعني منها أنفسها.

والشهب هي النيازك النارية[1] فالرجوم التي تحترق في الجو وتندثر بعد نفاذ أمرها، هي الشهب، والتي تصل إلى الأرض، هي الأحجار السماوية التي تمطر أحياناً على شياطين الأرض، فـ ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ تعم شياطين الجن بالشهب، وشياطين الإنس بالأحجار، ومن رجوم شياطين الأرض سجّيل أصحاب الفيل وسواه، كالتي أرسلت إلى سدوم، وعلى قوم

(١) يقول (ماكسول رايد) العالم الفلكي في كتابه (النجوم للكل): في ليلة نوفمبر ١٨٣٣ - أصبحت السماء مليئة من الشهب، وكأنها الكواكب، جعلت السماء ميدان النضال، وادّعى بعض أنها كانت على كثرة ذرات البرد، فالشهب - هذه - كانت تنتشر، وكأنها من دورات النار، من النقطة التي فيها الصورة الفلكية «النوى»: اسد، لقد خيل إلى بعض الناظرين كأن الدنيا انتهت، وبعد قليل سوف تنفجر الأرض بهذه الشهب الساقطة عليها، وقد دامت هذه الحملة النارية طول الليل، مخيلة أنها تمطر من ثقبة وتنتشر، وتصاحبها في نضالها الكواكب حولها، نقل أحد الشاهدين هذه الحرب الجوية في (كارولينا الجنوبي): سمعت صوتاً خشناً خارقاً أيقظني من نومي، صرخة من ثمانمائة من العمال السود في المزارع، حاولت الكشف عن السبب، فإذا بصوت ضعيف من وراء الباب يطلبني، أخذت سيفي واتبعت صاحب الصوت، فسمعت ثانية يسترحمني قائلاً: قم فقد احترقت الدنيا، فتحت الباب، ولست أدري هل كانت الصرخات المسترحمة أدهش، أم النظرة الرهيبة من الحرب الجوية، رأيت مائة من العمال ساقطين على الأرض، كانت حادثة عديمة النظير، وإن كانت لها أشباه في التاريخ.

لوط: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾[١] ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾[٢].

ثم كيف تقذف الرجوم والشهب إلى شياطين السماء؟ ولماذا؟ فهل يسمح للجن المؤمنين اختراق السماء إلى الملأ الأعلى للاستماع إليه؟ وهل يمنع الإنسان أيضاً من اختراق السماء وهو لا يستطيع التسمُّع إلى الملأ الأعلى؟ ثم الشهب والنيازك النارية والأحجار، هل إنها على كثرتها وتوافرها لا تهدف إلا قذف شياطين السماء والأرض؟ وكيف ذلك؟ تجد الجواب عنها في محالها الأنسب[٣].

﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾:

عذاباً فوق العذاب بخبره الحاضر الحاذر عن مستقبل شديد، ورجومهم يوم الدنيا - بواقعه - عليهم شهيد، فهم بين عذاب حاضر وآخر معتد عتيد، عذاب فوق العذاب وبعد العذاب وبئس للظالمين بدلاً.

عذاب معتد: لم يأت وقته، ولم يعد عدته، ولأنهم وقوده ولما يدخلوه، فإذا ألقوا فيه كمل العذاب بهذا اللقاء، كما يقرب البترول النار، فشهيق وفوار.

لا فحسب الشياطين: بناة الضلالة وأصولها من الجنة والناس أجمعين، بل الحكم يعمهم والكافرين أجمع:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾:

فالذين لا يرجمون - منهم - يوم الدنيا، هم شركاؤهم في عذاب جهنم

---

(١) سورة الذاريات، الآيات: ٣٢-٣٤.
(٢) سورة هود، الآية: ٨٢.
(٣) كما في سورة الحجر وفصلت والصافات والجن.

يوم الدين: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾(١).

﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾:

يلقون فيها مهانة لهم، وإلقاء للصلاءِ الوَقود، لكي يُصطلون بأنفسهم، فلقد كانت كاظمة غيظها، باطنة فورتها وميزها، وأما الآن وهي تعيش وقودها، فحق لها شهقتها وفورتها وثورتها على الكافرين.

الشهيق. هو الصوت الخارج من الخوف عند تضايق القلب من الحزن الشديد والكمد الطويل، وهو صوت مكروه سماعه، شديد إيقاعه.

أما إنها خائفة من وقودها الشديد، متضايقة القلب الحزين، من ورود هؤلاء الأرجاس الأوغاد، رغم تصبُّرها لورودهم، في كمد طويل!.

تشهق فائرة: مرتفعة الغليان، تجذبهم إلى داخلها جذب الهواء بشهيق النفس إلى داخل الصدر.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾:

من قولهم تميزت القِدر، إذا اشتد غليانها، ثم صارت الصفة خاصة الإنسان المغضب، وهنا وصفت النار بصفة المغيظ الغضبان الذي من شأنه - إذا بلغ ذلك الحد - أن يبالغ في الانتقام، ويتجاوز الغايات في الإيقاع والإيلام، وقد يوصف الإنسان الشديد الغيظ، بأنه تكاد يتميز غيظاً أي: تكاد أعصابه المتلاحمة تتزايل، وأخلاطه المتجاوزة تتنافى وتتباعد، من شدة اهتياج غيظه، واحتياج طبعه واحتدامه، فأجرى سبحانه هذه الصفة على نار جهنم ليكون التمثيل في أقصى منازله وأعلى مراتبه.

يا ويلاه! هل ألقيت فيها قنبلة ذرية فتميزت شاهقة فوارة؟ فإنها حصلت

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢.

على عُدتها بعد عِدَّتها تحرق بها وتحترق، تميز بها وتتميز، وهكذا أعدها ربها لهذا اليوم العصيب! أعاذنا الله شره بحق الحبيب محمد وآله الطاهرين.

﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾:

إنما يلقون فيها أفواجاً. فعذاب الإلقاء مهانة، وعذاب الأفواج تطلعاً واطلاعاً، بعضهم البعض، وعذاب النار الشاهقة الفوارة بوردهم، يضاف إليها كلها عذاب التنديد الشديد الذي لا جواب عنه إلا بلى!.

إنهم يساقون إلى جهنم ويلقون فيها أفواجاً: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾(١) جعل الخبيث على الخبيث وركمهم جميعاً: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾(٢) ركماً ولكي تشتعل النار وتتميز من الغيظ بركامة وقودها، تناصراً في الصِّلاء، وكما تناصروا يوم الدنيا في إيقادها على المؤمنين.

والملائكة الغلاظ الشداد، وهم أصحابها: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾(٣) هؤلاء العدول الموكلون بالنار يسألون أصحابها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾: حجة عليهم، وتنديداً بهم أن جاءهم نذير، إذ الهلاك يوم الدنيا ويوم الدين، ليس إلا عن حجة مسبقة تحملها النذر: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾(٤)، فالنذر تكفي حجة يوم الدين، ولو لم تغن أحياناً يوم الدنيا: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾(٥).

وإذ لا تنديد ولا عذاب لمن لم يأته النذر، فما هذا التنديد الشديد بمن لم يأتهم!: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ . . . وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾(٦).

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧١.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٧.
(٣) سورة المدثر، الآيتان: ٣٠، ٣١.
(٤) سورة الشعراء، الآية: ٢٠٦.
(٥) سورة القمر، الآية: ٥.
(٦) سورة سبأ، الآية: ٤٤.

تجد الجواب في: ﴿قَبْلَكَ﴾ فإذ لم يأتهم نذير في الفترة بين المسيح ومحمد ﷺ، فقد جاءهم النذير الأخير محمد، وفيه الكفاءة إنذاراً وفيه المزيد، وإنما الآية توضح السبب في تصلبهم في الكفر: أنهم لم يأنسوا بالنذر قبله، وأنه ﷺ يلاقي أشد الصعوبات في الدعوة، وعليه أن يصَّعَّد أصعب العقبات فيها: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾[1].

ثم إذا كان واقع الإنذار شرطاً لزاماً في جواز العذاب، فما هي - إذاً - حال من عاشوا زمن الفترة كما بين محمد ﷺ والمسيح عليه السلام؟ أو عاشوا في البلاد المنقطعة عن النذر أو عن إنذارهم كأمريكا، إذ اكتشفت قبل حوالي خمسة قرون؟ أو عاشوا في الفترة بين النبيين، بعد موت السابق وقبل بعث اللاحق، أو عاشوا في زمنهم ولكنهم لم يواجههم في دعوتهم؟ فليس هناك - طوال التاريخ - إلا القلة القليلة من الكفار الذين تحق لهم النار، لأنهم أتاهم - أنفسهم - نذير! ثم الكثرة الكثيرة لا يعذبون، إذ لم يأتهم نذير!

هنا وهناك تعرف الجواب إذا تعرفت إلى كيان النذير، الذي يفرضُ الحجة على المتخلفين:

إن الإنسان - غير المجنون والصغير - إنه يعيش نُذراً طوال حياة التكليف، مهما اختلفوا في مدى الإنذار وكيفيته، وطول مدته وقصرها، وقوة حجته وأقواها:

فالعقل نذير، والضمير الإنساني نذير، والفطرة نذيرة، وهذه نذر أنفسية دواخل ذواتنا، وهي أسس الإنذار، يتبنَّاها المنذرون المرسلون، وتتبنَّاها الآيات الآفاقية في دلالتها وإنذارها، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[2].

---

(١) سورة يس، الآيتان: ٦، ٧. (٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

فعلى العقلاء أن يعقلوا عما تحيطهم من آيات الله البينات، ولا أقل الآفاقية الكونية منها، ولا أقل الأنفسية! عليهم أن يعقلوا ويسمعوا ويعوا، ومنهم الماردون الذين يتأوهون يوم الورود: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾[١].

ثم الرسل المنذرون، ليس لزاماً عليهم الإنذار بأنفسهم مواجهة، ولا كلٌ في زمنه، إنما المدار على بلوغ الإنذار الذي فيه الحجة البالغة، سواء حمله الرسول بنفسه، أم بمبعوثيه، أم بكتابه، ولا سيما الكتاب الذي يحمل معجزة الرسالة ومعجزة الرسول - البالغة الخالدة: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾![٢].

فكل من بلغته الدعوةُ الحجةُ، كيفما بلغت، وبأيٍّ من الوسائل، فقد لزمته الحجة الإلهية: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٣].

والعذاب دون حجة الإنذار، وكذلك اللّارحمة واللاعذاب دون بلوغ الحجة، إنهما حجة للناس على الله، وحاشاه! ولكن: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[٤] تبلغ العالم بعلمه، والجاهل بعقله ما لم يقصر: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٥] ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[٦].

ولقد شمل الإنسان النذر وأحاطوا به طوال التاريخ: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[٧] ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٨] لا تشذ النذارة الإلهية جماعة من الجماعات البشرية، أو قطعة من

---

(١) سورة الملك، الآيتان: ١٠، ١١.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٥.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٦٥.
(٦) سورة طه، الآية: ١٣٤.
(٧) سورة فصلت، الآية: ١٤.
(٨) سورة فاطر، الآية: ٢٤.

قطاعاتها سواء أكان النذير من رجالات الوحي، أم رسلهم الخاصة، أو العامة، أم - وفي أقل التقدير - نذر العقول التي تهدي إلى نذر الرسل، وتدفع أصحابها للتحري عنهم.

ومما لا يريبه شك أن هناك قرى كثيرة ما أتتهم الرسل: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾(١) ولأن الأصل المبنية عليه الحجة ليس إلا وصول الإنذار الحجة، لا مواجهة أصحاب الوحي كل القرى بكل الأمم، ولأنها مستحيلة في الواقع، إضافة إلى عدم لزومها فيما يرام.

صحيح أن النذر والحجج تختلف، والبيئات تختلف، والعقول تختلف، ولكنما الجزاء كذلك يختلف، وفاقاً لاختلاف هذه المبادئ، و«إنما يداق الله الناس في الحساب يوم القيامة على قدر عقولهم»(٢).

ثم المكلفون في الفترة الرسالية على حد التعبير المسبق، لم يعيشوا إلا فترة رسولية، لا رسالية، حيث الإنسان - كائناً من كان - يعيش دعوات الرسل ورسالاتهم، المودعة في كتاباتهم، والمنقولة على ألسنة خلفائهم وعلماء أممهم، فهم رغم أنهم لم ينذروا بالرسل: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾(٣) - هؤلاء الآباء غير المنذرين - ولكنهم أنذروا بحملة الرسالات من العلماء والنبهاء، وعلى أقل تقدير بنذر عقولهم وفطرهم، وأخيراً لو كانوا قاصرين أو مستضعفين فهم ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾(٤) فالتوبة عليهم لضعف الحجة، والعذاب - ولا ريب أنه قليل - لأصل الحجة ما داموا عقلاء! ذلك ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(٥).

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥١.
(٢) أصول الكافي: باب العقل والجهل عن الإمام الباقر عليه السلام.
(٣) سورة يس، الآية: ٦.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٦.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٨٢.

وأما العائشون في مثل أمريكا، فمن أين أنهم كانوا منقطعين عن الرسالات، ألفصل البحار حولهم؟ فعلَّها كانت متصلة قبل اكتشاف أمريكا، اتصالاً برياً، أم بحرياً بقرب السواحل، ثم ابتعدت لفترة، اكتشفت لآخرها، أم - كأبعد الاحتمالات - كانت المواصلات بحرية رغم بعد سواحلها، وأخيراً، لو تأكدنا من انقطاع المواصلات كلها، بين أمريكا وأراضي الوحي، فمن المحتمل المعقول، بل المدلول عليه بالآيات، أنه كان فيهم منذرون، مستقلون بالوحي، أم من أتباع رجالات الوحي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ...﴾[1].

فهل يا ترى أن الأمة الأمركانية - قبل اكتشافها - لم تكن أمة بشرية حتى تستحق نذيراً يخلو فيها؟: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾![2] أفهل نكذب كلام الله لأن تاريخ الرسالات لم ينقل لنا عن أنبياء أمريكا شيئاً؟

والقرآن يقول: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[3] وكيف بنا! إذ نجهل أحياناً من قصهم الله، فكيف بمن لم يقصصهم؟!

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾:

هذا الاعتراف - إذ لا مرد لهم منه - إنه عذاب نفسي فوق عذاب التنديد، إضافة إلى عذاب السعير، وشهود الجماهير، وإلقائهم جماعة في السعير مهانة، فقد شملهم وأحاط بهم مختلف ألوان العذاب: نفسياً وجسدانياً، وكما كانوا عذاباً يوم الدنيا في الناحيتين، وخلقوا جو العذاب لمجتمعهم..

وهنا نعرف من الجواب أنهم كانوا ممن جاءهم نذير بالوحي، فواجهوا

---

(١) سورة غافر، الآية: ٧٨.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٤.

(٣) سورة غافر، الآية: ٧٨.

سفراء ربهم بكل وقاحة وحماقة، تجمع بين توهين الله بفرية: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ وتوهين الرسل: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ وهذه إهانة ثانية لله تعالى، إذ يحسبون رسالته السامية ضلالاً كبيراً، وهؤلاء هم المشركون وكما عن باقر العلوم عليه السلام (١).

ومن هنا نعرف وهن العذاب لمن لم يعش الرسالات، أو يواجهها بهكذا تكذيب وقح، فكل إنسان يعمل على شاكلته، ويجزى على شاكلته، وكان ربك بصيراً.

﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾:

أجل - إنما هو السمع وعقل ما يسمع، يفلح الإنسان في الحياة، ويفلج خصومه ضد الحياة! سواء أكان سمعاً بسماع الأذن فعقلاً عما سمع، أو سمعاً بأذن القلب وعقلاً له كذلك، فإن للقلب أذناً كما للجسم.

وهناك اتصالات للإنسان بالعالم الخارجي، تجعله كأنه العالم كله، فيمشي مع الكون صراطه المستقيم. . بالسمع والبصر ومطلق الإحساس.

ولكنما السمع أفلح ما يكون وأقربه إلى الاعتبار والعقل، فأكثر ما يسمعه الإنسان ويفهمه، أنه يعقله، دون البصر والحس، فإنهما بعد السمع في الإنتاج.

كذلك دواخل الإنسان من فطرة وصدر وفؤاد وقلب ولب ووهم وخيال، فإن العقل فوقها لأنه الذي يعقل: يأخذ - المفاهيم، بالسمع وبالبصر والإحساس وسواهما، يعقلها فيحولها ويغربلها إلى الصدر والقلب، والقلب عامل نهائي في غربلة ما يرده من الصدر والعقل.

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٨١ محمد بن مسلم عنه عليه السلام تفسيراً لهذه الآيات.

فإنما هو السمع والعقل، إذا عملا واعتملا كما يجب، كان بعده الفلاح، ثم للمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد، ما لم يقصر في الطريق.

ثم العقل: منه قبل السمع: يدفع صاحبه لكي يسمع، ومنه بعد السمع يدفعه لكي يعقل ما سمع، وكثير هؤلاء الذين يسمعون ولا يعقلون، لأن سمعهم ليس عن عقل، أو يكتفون بالسمع فراراً عن تكلفات العقل فيما يسمعون، وكثير هؤلاء الذين لا يسمعون لكي لا يعقلوا، وهم أبعد وأضل سبيلاً، وقليل من يسمع ويعقل ثم يواصل في عقله وسمعه، وعلى حد قول الرسول ﷺ: «ما يجزى أحد يوم القيامة إلا على قدر عقله»[(١)]، اللهم اجعلنا من هؤلاء القلة.

وإنما يعطف العقل على السمع هنا بـ«أو» لأن عقل الحقائق لا يختص بواسطة السمع وسواه من وسائط الإدراك، إنما الوسائط للأكثرية الساحقة من الناس الحسيين الذين ليست لهم تلك العقول الفائقة الناضجة، ولكنما العقلاء الناضجين يسمعون ويبصرون بعقولهم فوق ما يسمعه السامعون، فإنما هو العقل: عقل الحقائق وإدراكها، سواء أكان عن سمع الأذان، أم سماعاً عقلياً وفطرياً وفكرياً، وهذه هي رؤية الآيات الإلهية في الأنفس: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[(٢)]

---

(١) المجمع عن ابن عمر عن النبي ﷺ، وعن أنس قال: أثنى قوم على رجل عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: كيف عقله؟ قالوا: يا رسول الله! نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله؟ فقال: إن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، وإنما يرتفع العباد غداً في الدرجات وينالون الزلفى من ربهم على قدر عقولهم.
وفي نور الثقلين ٥: ٣٨٢ عن الكافي عن الصادق عليه السلام من كان عاقلاً كان له دين، ومن كان له دين دخل الجنة، وفيه عنه عليه السلام قيل له ما العقل؟ قال: ما عبد به الرحمان واكتسب به الجنان، قيل: فالذي كان في معاوية؟ فقال: تلك النكراء، تلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

فالذي يسمع ويعقل، أو يعقل ويسمع، أو يعقل دون حاجة إلى السمع، إلا عن رجالات الوحي لتكميل ما عقل، هذا الإنسان اللبق لا يورد نفسه هذا المورد الوبيء، ولا يجحد مثل ما يجحد به أولئك الأوغاد المناكيد، ولا يتسرع باتهام الرسل بالضلال الكبير، فلا يكون آخر مطافه عذاب السعير: وماذا عليهم لو سمعوا من العقلاء النابهين، أو عقلوا في أنفسهم! فإن حدود كيان الإنسان كإنسان، إنما سمعه من العقلاء، وعقله في نفسه، ولتصبح حياته في ازدواجية مشرِّفة لا يضل فيها، وأما إذا حصر سمعه بالمضلات، وعقله بالملهيات والشهوات فهو السعير في نفسه، وإنما سعير النار صورة واقعية عن سعيره:

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: كما سحقوا كيانهم الإنساني بسحق عقولهم ومحق فطرهم: بعّدوا عقولهم عن السمع، وأسماعهم عن العقل، فحُرموا الحياة حق الحياة، فهم يوم القيامة عن حياة الجنة مسحوقون: بعيدون.

﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾: وهو هنا عدم عقلهم، سواء عن سمعهم أو سواه، فأكبر الذنوب عدم استعمال العقل، لا عدمه، فإنه الجنون الاضطراري، والتكليف خاص بالعقلاء، وإنما الذنب هو الجنون الاختياري، للعاقل الذي لا يستعمل عقله حتى يصبح كأنه مجنون، في تفكيراته وتصرفاته الفوضى.

إيقاظان:

قد يُستند إلى هذه الآيات في انحصار عذاب النار بالكفار المكذبين للنذر: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ ... فَكَذَّبۡنَا ... إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ حيث العموم المستغرِق لأهل النار في المكذبين الكفار! وهذا خلاف الآيات الشاملة لغيرهم، أو الخاصة بمن سواهم من المتخلفين!.

والجواب نجده في الآية المسبقة: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ...﴾

فهم المعنيون بـ ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ...﴾ لا كل أهل النار، وإثبات النار لهؤلاء الكفار لا ينفيها عن سواهم ممن يستحق النار، وإنما اختص المكذبون بالذكر هنا لأنهم صِلاء النار ووَقودها، وهم الخالدون فيها أبداً، دائمون فيها ما دامت.

وقد يستند الجبرية هنا بـ«لو» - الدالة على امتناع مدخولها - على أن سماعهم للحق وعقلهم عنه كان من المستحيل: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ﴾ فكيف يلامون ويلومون أنفسهم؟

والجواب: إن كانت هناك استحالة فإنما هي بالاختيار: إنهم تمادوا في الطغيان حتى كأنهم أصبحوا طغاة في ذواتهم بما كسبوا: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[1] فمن رين على قلبه لا يستطيع السمع والعقل بما كسب، ومن العقوبات الإلهية يوم الدنيا أنه يُزيغ قلوب من زاغوا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾﴾:

الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون عن علمٍ بما يخشى منه، ولذلك خص بها العلماء بالله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾[3] ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾[4].

والخشية العالمة من نتائج العقل الفعال، فأصحابه يخشون ربهم، يخشونه لما عقلوه وعلموه من ربوبيته لهم ولعالمهم، وكلما ازدادت المعرفة هذه ازدادت الخشية، وكلما ازدادت الخشية ازدادت المعرفة، تناصراً في الزلفى، ابتداءً من العقل.

---

(١) سورة المطففين، الآية: ١٤.
(٢) سورة الصف، الآية: ٥.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٨.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: غيب الرب، فرغم أنه غيبٌ عن الإحساس يخشونه، لأن عقلهم عنه وعلمهم به جعلهم كأنهم يرونه: «اعبد ربك كأنك تراه وإن لم تكن تراه فإنه يراك».

و﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: غيب العقل، فبه يعرف الرب ويخشى، فهو لا يعرف ويخشى بالحس «فلا يُحس ولا يُجس ولا يمس ولا يدرك بالحواس الخمس» وإنما يعرف بالعقل وبأصحابه من الفطرة والصدر والقلب، عقل معرفة لا عقل إحاطة واكتناه ذات أو صفة.

و﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: غيباً عن الناس، بينه وبين ربه، ولكي تسلم خشيته عن الرئاء، طالما يخشاه في الناس أيضاً، فمن الناس من يخشى ربه عند الناس، وإذا خلى عنهم لا يخشاه، أو لا كما يخشاه عند الناس، ومنهم من يخشاه في الغيب إخلاصاً في الخشية، ثم قد لا يخشاه في الناس، زعم أنه مزيد في الإخلاص! ومنهم من يخشاه في الغيب أكثر مما يخشاه علانية، ومنهم من يعكس أمر الخشية هذه وهم الأكثرون، ومنهم من يخشاه في الغيب والشهادة على سواء، فلا يفرق له حضور الناس وغيبهم، وهؤلاء هم الأقلون عدداً، وهم المعنيون هنا، وإن خصت خشيتهم بالغيب هنا بالذكر، لأنه الأصل فيها، ثم من سواهم في هدى أو ضلال، مهما اختلفت درجاته أو دركاته!.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ وهو غيب، بغيب عقولهم، وفي غيب عن الناس ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: مغفرة لرفع ما ربما يعرضهم من خطأ وغفلة، ودفع ما ربما يقصدهم ولمَّا، مغفرة دون عذاب، ولأنهم تبنَّوا حياتهم من خشية الرب، وهي من أكبر كبائر الحسنات اللاتي يذهبن السيئات: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1] ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.

عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[١] وأجر كبير لموقفهم هذا - الكبير.

﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾:

أسروا قولكم: مع ربكم - في ذكره ودعائه وعبادته، أو في معصيته، أو اجهروا به، فهما على سواء لربكم: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فالقول إبداء لما في الصدر، والله عليم بذات الصدور، أكثر مما يعلمه ذوات الصدور من أنفسهم.

فهل يجهر المؤمن بقوله لكي يعلمه الله؟ فلا يصلح هكذا جهر! أم يجهر لكي يتبعه غيره فيشاركوه في عبادة ربه؟ فنعم ونعما هو! أم هل يسر الكافر بقوله لكي يخفيه عن الله، فالله عليم بذات الصدور! ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[٢] فكيف بالجهر، وتقديم السر هنا يوحي بما يروى أن الكفار كانوا يسرون من وقيعتهم على النبي لكي لا يسمعه ربه فيخبره به[٣] كما ويوحي بتقدم السر على الجهر إذ القول إنباء عما في الضمير، والله تعالى خبير بما في الضمير ولمَّا يظهر، ثم خبير به إذا ظهر وهو أجدر، فكأنه أخبر بالسر من العلن إذ قدم السر، ولكنهما له سواء: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: صاحب الصدور، فإذا هو عليم بأصحاب الصدور ذواتهم، فكيف تخفى عنه الصدور ومطوياتها.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾:

لطيف في ذاته فلا يُرى، ولطيف في خلقه و«بخلقه بلا علاج ولا أداة

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.
(٢) سورة طه، الآية: ٧.
(٣) عن ابن عباس: كانوا ينالون من رسول الله ﷺ فيخبره جبرائيل، فقال بعضهم لبعض: أسرّوا قولكم - لئلا يسمع إله محمد فأنزل الله هذه الآية.

ولا آلة، وإن كل صانع شيء فمن شيء صنع، والله الخالق اللطيف الجليل خلق وصنع لا من شيء» كما عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام [١].

﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: وعلى حد تفسير الإمام الرضا عليه السلام: «وأما الخبير فالذي لا يعزب عنه شيء، ولا يفوته شيء، ليس للتجربة ولا للاعتبار بالأشياء، فعند التجربة والاعتبار علمان ولولاهما ما علم، لأن من كان كذلك كان جاهلاً، والله لم يزل خبيراً بما خلق، والخبير من الناس، المستخبر عن جهل، المتعلم، فقد جمعنا الاسم واختلف المعنى»[٢].

وإن اجتماع الاسم واختلاف المعنى بين الخلق والخالق، يعم الذات والصفات والأفعال أجمع، فالموجود يطلق عليهما، ولكنما حقيقة الوجود الإلهي تباين وجود المألوهين تبايناً كلياً، ولا يعني باختلاف المعني، اختلاف المفهوم فقط، بل كل ما وراء الاسم، من مفهوم وحقيقة خارجية، فكما أن واقع الوجود الإلهي يباين واقع وجوداتنا «باين عن خلقه وخلقه

---

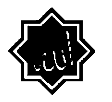
(١) أصول الكافي عنه عليه السلام في حديث طويل، قوله عليه السلام: إنما قلنا اللطيف للخلق اللطيف لعلمه بالشيء اللطيف، أو لا ترى إلى أثر صنعه في النبات اللطيف، ومن الخلق اللطيف، ومن الحيوان الصغار، ومن البعوض والجرجس، وما هو أصغر منها ما لا تكاد تستبينه العيون، بل لا يكاد يستبان لصغره، الذكر من الأنثى، والحدث المولود من القديم.
فلما رأينا صغر ذلك في لطفه واهتدائه للفساد والهرب من الموت والجمع لما يصلحه، وما في لجج البحار وما في لحاء الأشجار، والمفاوز والقفار. وأفهام بعضها عن بعض منطقها، وما يفهم به أولادها عنها، ونقلها الغذاء إليها، ثم تأليف ألوانها حمرة مع صفرة، وبياض مع حمرة، وأنه ما لا يكاد عيوننا تستبينه لدمامة خلقها، لا تراه عيوننا، وتلمسه أيدينا، علمنا أن خالق هذا الخلق لطيف لطف بخلق ما سميناه...

(٢) أصول الكافي علي بن محمد مرسلاً عن أبي الحسن الرضا عليه السلام - وفي تفسير البرهان ابن بابويه بإسناده عنه عليه السلام قال: إنما سمي الله بالعلم لغير علم حادث علم به الأشياء واستعان به على حفظ ما يستقبل من أمره، والروية فيما يخلق ويفنيه ما مضى مما أفنى من خلقه مما لو لم يحضره ذلك العلم ويعينه، كان جاهلاً ضعيفاً، كما أنا رأينا علماء الخلق إنما سموا بالعلم لعلم حادث إذ كانوا قبله جهلة، وربما فارقهم العلم بالآية فصاروا إلى الجهل، وإنما سمي الله عالماً لا يجهل شيئاً فقد جمع الخالق والمخلوق واختلف المعنى على ما رأيت -.

باين عنه» كذلك المفهوم من الوجودين، فنحن نفهم من وجوداتنا ما نفهم، ولا نفهم من حقيقة الوجود الإلهي إلا أنه غير معدوم، وأما الإحاطة بوجوده، أو إدراكه ولو شيئاً ما - فلا!.

فالاعتراف بأنه خالق، لزامه الاعتراف بعلمه، إذ الخلق يلزمه اللطف والخبرة: العلم والقدرة والحكمة والبصيرة، فالخلق الفوضى لا يأتي إلا بالفوضى والفتور والفطور ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾[1]!

فمهما أنكر الماديون الخالق المجرد عن المادة، فهل بإمكانهم إنكار الخلق، وإن خالقه عليم لطيف خبير؟! وإذا لم تدل حكمة الخلق وروعته وتناسقه وتلاؤمه، على لطف خالقه وخبرته، فهل تدل على جهله وفوضويته؟ فهل بإمكان الجهل والفوضى أن يأتيا بالحكمة، وليس بإمكان العلم؟ إذاً فعلى الجهال أن يحتلوا كراسي التدريس في مختلف العلوم، ثم الأساتذة العلماء يعتبروا أنفسهم خدامهم أو تلامذتهم!.



(١) سورة الملك، الآيتان: ٣، ٤.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾:

الأرض الذلول:

نستوحي من جعل الأرض ذلولاً أنها كانت قبل ئذٍ شماساً غير ذلول، وبما أن الذلَّ ما كان بعد تصعُّب وشِماس، والذلول هي الدابة التي ذلت بعد شماس، نتأكد أن أرضنا هذه تحكمها حركات متلائمة كالدابة الذلول، لحدٍّ كأنها دابة، وقد ذكرت لها مناكب كما للدابة: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾!.

فمن رحمته تعالى أنه جعل أرضنا الشموس، المحترقة المجنونة، التي

ما كانت تذل لراكب، ولا تحنّ لعائش، جعلها لنا كالمركوب الذلول، ممكّنة من الاستقرار عليها، والتصرف فيها، طائعة غير مانعة، ومذعنة غير مدافعة، ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾: في ظهورها وأعاليها، ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

فيا لحركات الأرض من نعمة في ليونتها ونعومتها، لحدّ ما كانت البشرية تحسها ولمّا، ولا تصدقها حتى برهن لها العلم، وقبله صرحت بها آيات بينات، منها آية الذلول، مهما أوّلها المفسرون الأُوَل، زعمَ سكون الأرض، وحتى الآن لا يكاد يصدقها المؤمنون غير المثقفين!.

هذه الوالدة الحنونة، تُنوِّم وتُعيِّش أولادها، وأفلاذ كبدها، بحركاتها الناعمة اللينة، حركات لولاها لانصدمت الأرض ومَن عليها، بما لم يكن ليجبرها أيُّ جابر.

فالأرض جعلت ذلولاً في حركاتها وحرارتها وجرمها وكل ما يصلح للحياة فيها، وهذه هي غاية الذل ومبالغته المستفادة من صيغة المبالغة «ذلول».

وآية القرار: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾[1] ليست بالتي تُسكن الأرض عن حراكها، بل تُقر الأرض في حركاتها، إذ «القَرّ» أصله البرد، إيحاءً بسابق حرارة الأرض وشماسها في حركاتها المجنونة، فجعلها ذلولاً، ومن ذِلِّها قرارُها: برودتها لحدّ تحنُّ لعائشيها وراكبيها أن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه.

ثم نجد آيات: «الكفات»، و«المهاد»، «والراجفة التي تتبعها الرادفة» ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[2] نجدها تصريحات في حركات الأرض، كما درسناها وندرسها في طياتها.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٤.

(٢) سورة يس، الآية: ٤٠.

فمن أسباب جعل الأرض ذلولاً جبالها الرواسي وكما في خطبة لعلي عليه السلام: «وعدّل حركاتها بالراسيات من جلاميدها» ومنها تبريدها عن حرارتها الزائدة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾.

إن هذه الجبال الشاهقة الخُشن الملامس، الصعبة المسالك، التي جعلت للأرض أثقالاً وأوتاداً، وللخلق معقلاً، إنها مع سائر المرتفعات هي مناكب الأرض، وقد ذللها الله تعالى على شموخها أن نمشي عليها ونستثمرها لصالحنا، أو نفجرها أو نستفجرها لصالحنا، ثم الأرض ذلول لنا، لا ليِّنة لا نتماسك عليها، ولا صعبة لا نقدر على حفرها وزرعها، ولولا أن الله تعالى جعلها ذلولاً لما أمكنت من التصرف على ظهرها، ولا مَثبت قدم عليها، ولا مسرح نعم فيها، سبحان الخلاق العظيم!

﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾: أما كانت الأرض قبلنا ذلولاً؟ وولادتنا نحن الأناسي من آدم ليست إلا زهاء مائة قرن، والأرض تعيش وتعيِّش العائشين عليها منذ ملايين السنين!؟

الجواب: إن «لكم» لا يخصنا نحن الإنسان من ولد آدم الأخير، بل تعم كل من يستأهل الخطاب بـ «كم» ممن عاش على وجهها منذ الملايين من السنين، وكما عن الإمام الصادق عليه السلام: إن الله تعالى خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم وأنت في آخرهم.

فـ «كم» هنا، تعني عامة المكلفين العائشين على وجه الأرض، منذ جعلت ذلولاً، أو أن الخطاب هنا تختصنا تشريفاً وتكريماً لنا، كأنما الأرض ذللت لنا، وقد كانت مذللة لمن سبقنا. فقد أخذت الأرض - بجوها - تقبل بخار المياه وتُبدلها ماءً، وتقبل مياه السماء واختباءها في عيونها، وإنبات الأرض نباتها، فإعاشة حيوانها وإنسانها، وكما نجد عرض التكامل الأرضي في الآيات من فصلت.

إننا - لطول ألفتنا بالحياة على هذه الذلول، وسهولة استقرارنا عليها، وسيرنا فيها، واستغلالنا لتربتها ومائها وكلائها وهوائها - نحن ننسى نعمة الله في تذليلها لنا، والله تعالى يذكرنا إياها ويبصرنا بها في هذا التعبير العبير، عديم النظير، الذي كله علم وحكمة وموعظة وذكرى: يوحي أن هذه التي نراها مستقرة ثابتة، هي كدابة دائبة الحركة متحركة، رامحة راكضة مهطعة، لا تبعثر راكبها، ولا تتعثر خطاها، ثم هي حلوب: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

فيا لها من إشارة عابرة في الذكر الحكيم عن مركوبنا، تحمل ما لم يتحمله العلم على تقدمه البارع، مدى التأريخ وحتى الآن.

فالأرض ذلول في حركاتها حول نفسها وحول شمسها، وهي معها حول فلك جماعي تحول حولها المنظومة الشمسية، بسرعة على ترتيب: ألف - خمسة وستين ألف - عشرين ألف: ميلاً في الساعة، ومع هذه الركضات المسرعة يعيش عليها الإنسان آمنا دون اضطراب فيها، ولا انفلات عنها، ولا دوخة وارتجاج في مخه، وفي كل هذه الدورانات حِكَم لا يحصيها العلم، وإن وصل إلى بعضها.

والله تعالى جعلها ذلولاً بآلاف من هذه المواقف الحكيمة الضرورية، التي لولاها، أو واحدة منها، لاستحالت الحياة عليها أو صعبت، وسوف نرسل البحث الفصل عن طائرتنا الجوية الكفات في سورة المرسلات، لو ساعدتنا الحياة، بتوفيق خالق الحياة والممات.

وهل لنا أن نأمن على هذه الأرض، ولأنها ذلولٌ؟ أما إن ذلتها ليست إلا بما جعلها تعالى لنا، فإذا شاء يخسف بنا الأرض فإذا هي تمور، أو يرسل علينا حاصباً!

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾:

هل يا ترى أن الله ساكن السماء وماكنها حتى يخسف بنا الأرض منها!

كلا! ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[١] ليس له مكان، لأنه الذي مكَّن المكان! وإلهيته تشمل السماوات والأرض، لا ذاته، وإنما قدرته وعلمه وقيوميته!

الجواب: إن من في السماء إنما هم المدبرات أمراً بإذن الله، لا ذات الله، سبحانه وتعالى عما يصفون، ومنهم ملائكة يصدرون عن أمره ويفعلون ما يؤمرون.

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾: يشقها بكم ويغيِّبكم فيها، فإذا هي تمور: تتردد ذهاباً وإياباً كالموج: أن يهزها هزاً ويرجها رجاً، فهي تمور وتفور، فتفرقكم في مورها من فورها، فالذي جعلها ذلولاً بعد شماسها، هو القادر على أن يرجعها شموساً مارداً مائراً.

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾:

الحاصب: الريح التي تأتي بالحصى والحجارة، وكما أرسلها على قوم لوط المجرمين: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾[٢] ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾: نذيري؟ كيف حال المنذَرين، المؤمنين منهم والكافرين، وكيف المنذِرون، فهل هم كما قلتم: في ضلال كبير؟ أم أنتم الأوغاد المناكيد!.

وإذ لم نرَ حتى الآن مور الأرض وحاصب السماء، فقد رأينا الزلازل والبراكين التي تكشف عن الوحش الجامح الكامن في الدابة الذلول، التي يمسك الله بزمامها فلا تثور إلا بقدر، ولا تجمح إلا ثوانٍ عدة، يتحطم فيها ما شيدناه، أو يغوص فيها إذ تفتح أحد أفواهها وتخسف قطعة منها وهي تمور!

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٤.
(٢) سورة القمر، الآية: ٣٤.

﴿ءَأَمِنتُم﴾ أمان الغافل الناكر مكر الله ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(١) ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾(٢).

هذا! أما إذا أمنتم إلى الله ورعايته ورحمته، فهذا من صفة المؤمنين، لا يقودهم إلى الغفلة والانغمار في غمرة الأرض ومتاعها، وإنما يدفعهم إلى الحياء من الله، وأن يرقبوا أعمالهم، ويربطوا بها أمنهم وآمالهم.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾:

نكيري عليهم بما أنكرت موقفهم كما أنكروني وعاشوا حياتهم نكيراً لي.. فنكيرهم كان إنكار نعمة الله بعدما عرفوها، وإنكار طاعة الله وعبادته، وإنكار نذره ورسله، ونكير الله عليهم أنه ينساهم كما نسوه ونسوا سوء الحساب، جهنم يصلونها وبئس المآب.

فنكير الله هنا هو الإنكار وما يتبعه من آثار الخراب والدمار، تصف لهم كيف كان هذا النكير وما أعقبه من تدمير خطير.

فهل بإمكان الإنسان أياً كان أن يكافح نكير الرحمن ويدافع عن نفسه مور الأرض وحاصب السماء، أو رجفة موضعية بسيطة، أو حسباناً؟ قد يخيل إلى البعض من العميان المناكيد أن الإنسان هو سيد الكائنات، وسوف يتمكن من كفاح الحوادث بقوة العلم، وهذا تكذيب لوعود الله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.
(٢) سورة النحل، الآيات: ٤٥-٤٧.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾:

طير فوقنا حين الطيران، صافات مبدئياً، لأن الصفيف هو الباعث الأكثري الأصيل للمُسكة والسير في الفضاء، ويقبضن، كعملية هامشية في الطيران، قبضاً للتهيؤ والإمداد للطيران، وللراحة، وللطيران في بعض الأحيان.

أولم يروا - فيما يرون - من عجائب الخلقة والقدرة الإلهية، مما يسبح في الفضاء دون عَمَد كسائر الأنجم بسمائها: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[1] ومن طائرتنا الأرضية الذلول الكفات السريعة السير والدوران، كيف تسبح في فلكها مع رفيقاتها السابحات: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ . . . وَٱلشَّمْسُ . . . وَٱلْقَمَرَ . . . وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[2].

أولم يروا إلى أمثال هذه الطائرات السابحات؟ فمن هذا الذي يمسكهن إلا الرحمن؟ لا نقول: إنه يمسكها عن السقوط دون سبب طبيعي، وإنما الأسباب الطبيعية هي أيضاً منه وهو يمسكها ويسببها، كانت ظاهرة لنا بمسبباتها، أم خفية: سوف تظهر أم لا.

ولقد أخذت البشرية مثال الطير، واختلق رمز مسكتها وطيرانها في الطائرات بعد أن سقطت ضحايا في دراسة الطيران من الطير[3]، ابتدأت الخطور الناجحة في صناعة الطائرات سنة ١٨٩١ م - إذ قام (ليليانتال) وراقب الطيور في حركاتها عشرين سنة متوالية، وقال: إني درست من هذه

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢.

(٢) سورة يٓس، الآيات: ٣٣-٤٠.

(٣) منهم رجل إيطالي في بلاط الملك جيمس الرابع الاسكندري في بداية القرن ١٦ م، وبعد قرن راهب ألماني، ثم مركيز فرنسي في أواسط القرن ١٨ م، ثم عباس بن فرناس صاحب صحاح الجوهري، حاولوا الطيران بأجنحة من ريش تقليداً ناقصاً عن الطير فأخفقوا جميعاً.

الطيور أن سير الطيران يتم للإنسان إذا تسنت له قوة رافعة كافية لأن تدفعه بالسرعة الواجبة للارتفاع عن الأرض، وحينئذٍ يمكنه أن يحوم في الفضاء كما يشاء، ولكنه مع نجاحه المبدئي أيضاً سقط من طائرته فمات سنة ١٨٩٦، وبعده - وعلى أساس فكرته وتجربته - قام شابان أمريكيان هما الأخوان (ويلبور) و(أورفيل رأيت) واستكمالاً ما تبناه المخترع الأول، شيئاً ما، فطار أحدهما في الهواء أربعة وعشرين ميلا في ثمان وثلاثين دقيقة، وهذا مبدأ فتح مملكة الفضاء، وهكذا إلى أن وصلت الطائرات في سيرها سرعة الصوت!.

أفلم يروا - فيما رأوا - إلى طائراتهم صافات في جو السماء، ما يمسكهن إلا الرحمن، لأنه الخالق أسباب المسكة والطيران، وخلق عقل الإنسان الذي استطاع به أن يكشف البعض عن رمز المسكة الجوية، فهل تطير الطائرات وتمسك إلا بالبترول؟ وقد خلقها الرحمن! أو هل بإمكانها الطيران لو لم يخلق الفلز الخفيف المناسب لغزو الفضاء، أو هل كان بمستطاعه هذا الاختراع لو لم يخلق له مثاله: الطير فوقه صافات ويقبضن! سبحان الخلاق العظيم.

ثم كم فرق بين طير الرحمن وطير الإنسان، فطير الرحمن يطير بشعوره الذاتي المتصل، بروح عاقلة فاهمة دون طيار غيره، وطير الإنسان يطير بشعور منفصل، بطيار الإنسان، فيه، أم في الأرض، بسياقته المنفصلة. وهذا ليس بإمكانه أخذ البترول في الجو، وبإمكان ذلك - ولو أحياناً - أخذ الغذاء والماء في جو السماء! طالما الاثنان من صنع الرحمن، ولكنما الضعف في طير الإنسان ناشئ عن صنعه وقلة علمه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[1]!

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

إن تلكم الخوارق نعيشها في كل لحظة، مهما أنسانا وقوعها المتكرر، فالطير في جو السماء، حالة الصف الغالبة، والقبض العارضة، يظل في الهواء، مشهد رائع، ومنظر فائق لا يَملُّه النظر ولا تُمليه الفِكَر، وما يمسكهن إلا الرحمن، برحمته التي وسعت كل شيء.

لا ننكر أن ذلك كله - على الأكثر - لأسباب طبيعته، ولكن مَن ذا الذي خلقها وسبّبها؟ ومَن الذي رتبها؟: النواميس التي تكفل آلاف الموافقات، وتكلف آلاف المناسبات، في الأرض والجو وخلقة الطير، لتتم هذه الخارقة، وتعم بانتظام دائب.

إنه ليس مَسك الكون فقط من خالقه، فمُسكة الكون، وترتيب الكون، وتركيب الكون، وآثار الكون وخواصه، وما إلى ذلك من مُسَك، ليست إلا من الرحمن: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾.

ليست هنا وهناك فوضى، دون بصيرة ولا هدف مقصود، وإلا لانخرط نظام الكون، وبطلت قوانينه، ويطل اكتشاف العلل من المعلولات، وبطلت العلوم بأسرها!

هل تظن أن إمساك الدواب على الأرض الطائرة، إنه أسهل من إمساك الطير في جوّ السماء؟ فهل يا ترى أيهما أصعب وأعجب؟ إمساك الطير، أو إمساكه بما يحمله؟ والأرض طير تحمل البليارات من راكبيها، أحياءً وأمواتاً: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾[1] كفاتاً: تسرع في طيرانها، متقبضة فيها أحياء ما عليها وأمواتها، مكافحة قانون الفرار عن المركز، وسوف يأتيكم نبأ الكفات في سورة المرسلات.

علّك تسأل: لماذا القرآن لا يصرح بطيران الأرض ومُسكتها في الجوّ، فيمثل الطير؟ الجواب: إنه يمن - فيما يمن علينا - بكفات الأرض، منة

(١) سورة المرسلات، الآيتان: ٢٥، ٢٦.

عابرة، كي لا تفاجأ بالتكذيب، لأنه خلاف الحس العام، فيخص التصريح، والأمر بالنظر، بما لا ينكره أي ذي بصر: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١] ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[٢].

جلنا جولات عاطفة عابرة، كلها عبرة، مع الأرض الذلول، والطير الممسَك، ومع الخسف والحاصب، ولم نجد لنا منها جنوداً منفصلة من دون الرحمن، بل هي والكون كله من جنود الرحمان:

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠)﴾:

إنهم غرتهم الحياة الدنيا وغرهم بالله الغَرور، فظنوا أن مانعتهم من الله آلهتهم التي ألهتهم عما يهمهم من متطلبات الحياة، وجمدتهم على ما غرتهم، فهل يجدون واقع النصر من جنودهم المزعومة من آلهة متفرقة مفتقرة إلى الله الواحد القهار؟

ثم رزق الله، المحيط بهم في آفاقهم وأنفسهم، المرسل من عند الرحمن بقدر معلوم، فهل من مرسل لهم دونه، إن أمسك رزقه؟

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١)﴾:

واللجاج في العتو والنفور - رغم لزوم الطاعة بوفور - إنه عادة كل كفور ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[٣] ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾[٤]؟

يا ليتهم ظلوا دون سلب أو إيجاب، ولم يضلوا هكذا في عتو ونفور،

---

(١) سورة النحل، الآية: ٧٩.
(٢) سورة النور، الآية: ٤١.
(٣) سورة النحل، الآية: ٨٣.
(٤) سورة النحل، الآية: ٧٢.

في طغيانٍ عاتٍ، وإعراض نافر، كأنهم يكافحون ألد أعدائهم، وينفرون عمن يخاصمهم حياتهم! فيا لهم من حالة مزرية وقحة حمقاء، فما لهم كيف يحكمون! وهذه هي مشية المكب على وجهه لا يعرف إلا هواه، ولا يمشي إلى هداه:

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾:

إنها صفة من يخبط في الضلال، أو يخرط الظلمات إلى النور، أهما على سواء؟

الضال الخابط الهابط حياتَه، كمن يمشي مكباً على وجهه، إذ لا ينتفع بمواقع بصره وهو في وجهه، وإذا كان الوجه مكبوباً على الأرض، كان ماشيه كالأعمى وأضل سبيلاً، لا يسلك جدداً، ولا يقصد سَدداً، فهو أبداً في بَدد، يعثر كل ساعة، ويخر على وجهه في كل خطوة لاختلال قواه وانقلاب مشيه.

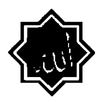
الأعمى الماشي برجليه، قد يمشي على صراط مستقيم، أو يمشَّى عليه، إذ لو فقد البصر، لم يفقد البصيرة، فهو يمشي بما به يمشى: برجله، لا على وجهه.

ولكنما العاتي النفور الكفور يمشي مكباً على وجهه، أفبإمكانه أن يمشي أو أن يُمشَّى؟ كلا - وإنه يظل مرتكساً في حمأة الضلال!.

إنه مثل ما ألطفه وأمثله، لمن لا يعرف إلا نفسه بهواه، فليست مشيته في الحياة، في حركاته وتصرفاته، في تطوراته وتفكيراته، ليست إلا بغية الهوى وشهواتها، فلا يبصر إلا هواه، ولا يتبصر لهداه، فهو في خوضه يلعب، وفي غيه على عيه يتردد، يمشي دوماً إلى نفسه، فهي غايته القصوى، دون أن يمشي على صراط مستقيم: إلى الله ومعرفته، وإلى صالح مجتمعه لمرضاة الله، فهو كدودة القز، ينسج حوله في كد، ويحبس نفسه لصالحه،

ثم يخرقه لكي ينجو عن الخفق، ولا يستفاد من نسجه لصالح غيره، إلا أن يبتدره صاحبه، فيقتله بماء ساخن رغماً عليه، فينتفع من نسوجه غير المخروقة!

هذا الذي يمشي مكباً على وجهه، حياته مركوسة وقلبه منكوس[1] وهو منحوس، لا يأتي حياته إلا بركسة ونكسة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[2].



(١) معاني الأخبار للصدوق، والكافي بالإسناد إلى سعد الخفاف عن الباقر عليه السلام قال: القلوب أربعة: قلب فيه نفاق وإيمان، وقلب منكوس، وقلب مطبوع، وقلب أزهر أنور - قلت: ما الأزهر؟ قال: فيه كهيئة السراج، فأما المطبوع فقلب المنافق، وأما الأزهر فقلب المؤمن، إن أعطاه الله عزّ وجلّ شكر، وإن ابتلاه صبر، وأما المنكوس فقلب المشرك، ثم قرأ هذه الآية ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿أَنشَأَكُمْ﴾: بأبدانكم: ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(١) وبأرواحكم: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾(٢) وبما أن الإنشاء هو الإحداث والتربية، لذلك يعم إحداث وتربية الإنسان بجزأيه، كما وأن جعل السمع والأبصار والأفئدة - هنا - هو إنشاؤها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ﴾(٣).

وإنشاء الإنسان هكذا وإن كان يشمل السمع والأبصار والأفئدة، ولكنها

(١) سورة هود، الآية: ٦١.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٧٨.

خصت هي بالذكر إيحاء إلى أهمية الروح بين جزأي الإنسان، ثم أهمية هذه الثلاث بين قواها الداركة، ثم اختصاص الأولين بين الحواس لأهميتها بينها، كما اختصاص الأفئدة بين المدركات الروحية لأنها أهمها، كل ذلك: إضافة إلى شمول السمع والأبصار، أبصار الفؤاد وسمعه - أيضاً، ولكنما الفؤاد يختص بقلب الروح فحسب.

نرى في ثلاثة عشر موضعاً من القرآن قورن السمع بالأبصار، قَرْن المفرد بالجمع! ولماذا؟ طالما الأذن يجمع «بالآذان» في مواقف الجمع: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾[1] و﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾[2] ولا نجد «الأسماع» ولا مرة واحدة!

الجواب: عله أن السمع مصدر في أصله فلا يجمع، كما: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[3] ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[4].

وأن السمع - غير المصدر - قوة في الأذن، وليس هو الأذن، ولكل منا سمع في أذنين، وليس بصر في عينين، حيث البصر هو العين، أو منه العين، فلا يجب إفراده، فالسماع أو قوة السماع لا يجمع، إلا أن يعنى به ما للناس أجمع، كما في القلوب.

وإن السمع - عله - جمع، أو مفرد وجمع، كما عن سيبويه، لذلك نرى صيغة الإفراد كأنه لزام السمع دون أخويه: الأبصار والأفئدة.

ثم السمع أفضل الحسين، وكما أفرد بالذكر مع العقل: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وإنما الأبصار من مساعدي السمع والأفئدة وقد يعم - كما هنا - سمع الأذن وسمع القلب بأذنه، كما يبصر

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٥.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٤.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢١٢.
(٤) سورة ق، الآية: ٣٧.

ببصره: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩﴾[(١)] ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[(٢)] فإن بصر العين وسمع الأذن كان لهم ولكل الحَيَوان يوم الدنيا، لا يختصان بيوم تبلى السرائر وتنكشف الحقائق.

كما وأن الأبصار تعم البصر والبصيرة، بصر العين وبصيرة العقل والقلب والصدر والسر والخفي والأخفى.

والفؤاد كالقلب بتضمين معنى التفؤُّد، أي التوقد، فالقلب المتوقد بنور المعرفة الفطرية ثم الاكتسابية على أساس الفطرة، هذا هو قلب الإنسان، وما به الإنسان إنسان، دون القلوب المقلوبة الميتة التي لا وقود لها، أو تتوقد بنيران الشهوات والتخلفات.

نقف هنا وقفة الحائر أمام خادمي الفؤاد: السمع والبصر وما فيهما من عجائب لم يبلغ العلم إلا إلى شيء منها يسير، بجنب المجهول الكثير الكثير!

إن حاسة السمع تبدأ في القسم الخارجي من جهازها «التليفوني» «الأذن» ولا يعلم أين تنتهي إلا الله! والقسم الداخلي من هذا «التليفون»، يأخذ بما فيه من «التيه»: الاهتزازات الواقعة على طبلة الأذن، والتيه يشتمل على نوع من الآلية بين لولبية ونصف مستديرة، وفي القسم اللولبي وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع في الرأس، وفي الأذن مائة ألف خلية سمعية دقيقة تحير العقول[(٣)].

«ومركز حاسة الإبصار هو العين التي تحتوي على مائة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء، وهي أطراف أعصاب الأبصار، وتتكون الشبكية من تسع طبقات منفصلة، والطبقة التي في أقصى الداخل تتكون من أعواد

---

(١) سورة النازعات، الآيتان: ٨، ٩.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٢.

(٣) مقتطفات عن كتاب: الله والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل ص ٥٧.

ومخروطات، يقال إن عدد الأولى ثلاثون مليون عود، والثانية ثلاثة ملايين مخروط»[١].

هذه من الهبات العظام التي مُنحها الإنسان ليشكر ربه فيها وبها، ولكن: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فقليل منا شكور، وهذا القليل كذلك قاصر عن أداء القليل من شكره، فلنعترف بالقصور والتقصير بجنب الله، عله يعفو عنا بفضله وكرمه.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

ذرأكم: أظهركم وأوجد أشخاصكم، بعدما كنتم خاملين تحت عموم التراب، دون أشخاص ولا شخصيات، ذرءٌ أول، إظهار أبوينا الأولين وإشخاصهما إلى الوجود، وذرءٌ ثان مواصلة ذرئنا في الأنسال، الذراري من الآباء والأمهات: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ...﴾[٢]: يبرزكم أنسالاً في جعل الأزواج فلولاها لم تكن أنسال، وكما يذرأ الحيوان ومختلف النبات بالأزواج: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾[٣] كما وأن لذرء النبات والحيوان دخلاً جوهرياً لذرء الإنسان، فقد زرعنا الله تعالى كالنبات من الأرض: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[٤] وذرأنا أولاً وعلى طول الأنسال.

﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: وسوف تحشر: تجمع ليوم الجمع - هذه الأنسال الكثيرة المختلفة، ذرأكم في البداية، وإليه تحشرون في النهاية - فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[٥] ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾[٦].

---

(١) عن كتاب: العلم يدعو للإيمان ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكي ص ١١٣.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٣.
(٤) سورة نوح، الآية: ١٧.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.
(٦) سورة النجم، الآية: ٢٥.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

فهل يا ترى أية علاقة لمعرفة وقت الحشر بصدق وعده؟ فإذا قال المسؤول: سوف تحشرون بعد ألف سنة، فهو صادق! وإن لم يدر كان كاذباً!.. فأيٌّ منا يدري متى يموت، رغم علمه أنه سوف يموت، فهل لأحد منا نكران موته لأنه لا يدري متى هو؟.

أو لم يكف لتصديق وعد الحشر الجزاءِ عدلُ الله وحكمته، ولو لم يَعِد به، وقد وعد! أم لا يكفي شاهداً على إمكانية الحياة بعد الموت، تواتر الموت والحياة، متواصلة متعاقبة على الكائنات؟ مهما جهلنا وقت الحشر!

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾:

أنا نذير بين يدي عذاب شديد، مبين في إنذاري في لغة الإنذار، وكيفية الإنذار، وحجة الإنذار، لا أملك من موعد الحشر إلا الإنذار له، وإنما علمه عند الله.

وهكذا تكون أسئلة الناكرين المعاندين للحقائق، يدخلون أنفسهم في مآزق ويفضحونها، زعم أنهم ناجحون في هزئهم بحملة الرسالات الإلهية.

وبينما هم يسألون شاكين هازئين متعنتين، ويجابون عن حتم وجزم، نراهم يفاجؤون بخبر الحشر كأنه واقع، فيجابون بواقع الجزاء عما يدّعون:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

فلما رأوا المحشر كما وعدوا به - رأوه زلفة: قريبة - وكل آت قريب - سيئت وجوه الكافرين به، بادياً فيها الاستياء، ووجدوا جوابهم حاضراً حاذراً في تأنيب: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾: تطلبونه هازئين!.

يا ويلاه! كيف رأوه الآن وهم بعدُ أحياء ناكرون؟ أقول: هذه قفزة علمية - كأنها الواقع - يقفز بهم الله من الدنيا إلى قرب الحشر، إلى أشراط

الساعة، طيّاً لخط الزمن الفاصل بين البعدين، فإن الزمن إنما يقوم بالقياس إلى أهله، الحاكم عليهم، والمتصرف فيهم، دون خالق الزمن، الكائن قبله وبعده ومعه وإنّما يجذب الله الناكرين، إلى موقف علمه تعالى وموقعه من الحشر، برفع حجاب الزمن، بعدما رفع حجب الارتياب فيه كلها، مواجهة حالة التكذيب بمفاجأة شعورية تصويرية كأنها توقفه أمام الواقع ولما يقع، توقفه على أشرافه وأشراطه فيقال: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾! تطلبون هازئين متعنتين!

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾؟

توحي الآية بالبعض من أمانيهم الكاذبة: هل لنا الخلاص من محمد وحزبه؟ أن يهلكوا فلا نسمع بلاغهم الحار ليل نهار، عن النشر والحشر، في دار القرار؟ فجاء الجواب: أن لا صلة لهلاكهم أو رحمتنا لهم بإجارة هؤلاء من عذاب أليم، فهل إذا انقطع النذير المخبر عن الله، إذن ينقطع العذاب المخبر به، فما كيد الكافرين إلا في تباب، دون انقطاع العذاب!

ثم إنها تربط إجارة الكافرين من عذاب أليم، ببقاء الرسول هادياً ومبشراً ونذيراً، فبلاغه ليل نهار هو الذي يجيرهم من عذاب النار! وهذا إيحاء بأن حجة الرسالات هي أقوى الحجج، لا أنها الحجة وحدها، فلولاها لم يكن في سائر الحجج برهان يحتج به لعذاب المتخلفين، فحجة الرسالات تكملة لحجج الفِطر والعقول، وإن كان دونها أعذار للقاصرين والمستضعفين، فهم ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾[1].

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: رحمة تعم الخلق أجمع، فكيف تشذ عن المؤمنين

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٦.

بالرحمن، وهم مختصون بزيادة الرحمة وهي الرحيمية، فهل يا ترى إن الرحمن الرحيم يهلك المؤمنين بمن فيهم الرسول الأقدس وهو أول العابدين، يهلكهم لكي يقطع بذلك أخبار الوحي وإنذاره عن الكافرين.

﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ لا سواه، ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا على سواه ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ نحن المؤمنين، أو أنتم الكافرين.

وهنا: أخيراً - لا يحتم الضلال عليهم رغم الحتم المبين! - ورغم كون الهدى ظاهر البرهان، وإنما يرجعهم إلى أنفسهم - لو بقيت لهم نفوس إنسانية - حتى يدبّروا: ﴿مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾!.

فهل هذه البراهين تشي بالدمار على أفكارهم الخاوية، أم على المؤمنين؟.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾؟

.. إن أصبح ماؤكم الظاهر على وجه الأرض، أو ماؤكم النازل من السماء: إن أصبح غوراً: غائراً في العمق غائباً فيه: في عمق الأرض أو أعماق السماء، فلم تستطيعوا له طلباً، فمن هذا الذي يأتيكم بماء غيره معين، ظاهر على وجه الأرض، مشهود؟ أم إله غير الله يأتيكم به فكيف تأفكون، وعلى أبواب الضلالة تعكفون!

الماء في كثير من المواضيع - ولا سيما هنا، إذ يلحق ماءَ الحياة: الرسول الأقدس محمداً ﷺ - إنه يشير إلى الحياة الروحية، فلئن أصبحت رجالات الوحي غوراً غائباً، بالموت وانقضاء الوحي، أم الانعزال عن بلاغ الوحي، أو فترة الغيبة عن الناس، فهل إله غير الله يرسل لكم رسلاً مبشرين ومنذرين، ودعاة مصلحين؟.

وهكذا تعني أحاديث الجري والتأويل، بياناً لمصداق من المصاديق

المختلف فيها بين المسلمين، من الإمام الغائب المنتظر عليه السلام [(١)] وعلوم الأئمة[(٢)]، وكما يصرح الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنه تأويل لا تفسير، على حدّ قوله عليه السلام: إذا فقدتم إمامكم فلم تروه فماذا تصنعون[(٣)].

هذا، اعتباراً أن الأئمة من آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هم - بعلومهم وبلاغهم - استمرارية الرسالة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم، فهو الماء المعين النضب العذب النابع الفائض المتدفق، وهم سواقيه الموصلة له إلى الأمة أجمع! اللهم صلّ عليه وعلى آله الطاهرين.

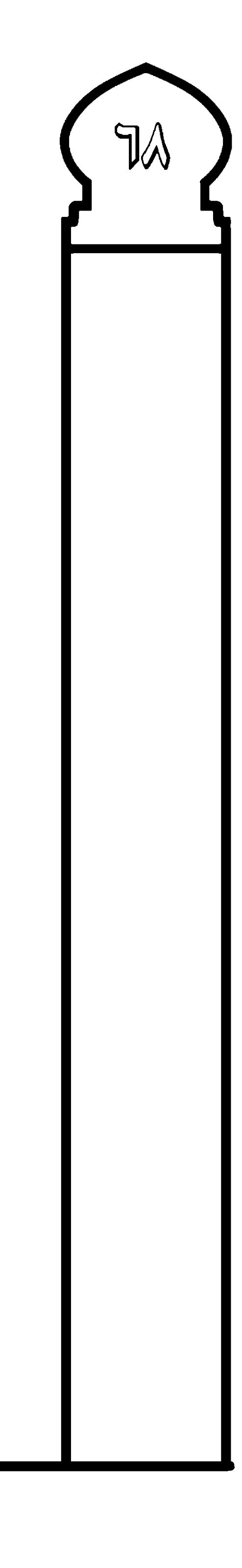


(١) نور الثقلين ٥: ٣٨٧ في كتاب إكمال الدين وتمام النعمة عن الباقر عليه السلام في الآية: هذه نزلت في الإمام القائم - يقول: إن أصبح إمامكم غائباً عنكم لا تدرون أين هو؟ فمن يأتيكم بإمام ظاهر يأتيكم بأخبار السماوات والأرض وحلال الله وحرامه، ثم قال: والله ما جاء تأويل هذه الآية ولا بد أن يجيء تأويلها.

وفيه عن عيون الأخبار عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: لا بد من فتنة صماء صيلم: (الداهية الشديدة) تسقط فيها كل بطانة ووليجة، وذلك عند فقدان الشيعة الثالث من ولدي، يبكي عليه أهل السماء وأهل الأرض وكل حرى وحران: (امرأة حزينة ورجل حزين،) وكل حزين لهفان، ثم قال: بأبي وأمي سمي شبيهي وشبيه موسى بن عمران عليه السلام عليه جيوب النور تتوقد بشعاع ضياء القدس، كم من حرى مؤمنة وكم من مؤمن متأسف حيران حزين عند فقدان الماء المعين، كأني بهم آيس ما كانوا قد نودوا نداء يسمع من بعد كما يسمع من قرب، يكون رحمة على المؤمنين وعذاباً على الكافرين.

(٢) المصدر عن الإمام الرضا عليه السلام (سئل عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ . . .﴾ [الملك: ٣٠] فقال عليه السلام: ماؤكم أبوابكم الأئمة والأئمة أبواب الله ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [المُلك: ٣٠] أي: يأتيكم بعلم الإمام).

(٣) المصدر علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام قال: قلت له: ما تأويل قول الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ . . .﴾ [الملك: ٣٠] فقال:



سُورَةُ القَلَمِ



مكية - وآياتها اثنتان وخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ (١٦)﴾

.. تسليات لخاطر النبي الأقدس محمد ﷺ أن هتكوه وبهتوه وكل شيء فعلوه مسًّا بكرامته، وإنها تحمل التصريح بأعظم المقامات الرسالية والولايات الإلهية، تختصها به ﷺ: أن جاء بما جاء به النبيون وزيادة، كأنه النبيون أجمع، وكتابه الكتب وزيادة..

تبتدئ السورة بنداء الرسول رمزيًّا بـ(ن) علها تعني (النبي) كأن النبوة تختصه وهو مختص بها! وشاهداً عليه هنا الخطاب اللاحق: ما أَنْتَ.. ومن تفسير أهل البيت قول باقر العلوم عليه السلام: إن (ن) من أسمائه المذكورة

في القرآن[1] ويا له من إيحاء لطيف: أن النبوة تختصه لحدّ أصبحت من أسمائه، فهو كيانه النبوة، وكله نبأ الغيب، لا يحمل من الأرض إلا الجسد، وهو أيضاً تبدَّل نوراً لحدّ أصبح ألطف من أرواحنا وعقولنا، ومن أرواح الملائكة! وكما يروى أنه ﷺ لم يكن له ظلٌّ.

نراه يخاطَب في القرآن - أكثر ما يخاطب - بـ: النبي، الرسول، فهما (ن) لأن النبوة وهي الرفعة، إنها مرتبة شامخة من الرسالة، فليس كل رسول نبياً مهما كان نبيئاً.

وإذ قد نرى أحاديث عدة أن (ن) نهر في الجنة جعله الله مداداً يكتب به ما هو كائن إلى يوم القيامة وهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها[2] فهي ترمز إلى موقف النبي ﷺ في علمه المكنون، كأنه النهر المداد الذي نسخت عنه كتابات الوحي كلها، وهي النعمة الوحيدة، والكرامة الفريدة التي اختص بها بين العالمين من النبيين والملائكة وكافة الروحانيين!

فـ (ن) هو النبي، وهو النهر المداد، فهو النبيون أجمع، وقرآنه هو الكتب أجمع.

﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾:

قسماً بالقلم: آلة الكتابة أياً كانت، وبما سطر به من وحي على لوح قلبك المنير، وعلى حد تعبير الرسول ﷺ نفسه في الآية: «لوح من نور وقلم من نور يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة»[3]، وقسماً بأقلام أنوار الوحي كلها، وأقلام الإلهام التي تكتب الإيمان والتأييد في قلوب المؤمنين:

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٨٧ في الخصال عن الباقر عليه السلام قال: إن لرسول الله ﷺ عشرة أسماء، خمسة في القرآن وخمسة ليست في القرآن، فأما التي في القرآن: محمد وأحمد وعبد الله ويس ون).

(٢) نور الثقلين ٥ : ٣٨٧ عن تفسير القمي عن الصادق عليه السلام.

(٣) الدر المنثور ٦ : ٢٥٠ عنه ﷺ في قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القَلَم: ١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾[1]: وأقلام الرحمة الرحمانية العامة للعالمين، وكالأقلام الضوئية والصوتية، وأقلام التصوير في الأرحام، وأقلام القضاء والتقدير، وأمثالها من أقلام تسطر ما يصدر عن مصدر الوحي: تكويناً وتشريعاً، تكليفاً وسواه.

ثم الدرجة النازلة من القلم هي أقلام الكُتّاب منا، وهي من أكبر النعم الإلهية، والكتابة عنصر أساسي في النهوض بمهمة القيادة الصالحة الرشيدة، يقسم الله هنا - ضمن ما يقسم - بقلمها بين الأقلام، فيمن؟ في الأمة التي لم تكن آنذاك تتجه إلى التعلم عن هذا الطريق، وكانت الكتابة فيها متخلفة نادرة! وفي الدور المقدّر فيه للرسالة الإسلامية: نقل هذه الأمانة الكبرى وما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى أرجاء البسيطة!

ففيه تنويه مليح بقيمة الكتابة، وإيحاء بنفي تهمة الكتابة والاكتتاب عن محمد الأمي: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾[2] فدفع تهمة الاستكتاب والاستنساخ واجب مبدئي لهذه الرسالة السامية، فأميته قبلها، هي من فضائله، وإن كان أخذ يكتب ويقرأ منذ الرسالة إلى أن قضى نحبه!

قسماً بهذه العطية الربانية التي ما لها من فواق، وهي تشهد لوفور عقلك ورجاحته على عقول العالمين:

﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾:

إن النبوة المحمدية وهي أعظم النعم الروحانية الإلهية، إنها برهان على أنك العقل كله، فكيف يفترى عليك بالجنون، فمهما كانت النبوة بذاتها خفية، ولكن آثارها المسطورة بأقلام الألسن وسواها، تدل عليها، فهل يا

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

ترى أن عقل الوحي يجنن؟ ومن رشحاته تكمل العقول الناقصة، وتتكامل العقول الراجحة! وعلى أضوائه يعرف الغث من السمين، والخائن من الأمين!.. ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾: بسببها أو مصاحبتها: ﴿بِمَجۡنُونٖ﴾ فنعمة الوحي لا تصاحب الجنون ولا تسببه.

فهل هذا من حكم العقل السليم: أن نعمة النبوة تسبب الجنون أو تصاحبه، فهل يا ترى إن التحلل عن وحي السماء يمنع الجنون ويسبب العقل؟ فما نسبة الجنون إلى صاحب الوحي إلا نسبته إلى الموحي! فهل الله أيضاً مجنون؟. وما هذا الهُراء إلا كالقول: إن صاحب المليار فقير، وحامل العلم جاهل!

عجباً من هؤلاء الذين كانوا يرون محمداً قبل النبوة أعقل العقلاء، فلما اتصل عقله بخالق العقل وحياً قالوا: إنه لمجنون، ولكي ينفِّروا الناس عنه.

إن العجب ليأخذ كلَّ من درس عن سيرة الرسول ﷺ شيئاً، من تقوّلهم هذا عنه: مجنون وهم الذين عرفوه برجاحة العقل بينهم حتى حكموه في رفع الحجر الأسود قبل النبوة بأعوام، ولقّبوه بالأمين، ولكنما الحقد يعمي ويصم ويقذف بالفرية دون حساب.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣﴾:

غير مقطوع عنك ولا ممنون عليك، رغم المنة الإلهية في نعمة النبوة على النبيين وعلى الخلق أجمعين، ولكن أجرك - وهو فوق أجور الخلائق - لا يمن به عليك، ولأنك صبرت على الأذى، واستقبلت كل لظى في سبيل الدعوة، بخلق عظيم، وليس عدم المنة عليه لأنه يستحق أجر الرسالة ذاتياً، وإنما هو إكرام له ثان بعد الأجر الأبد، فانقطاع الأجر ينقصه، والمنة عليه ينغِّصه، وأجر الرسول غير الممنون من الجهتين، كرامة تختصه دون سواه من حملة الرسالات الإلهية، وإنه إيناس خاص كتعويض فائض غامر،

عن كل حرمان وجفوة وبهتان يرميه بها المشركون، فلو حرم عطف المشركين، فقد زوّد بعطف رب العالمين بما لا مثيل له في ملأ العالمين، فالله تعالى هو أجره، ورحماته غير المحدودة هي أجره وهما غير مقطوعين عنه في في كافة مراحل حياته.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾:

لأنك تخلقت بأخلاق الله العظيم وتأدبت بآدابه: فما أحسنه وأحلاه أن تكون خلق الرسول محمد عظيماً عند الله، ولا عظيم فيمن سواه تعالى إلا وهو صغير بجنبه! وما أحراه ﷺ أن يستعظمه ربه في خلقه، ولأنه رباه: «أدّبه فأحسن أدبه، فلما أكمل له الأدب وانتهى به إلى ما أراد، قال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[(١)] إذاً فخلق الرسول هو منتهى ما أراد الله من أول العابدين، ولو كان بالإمكان أن يزيد لزاد.

فالرسول محمد ﷺ بكيانه ككل، هو منتهى الرحمة والنعمة الإلهية، الممكن إيتاؤها لمن سواه، وما أحلى ما وصفه به سليمان عليه السلام: وِكُولُو محمديم: وكله في غاية المحمودية[(٢)]!

ولتمامية خلقه العظيم ولأنه أفضل أو تمام ما أتى به النبيّون، يقول ﷺ: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ﴾: لا يقول إن لك خلقاً عظيماً، فقد يملك الإنسان أمراً ثم يفقده، بل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾: فـ «على» توحي بعلوه على خلقه العظيم، علواً مؤكداً لا يزول، كما توحيه حرفا التأكيد «إن - ل» فقد مزجت الخلق العظيم ذاته لحد لن تنفصل عنها، بعصمة وعناية خاصة ربانية، فلقد

---

(١) نور الثقلين ٥: ٣٨٩ - عن الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: رواه فضيل بن يسار عنه عليه السلام وروى إسحاق بن عمار إضافة (و انتهى به إلى ما أراد).

(٢) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية).

كان خلقه القرآن مزيجاً بقلبه المنير، ظاهراً في أعماله بقلبه وقالبه، فهو هو القرآن الناطق «أنا القرآن والسبع المثاني. وروح الروح لا روح الأواني» فكيف لا تكون خلقه عظيماً وقد تجلى الله لسره بأنوار أخلاقه كما يمكن للمكنات، وقد بعث ليتمم مكارم الأخلاق، فليكن هو على تمامها قبل تتميمها للناس، فلم يبق بعد هذه البعثة الأخلاقية سفساف أخلاق أبداً إذ أبان لنا عن مصارفها كلها.

وبما أن مادة الخُلق من الخَلق، فلتكن كما الخلق، كأنها من كيان الإنسان، مخلوقاً معها، وليست إلا بسعيه الجميل، بين عنايتين إلهيتين، فطرة الحق، وتأييد الله لمن يتبنى الفطرة في استزادة من الخلق الطيبة، ثم علوه ﷺ على هذا الخلق، كأنه يجعله أعمق من ذاته وأبقى، كأنه هو الخلق العظيم لا غيره.

وإن سيرة الرسول الأقدس، المجيدة، تتجاوب تماماً والثناء الفريد، شهادة من الله، في ميزان الله، لعبد الله: أول العابدين ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ تتردد هذه الشهادة الإلهية في الملأ الأعلى بين النبيين والملائكة، في كلمة لا يعرف مداها وصداها إلا قائلها ومن أُلقِيَت عليه!

وهل يا ترى إن محمداً يفقد توازنه في هذا الثناء المجيد؟ كلا! ولأنه على خلق عظيم، أو ترى إنه تتأرجح شخصيته وتضطرب تحت وقعه، ويتبهَّج به، وينسحق تحت ضغطه الهائل فيرضى عن نفسه ويطمئن لها وإليها فيلهو؟ كلا! ولأنه على خلق عظيم، فمن هذا الإنسان الذي يستطيع حمل هذه الرسالة الصعبة ويتحمل أعباءها ووزرها، إلا محمداً العظيم، الذي هو على خلق عظيم؟ أجل: إنه محمد وحده الذي يرقى إلى هذا الأفق المبين.

ثم نجد لهذه الكلمة اللفتة دلالة باهرة على تمجيد عنصر الأخلاق في ميزان الله، وأصالته، كأنه الكل من الحقيقة الإسلامية، ولذلك يعلن: بعثت

لأتمم مكارم الأخلاق، كأنما الرسالة المحمدية لا تعني إلا تتميم مكارم الأخلاق.

ليست هذه مبالغة، طالما الأخلاق تشمل الفضائل العقائدية والأعمالية والأقوالية، ومن ثم: فردية وجماعية، ثم بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين ربه، وبينه وبين مجتمعه، فهل بعث النبيون إلا لهذه، طالما اختصت لغة الأخلاق الحسنة بزاوية خاصة منها هي تحسين العشرة؟ وهي السجايا الفاضلة: المدركة بالبصيرة، ومن ثم: الظاهرة بالبصر.

فللأخلاق معنى عام، وآخر خاص، والأول هو المعني من غاية البعثة المحمدية تكميلاً.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾:

مهما كنت بصيراً بحالك القدسية، وإنك كل العقل وكلك عقل، وإن مناوئيك كل الجنون وكلهم مجانين، فأنت أنت تبصر دونهم ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾: في المستقبل مع بعض، يبصرون كما تبصر ﴿بِأَيِّكُمُ﴾ العقل ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾: المبتلى بالجنة، وبأيكم العقل المتحلل عما يحجبه، المتفتح بما يشرحه ويكشفه، فسوف يكون الإبصار ملياً يوم الدنيا لمن يبصر، وعالياً يوم البرزخ إذ يكشف الغطاء، وأعلى يوم الحشر إذ لا يبقى خفاء، ولات حين مناص.

إن تقولاتهم المجنونة ليست عن جنون خلقي يرفع التكليف، إنما بما جننوا أنفسهم وختم الله على قلوبهم: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[1].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾:

فما أجهل من يحسب المهتدي الهادي ضالاً، ويحسب نفسه الضالة

---

(١) سورة الصف، الآية: ٥.

مهتدياً، وما أحلى من يعلم الضال عن المهتدي، مهما أخطأ أحياناً في قدرهما أو مواضعهما، وما أعظم علم الله بهما وبكل شيء، إذ لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء! فالضال عن سبيل الله هو المجنون إذ يتجاهل أو يجهل خيره عن شره، والمهتدي هو العاقل.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾:

الطاعة المنهي عنها هنا هي مداهنتهم في الدين كما ودوها: ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾: تداريهم وتماريهم تاركاً جدّ الدعوة إلى الملاينة والمصانعة ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾: يمارونك ويدارونك، بقسمة البلد بلدين، بمحاولة أنصاف حلول، وإن هذا إلا مكر يمكرونه دون أن يرجع بالضرر إلا إليك، لو أنهم أنصفوا كما يعدون، ولكنهم كاذبون، فلا تصلح لهم إلا القول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾[1] فليست الديانة تجارة تقبل الالتقاء في منتصف الطريق، إنها عقيدة تمازج لب الإنسان وعمقه، والتنازل عنها تنازل عن لب الإنسان، والهوة بينها وبين الجاهليات ليست بالتي تعبر، أو تقام عليها قنطرة.

إن الرسول ﷺ كان - وكان عليه أن يكون - ألين الناس وأدهنهم فيما لا يمس من كرامة العقيدة والدعوة، وهو أصعبهم تصلباً في الدين، لا يداري ولا يماري أحداً، وهكذا يجب أن تجابَه الجاهليات أبداً، بالنضال الفصال الذي لا مداهنة فيه ولا دلال، صموداً صارماً واصباً في دين الله، دون تمحُّل فيه ولا تمهُّل، وإنما تُنُكِّل بالأعداء المحاربين، السافرين في عدائهم والمنافقين، ولم يكن الرسول يدهن، وكما توحيه حرف الامتناع «لو».

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ﴾: تبدأ أنت بالمداهنة والتنازل عن بعض الشيء من شريعة

---

(١) سورة الكافرون، الآية: ٦.

الله: ﴿فَيُدۡهِنُونَ﴾ كما يزعمون ويدعون، وأن رزقهم من شريعة الحق هو التكذيب به: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾[1].

﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾:

نهيٌ ثانٍ يعم كل من فيه هذه الصفات التسع، وهي رؤوس رذائل الأخلاق، وقد نزلت بشأن ألعن الشانئين برسول الله: الوليد بن المغيرة، إذ وقف وقفته العنيدة ضد الدعوة الإسلامية، وكما نزلت في الآيات في «المدثر»: ذرني ومن خلقت وحيداً.. إنه كان لآياتنا عنيداً. سأرهقه صعوداً.. سأصليه سقر.. حملات منقطعة النظير ضد هذا الوحيد في كفره وفسقه.. ثم وتشمل الآيات كل من حذا حذوه في هذه الملعنات، الصفات التسع الموبقات:

فهو «حلاف»: يحلف كثيراً، ودون ضرورة ومواربة، مما يكشف عن كثرة كذبه، وعدم اكتراسه واحتراسه بساحة الربوبية.

و«مهين»: حقير الرأي والتدبير لا يثق بنفسه ولا يثقون به، ولذلك يحتاج إلى الحلف الكثير في كل جليل وحقير.

و«هماز»: عياب طعّان يلوي شدقيه في أقفية الناس، يعيش همز الناس وكأنه هو وحده بريء.

وفي الحديث: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»: شغلاً عن همزهم وتعييبهم، لا عن نهيهم، بالحكمة والموعظة الحسنة فإنه فرض.

«مشاء بنميم»: يمشي بين المتحابين بعدائهم لبعض، وبين المتعاندين، ليزدادوا عداء.

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٨١، ٨٢.

«مناع للخير»: يحاول دائباً لصد سبل الخير على الناس، وكان للوليد عشرة من البنين وأموال غزيرة، يهددهم وسائر أقاربه، من تبع منكم دين محمد لا أنفعه شيئاً أبداً.

«معتد»: يجاوز الحق، ويتجاوز على أهل الحق.

«أثيم»: كثير الإثم: وهو كل مبطئ عن الخير والثواب، وكأن الإثم أصبح لذاته لزاماً لا يستطيع تركه!

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾: والعَتْل هو الأخذ بمجامع الشيء وجره بقهر، والعَتْل هو كثير الأخذ هكذا، فهو الآخذ بمجامع الرذائل، يجرها إلى نفسه وإلى مجتمعه بعنف، لفظة تخبر بجرسها عن مدى معناها في العتل السوء، وجره وجمعه: فهو الغليظ الجافي المريد، الشره المنوع العتيد، الأكول الشروب الحريص العنيد، اللئيم «الزنيم»: الذي لا أصل له وهو زائد في قومه، الدعي الملحق بمن ليس هو منه «زنيم ليس يعرف من أبوه - بغيّ الأم ذو حسب لئيم» ويا لها من رذائل قلَّما تجتمع في شخص واحد، اللهم إلا وحيداً: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾[1]! وكل هذه الميوعة والرعونة:

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾:

أساطيرهم وخرافاتهم، رغم أنها آيات الله، تدل بنفسها أنها إلهية وليست بشرية، ولو من أعقل العقلاء، فضلاً عن الرجعيين الخرافيين!

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾:

سنعلمه بعلامة يعرف بها على خرطومه: أنفه، إذ بلغ في استكباره لحد كأن له الخرطوم، والفيل يبالي بخرطومه ويفتخر، وكذلك هذا الزنيم يشمخ بأنفه: إن كان ذا مال وبنين؟

(١) سورة المدثر، الآية: ١١.

إن خراطيم المستكبرين موسومة بالحق يوم الدنيا، يعرف وسمتها وصمتها العارفون ثم يوم البرزخ والرجعة[١] والقيامة. تبرز الوصمة وتعلم، ولكي يعرفهم المحشورون معهم أجمع: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾[٢].

ولقد وسم الله وحيداً على خرطومه «أنفه» يوم بدر إذا صاب أنفه جراحة فادحة بقيت علامتها كما قيل، ووسمه الله يوم البرزخ، وسوف يسمه يوم القيامة شر وسمة ووصمة يعرف بها بين أهل الجمع أنه الوحيد الشرير الأثيم الزنيم.



(١) القمي في آية الوسم: قال: قال عليه السلام في الرجعة إذا رجع أمير المؤمنين عليه السلام ورجع أعداؤه فيسمهم بميسم معه كما توسم البهائم على الخراطيم: الأنف والشفتان.
أقول: وهذا من باب الجري على بعض المصاديق المختلف فيها. (تفسير الفرقان - ج ٢٩ - م ٥).

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤١.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

مشهد من مشاهد التخلف والتمرد يحمل طرفاً من بلوى الدنيا لمن أجمل عن ذكرهم بـ ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾: بستان ملتف الأشجار، يجن بعضها بعضاً، لحدّ استحق اسم الجنة التي قلَّما تعني الدنيوية.

هذا المشهد يصور جانباً من اللؤم البشري: «اللااستثناء» فيما رزقهم الله من نعمته، تعامياً عن حقوق الفقراء، تفانياً في جمع المال لمَّا.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾: هؤلاء الكفار المتهمين لك بالجنون، فابتلوا بعذاب الدنيا وبلائها قبل الآخرة[1] ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾: البستان الملتف

---

(١) القمي عن الباقر عليه السلام في الآية: إن أهل مكة ابتلوا بالجوع كما ابتلي أصحاب الجنة وهي كانت في الدنيا وكانت باليمن يقال له: الرضوان على تسعة أميال من صنعاء.

الأشجار ذات الثمار ﴿إِذۡ أَقۡسَمُواْ﴾: بالله تعالى حلفاً به سبحانه ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ۝١٨﴾: لا استثناء بمشيئة الله في صرمهم ثمارهم مصبحين، ولا استثناء لحقوق الفقراء بعد صرمهم، ويا له من حلف خاطئ لا يلزم عليهم شيئاً إلا ازدواجية الإثم: بحق الخالق والمخلوق، فقد قرّ رأيهم هكذا على أن يصرموا: يقطعوا - ثمارها عند الصباح الباكر، مُبيِّتين هذا الكيد اللئيم إذا ناموا، ولكي يفاجئوا الفقراء بصرمهم ولا يستثنون لهم شيئاً، فقوبلوا بمفاجأة العذاب الصارم قبل صرمهم، فصرم الله ثمارهم قبل صرمهم،

﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا﴾:

الجنة.

﴿طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ﴾:

طائف رباني يذكر الغافلين التائهين: أن الصرم بالصرم، والجَرم بالجَرم، جزاءً وفاقاً!

﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾:

كما احتالوا في حرمان الفقراء النائمين.

﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠﴾:

كالمقطوعة ثمارها، المقطوع عنها كل خير، كالرملة المنقطعة عن الرمال ليس فيها نبات، أصبحت كالليل المظلم في سوادها بصرمها، فقد صرم الطائف الرباني كل خيراتها فأصبحت قفراً لا ماء فيها ولا كلاء، وكل هذه يشملها الصريم.

﴿فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ۝٢٢﴾:

تواصياً في حماس وحرص وحراس.

﴿فَانطَلَقُوا﴾:

مروا متخلفين كأنهم يفرون من أسد.

﴿وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾:

تخافتا في الإقدام وفي الكلام، وتخافتا في وطء الأقدام، سداً لباب الاطلاع، وصداً عن دخول المساكين:

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾:

الذي أسكنه العدم عن حركات الحياة، فلا يتحرك إلا بغية تحصيل بلغة العيش ولقمته، فهؤلاء اللئام يحتالون هذه الحيل، كي لا يفاجئهم مسكين، ففاجأهم قبل صرمهم صرم من رب العالمين، فأصبحت كالصريم!

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

غدوا أمام أملهم الوحيد ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾: منع عن حدة وغضب، ممتنعين من تناول الثمر وصرمه إذ وجدوه صريماً، ﴿قَادِرِينَ﴾: لم يمكنهم صرمه وهم قادرون عليه لو كان، فلم يمنعهم عجزهم عن صرمه إلا انصرامه قبلهم فماذا يصرمون؟، وقادرين على منع الفقراء بهذه الحيلة لولا الصرم الإلهي، فهم على قدرتهم في الصرم وفي منع الفقراء، امتنع لهم صرم الثمرة بانتفاء الموضوع! ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ منع للمساكين - ﴿قَادِرِينَ﴾: مقدرين أنهم سيصرمونها ويمنعونها المساكين،

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾:

الجنة.

﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾:

عن الصواب في غدوِّنا هكذا، أو ضللنا عن طريق جنتنا! إذ لم تكن تشبه جنتهم ولا أية جنة! ثم نظروا إليها ثانية فتأكدوا أنها هي، ولكنها - ويا

للعجب - صريمة خاوية على عروشها، فعدلوا عما احتملوا من ضلال الطريق، إلى ضلال الصراط، وهو الحرمان الإلهي عما أملوا:

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

هذا هو الخبر اليقين، وقد حاقت بهم عاقبة البطر والمكر، ثم حاق بهم التنديد الشديد من أوسطهم: أعدلهم وأعلمهم في الرأي، بين مفرطهم ومفرطهم:

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

وهنا يفتحون الآذان للناصح وقد فات الأوان، ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾: ولم يكن منهم من عدم التسبيح إلا ترك الاستثناء في حيلة ومحاولة حمقاء، فتنزيه الرب تعالى في صفاته، من لزامه الاتكال عليه، والاستثناء بمشيئته: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فعدم الاستثناء بالمشيئة استقلال لمشيئة العبد، وشركة مع الله في المشيئة المستقلة، وتنزيهه تعالى فيما سن من أحكام العدل، وتطبيقه، ومنه الاستثناء للفقراء، فعدمه شركة معه في التشريع، ومحاولة لعدم تطبيقه، صداً عن نفاذ حكمه من ناحيتين: عدم استثناء لهم، وعدم فسح المجال لهذا الاستثناء على أية حال! إذ انطلقوا مصبحين إلى حرثهم غادرين، فراراً عن تحقق حكم الله!

وهنا لم يكن إلا الاعتراف بنزاهة الرب وظلمهم أنفسهم:

﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾:

منتقصين حق الفقراء، وبحق الرب تعالى إذ حاولنا الفرار عن حكمه، فباغتنا بطائف منه فأصبحت كالصريم.

وإنهم على حد تعبير الرسول الأقدس ﷺ: «قد حرموا خير جنتهم بذنبهم»[١].

(١) الدر المنثور ٦: ٢٥٣ عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: إياكم والمعاصي، إن =

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

كلّ يوجه اللوم إلى الآخر، قبل أن يوجهه إلى نفسه، ولكنهم تنبهوا أخيراً أنهم ملومون أجمع، مهما كان اللوم مزدوجاً على من ضل وأضل، وفرداً على من ضل، أو تماشى مع الضالين كأوسطهم، فاعترفوا جميعاً بطغيانهم:

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾﴾:

طاغين على ربنا في هذا التدبير الماكر فراراً عن حكمه، وعلى المساكين فراراً عن دخولهم جنتنا، وأخيراً طاغين على أنفسنا أن خسرنا الجنة بأسرها: في ظلمات ثلاث! فهل من مجير؟ أجل - وما دامت المهلة باقية ولما يأت الأجل، ومن أوليات الواجبات على التائبين الاعتراف بالذنب، راجين رحمة رب العالمين، وقد فعلوا:

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

فالرغبة إلى الرب - وفي توبة نصوح - هي التي تستجلب توبة الرب على العبد، ما لم تكن خوفَ العذاب، وإنما رغبة الرضوان والثواب، فالإيمان عند رؤية البأس لا يفيد: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ...﴾[1] هذا! اللهم إلا إذا كان إيماناً صادقاً وإن كان عند رؤية البأس كما في قوم يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[2].

= العبد ليذنب الذنب فينسى به الباب من العلم، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيئ له، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: ١٩-٢٠] قد حرموا خير جنتهم بذنبهم.

(١) سورة غافر، الآية: ٨٥.

(٢) سورة يونس، الآية: ٩٨.

هذا - ولكنما العذاب في أصحاب الجنة كان عليها لا عليهم إلا في جنتهم، ولكي ينتبهوا، وقد فعلوا قبل حلول الأجل، فعلّهم مغفور لهم.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾:

عذاب التدمير والتذكير في الدنيا،

﴿ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٣٣﴾:

وإنما عذاب الدنيا مهما تفاقم، نموذج ضئيل عن عذاب الآخرة.



﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾:

إنها ليست عندية مكانية إذ ليس له مكان، وإنما عندية من حيث القرب المعرفي، والثواب، وكما يوحيها ﴿رَبِّهِمْ﴾: ربوبية الثواب والمعرفة جزاءً وفاقاً، بما اتقوا، كما المجرمون لهم النار بما طغوا، وهذا هو الحكم العدل، وسواه عادل عن الصراط.

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾:

برهان عقلي لضرورة المعاد الحساب بصيغة السؤال: أتسوية بين المسلمين لله والمجرمين؟ فنعذب المسلمين كالمجرمين! أو نعفو عن المجرمين كما عن المسلمين، أو نثيب المجرمين كما نثيب المسلمين، أو لا نحيي المسلمين كما المجرمون على حدّ زعمهم!.

نستوحي من الآية وأشباهها أن هناك زعماً خاطئاً من المجرمين. يزعمونهم كأنهم الأصل في المعاد الحساب واللامعاد: إن الله يعامل المسلمين كما يعامل المجرمين سواء: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾[1] ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[2] كأن صناديد يرون وفور حظهم في الدنيا وقلة حظوظ المسلمين فيها، فقاسوا بها الآخرة قائلين: إن صح أنا نبعث كما محمد يزعم، لم تكن حالنا إلا كحالهم سواء، أو أحسن، فخطّأهم الله فيه.

ففي قصة الجزاء ضروب شتى من أفكار خاطئة:

١ - إن الله سوف يجعل المسلمين كالمجرمين سواء، فالإسلام هو اللاشيء في حساب الحق! فما يستحقه المجرم فالمؤمن يستحقه سواء أكان اللاحساب، أم الحساب السوء، أم العفو، أم الإثابة، والمجرمون هم الأصول على أية حال، وهذا من أضل ما يتقول حول الحساب!

٢ - إن الله سوف يعفو عن المجرمين كما عن المسلمين، بما اختلقوا من فلسفات توحي كأن العذاب لا دافع له إلا الوعد الإنذار!

٣ - أو يجعلهم كالمؤمنين في الثواب أيضاً: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا

(١) سورة السجدة، الآية: ١٨.
(٢) سورة صَ، الآية: ٢٨.

يَحْكُمُونَ. . .﴾[1] وما إلى ذلك من تقولات نبحث عنها في طيات الآيات التي تحملها.

فهنا وهناك تأتي الأسئلة الاستنكارية تلو بعض دون جواب، ولأنه واضح يعرفه كل من له أدنى مسكة:

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾؟

أبحكم العقل أو العدل يسوى بين الفريقين؟ كلا!

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾؟:

هكذا حكم خاطئ، لا يقبله عدل ولا عقل، ولو كان فهو كتاب مجنون ظلوم يحكم:

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

كما تهوون،

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

أن الله حلف لكم بحريتكم في هكذا حكم لا يمضيه عقل ولا عدل؟

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾:

يزعمه عن الله لنفسه. أو عن العقل أو كتاب من الله، وهو تهكم ساخر عميق، أنيق بليغ يذيب القلوب حرجاً.. وإذ ليس هذا الحكم لا إلهياً ولا بشرياً، فهل هو من شركاء لهم:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾:

شركاء لهم عندهم براهين أخرى على هذه الدعوى الزور الغرور؟ أم

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢١.

شركاء يزعمونهم أنهم آلهة من دون الله يسوون بينهم وبين المسلمين؟ أم شركاء يزعمونهم شفعاء عند الله يشفعون لهم في هذه التسوية الظالمة غير العادلة، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم، صادقين في كيان الشركاء وصدقهم، وأنَّى لهم ذلك!

فهكذا حكم لا يملك من صنوف البراهين أياً كان، وإذ لا ينتبهون هنا فسوف يعلمون:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

من عادة الناس أن يشمروا عن سوقهم عند الأمور الصعبة، التي تتطلب المعاركة، ويفزع عندها إلى الممانعة، فتشمير الذيول حينذاك أمكن للقراع، وأصدق للمِصاع، كذلك وأحرى عند هول الأمر وشدته، وعظم الخطب وفظاعته، وعلى حد تفسير الإمام الصادق عليه السلام في الآية: أفحم القوم ودخلتهم الهيبة وشخصت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر شاخصة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم ظالمون[1].

ففي هذا اليوم العصيب هؤلاء الأوغاد يدعون إلى السجود، استمرارية التكليف ليوم ليس فيه تكليف، فرعاً طبق الأصل وعنه، فلا يستطيعون السجود، إذ تركوه يوم الدنيا، فلا يستطيعونه يوم الدين، فمستطاع الطاعة وواقعها يوم الدنيا، مستطاع يوم الدين، وتركها رغم الاستطاعة هنا، ترك لها هناك: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ ففقدوا سلامتهم هناك لتركهم الاستسلام لله هنا، ومرض اللااستطاعة للطاعة لزمهم ليوم الدين، ولكي تكون لهم عذاباً فوق العذاب: عدم استطاعة الطاعة إذ ظهرت لهم الحقائق كلها! وكما عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: يؤذن للمؤمنين يوم القيامة في السجود

(١) نور الثقلين ٥: ٣٩٦ في كتاب التوحيد للصدوق عنه عليه السلام.

فيسجد المؤمنون، وبين كل مؤمنين منافق فيتعسر ظهر المنافق عن السجود ويجعل الله سجود المؤمنين عليهم توبيخاً وصغاراً وذلاً وندامة وحسرة[١].

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۖ ...﴾: تغشاهم ذلة بقهر، ولأنهم لم يذلوا أنفسهم يوم الدنيا طوعاً، فليذلوها قهراً يوم الدين: ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾ فالآن وهم مرضى بما افتعلوا، لا يستطيعون السجود.

وقد يعني الكشف عن الساق كشف الحجاب فظهور الحقائق، وعلى حد تفسير الرسول الأقدس ﷺ: «يكشف عن نور عظيم فيخرون له سجداً»[٢] وعن حفيده الرضا عليه السلام «حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجداً وتدمج أصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود»[٣].

فساق المحشر يكشف، وساق المحشورين يكشف، وليس لله ساق يكشف، رغم المختلقات الزور، الوثنية والإسرائيلية: إن ربنا يكشف عن ساقه[٤] اللهم إلا أن يعني بها ساق الآخرة وحجابها وعذابها.

﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

وعذاب الاستدراج يعم المكذبين بـآيات الله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[٥].

---

(١) الدر المنثور ٦: ٢٥٥ عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله قال:

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٥٤ عن أبي موسى عن النبي ﷺ.

(٣) نور الثقلين ٥: ٣٩٥ عيون أخبار الرضا عليه السلام.

(٤) الدر المنثور ٦: ٢٥٤ عن النبي ﷺ (يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً).
أقول: وقد خيل إلى من لا يعقل أنه ساق ربنا سبحانه وكما في الدر المنثور ٦: ٢٥٥ عن سعيد ابن جبير أنه أجاب عن سؤال الآية بعدما غضب غضباً شديداً: إن أقواماً يزعمون أن الله يكشف عن ساقه! وإنما يكشف عن الأمر الشديد.
وفي نهج البلاغة: أنه من وسع عليه في ذات يده فلم ير ذلك استدراجاً فقد من مخوفاً.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٨٢.

هل يكذب هذا الحديث، الذي تصدقه كافة براهين الصدق، حديث الله وطاعته ومحشره وحسابه؟!

ثم ما لك وهذا الكذاب الأشر؟ ذرني وإياه: أنا الخالق الجبار الكبير الكبير، وهذا المخلوق المستكبر الهزيل الصغير المسكين الفقير، هذه الهباءة المنثورة! هذا العدم! فما حاله إذاً أمام جبروت القهار العظيم.

أنا أنا استدرجه نحو العذاب بتواتر النقمة، التي يحسبها له كرامة، وأمهله على نعمته ولا أهمله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾[1] ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[2].

إنه الأمان في ظل النعم المتواترة تلو بعض، ولكنه الفخ الذي يقعون فيه مغرورين، استدراجاً لهم إلى أسوأ مصير، واستنزالاً لهم إلى أسفل سافلين شيئاً فشيئاً بما ينعم عليهم مرة بعد أخرى وهم يزدادون عتواً ونفوراً، يحسبونهم على حق وإنهم يحسنون صنعاً، وإلا فلماذا تواتر النعم عليهم وتوتُّرها على المسلمين، وهذا هو عذاب الاستدراج.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾:

والإملاء والكيد المتين من رب العالمين هو من أسباب الاستدراج، أن يتدرج إلى الأسوأ فالأسوأ نتيجة الإملاء والإمهال وهذا هو كيد الله المتين، ليس لأنه ضعيف، وإنما جزاءً كيده بكيد متين لا هوان له ولا علاج، خلاف سائر الكيد من غيره تعالى، وعلى حد تفسير الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أراد الله بعبد شراً فأذنب ذنباً تبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى به، وهو قول

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

الله عز وجل : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(١)] بالنعم عند المعاصي[(٢)].

ويا لها من وخزة بعد أخرى، إلى أن يأخذه الله نكال الآخرة بعد الأولى! وأن ذلك بما كسبت يداه وأن الله ليس بظلام للعبيد، فقد كذبوا من حيث يعلمون، فالله يستدرجهم من حيث لا يعلمون، جزاءً وفاقاً!

وإنه لشر العذاب يوم الدنيا، الاستدراج بالإملاء والإمهال، بكيد متين لا مفر عنه ولا منجى، وكما نرى المكذبين هكذا يستدرجون، تدرجاً إلى العتو والضلال، على تدرُّج النعمة والدلال، أعاذنا الله منه بحق محمد والآل.

﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

تتمة أسئلة الاستنكار على المجرمين المسوين أنفسهم بالمسلمين: هل تسألهم أجراً على الرسالة وهم مثقلون متثاقلون من مغرمها، فهم لا يقبلونها أو يُقبلون إليها فضلاً عن أن يفكروا في أجرها، وليس أجر الرسالة في حساب الرسول إلا المزيد من تحقيقها وتطبيقها، دون الأجور المادية وحاشا الرسول عنها!: ﴿قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[(٣)] فليُتخذ الرسول ﷺ سبيلاً إلى ربه، ثم أبواب الرسول: ﴿قُل لَّآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[(٤)] وليس هذا أجراً، فإن المودة في قربى الرسول تقربهم إلى الرسول فإلى الله زلفى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٢.
(٢) نور الثقلين ٥ : ٣٩٧ في كتاب علل الشرايع عنه عليه السلام :
وفي روح البيان ج ١٠ ص ١٢٤ عن أمير المؤمنين علي عليه السلام (من وسع عليه دنياه فلم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع عن عقله) وروي أن رجلاً من بني إسرائيل قال: يا رب كم أعصيك ولم أنت لم تعاقبني؟ فأوحى الله إلى نبي زمانه أن قل له: كم من عقوبة لي عليك وأنت لا تشعر كونها عقوبة: جمود عينك وقساوة قلبك استدراج مني وعقوبة لو عقلت.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٥٧.
(٤) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

لَكُمْ﴾[1] إذاً فلا أجر يسأل: لا مادياً ولا معنوياً، إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً، أجر يرجع لصالح المعطي دون المستعطي، إلا صالح نشر الدعوة وتطبيقها، المشترك بين أصحابها.

﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا﴾: فإذ لا مانع من الإيمان عقلياً وواقعياً، ولا دافع إلى الكفر والتكذيب من هنا وهناك، فلا يبقى من الموانع إلا ثقل الأجر، وأنت لست بسائله: ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾: ولكي يثقلهم عن الإيمان ثقل المغرم الأجر، وبدلاً من سؤال الأجر، أنت تعدهم أجر الدنيا والآخرة، فليس هناك من مغرم يثقلهم عن الإيمان، ويدفعهم إلى الكفر، لا مادياً ولا معنوياً، وإنما شهواتهم وحرياتهم في حيوناتهم هي التي تردهم إلى أسفل سافلين وبئس للظالمين بدلاً!

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

فتلك شهودهم الخاطئة المارقة الماردة، فهل عندهم الغيب غير الخاطئ فهم يكتبون منه هذه التقولات الزور؟ فما لهذا الغيب - إذن - يغيب عن العدل المعقول، وواجبه الحفاظ على العقول وتوجيهها إلى المعقول؟.. كلا فلا شهود يفيدونهم ولا غيب يشهد لهم، وهم على حالهم المزرية صامدون في التكذيب، ثابتون على التأنيب، فلا سلاح يكافحون به إلا الصبر لحكم الله أن يكفيك بأسهم وتعسهم:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾:

يا حامل الرسالة الخالدة، عليك أن تصبر في بلاغها، صبراً صامداً، دون فشل ولا فرار عمن أرسلت إليهم مهما كلف الأمر، فاثبت حتى يأتيك

(١) سورة سبأ، الآية: ٤٧.

أمر الله وأنت صامد وهم فاشلون ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾: ولا كأي من حملة الرسالات الذين غلبوا على أمرهم وقل صبرهم، فهذه وأمثالها من تجارب مضت في الأدوار الرسالية وحقولها، إنها لك زاد ورصيد، لتكون أنت صاحب الحصاد الأخير، والزاد والرصيد الأخير، فتعينك على العبء الثقيل الكبير في هداية البشرية جمعاء، في كافة القرون والأجيال، نبراساً تنير به الدرب على المستنيرين، ومتراساً تكافح به المتخلفين.

فلقد حمل صاحب الحوت - يونس بن متى - رسالة جزئية مؤقتة إلى قوم خصوص، فلم يتحمل أذاهم، وانكفأ إناء صبره فدعى عليهم وخرج من بينهم فحبسه الله في بطن الحوت، لماذا هذه العجلة في ترك الرسالة، والمرسل إليهم؟ وكما يروى عن الرسول الأقدس ﷺ قوله:

«كان رجلاً تعتريه الحدة، وكان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم، عاجزاً عما حمل من ثقل أوتار النبوة وأعلامها، وإنه يتفسخ تحتها كما يتفسخ البعير تحت حمله..»[1].

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٩٧ في تفسير العياشي عن أبي عبيدة الحذاء عن أبي جعفر عليه السلام كتب أمير المؤمنين عليه السلام قال: حدثني رسول الله ﷺ أن جبرائيل حدثه أن يونس بن متى بعثه الله إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة، وكان رجلاً تعتريه الحدة وكان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم، عاجزاً عما حمل من ثقل حمل أوتار النبوة وأعلامها، وإنه يتفسخ تحتها كما يتفسخ البعير تحت حمله، وإنه أقام فيهم يدعوهم إلى الإيمان بالله والتصديق به واتباعه ثلاثاً وثلاثين سنة، فلم يؤمن به ولم يتبعه من قومه إلا رجلان، اسم أحدهما روبيل والآخر تنوخا، وكان روبيل من أهل بيت العلم والنبوة والحكمة، وكان قديم الصحبة ليونس بن متى من قبل أن يبعثه الله بالنبوة، وكان تنوخا رجلاً مستضعفا عابداً زاهداً منهمكاً في العبادة، وليس له علم ولا حكم، وكان روبيل صاحب غنم يرعاها ويتقوت منها، وكان تنوخاً رجلاً حطاباً يحتطب على رأسه ويأكل من كسبه، وكان لروبيل منزلة من يونس غير منزلة تنوخا لعلم روبيل وحكمته وقديم صحبته. فلما رأى أن قومه لا يجيبونه ولا يؤمنون ضجر وعرف من نفسه قلة الصبر، فشكا ذلك إلى ربه، وكان فيما شكا أن قال: يا رب إنك بعثتني إلى قومي ولي ثلاثون سنة فلبثت فيهم أدعوهم إلى الإيمان بك والتصديق برسالتي وأخوفهم عذابك ونقمتك ثلاثاً وثلاثين سنة فكذبوني ولم يؤمنوا بي وجحدوا نبوتي واستخفوا برسالتي وقد توعدوني =

وإلى تفصيل حاله في بعثته ورسالته: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾[1] ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[2].

= وخفت أن يقتلوني، فأنزل عليهم عذابك فإنهم قوم لا يؤمنون، فأوحى الله إلى يونس: أن فيهم الحمل والجنين والطفل والشيخ الكبير والمرأة الضعيفة والمستضعف المهين وأنا الحكم العدل سبقت رحمتي غضبي لا أعذب الصغار بذنوب الكبار من قومك، وهم يا يونس عبادي وخلقي وبريتي في بلادي وفي عيلتي، أحب أن أتأناهم وأرفق بهم وأنتظر توبتهم، وإنما بعثتك إلى قومك لتكون حيطاً عليهم تعطف عليهم سخاء الرحمة الماسة منهم، وتتأناهم برحمة النبوة، فاصبر معهم بأحلام الرسالة، وتكون لهم كهيئة الطبيب المداوي، العالم بمداواة الدواء، فخرجت بهم ولم تستعمل قلوبهم بالرفق، وتسسهم بسياسة المرسلين، ثم سألتني مع سوء نظرك العذاب لهم عند قلة الصبر منك، وعبدي نوح كان أصبر منك على قومه وأحسن صحبة وأشد تأنياً في الصبر عندي، وأبلغ في العذر، فغضبت له حين غضب لي، وأجبته حين دعاني، فقال يونس: يا رب إنما غضبت عليهم فيك، وإنما دعوت عليهم حين عصوك، فوعزتك لا أنعطف عليهم برأفة أبداً، ولا أنظر إليهم بنصيحة شفيق بعد كفرهم وتكذيبهم إياي، وجحدهم نبوتي، فأنزل عليهم عذابك فإنهم لا يؤمنون أبداً، فقال الله: يا يونس إنهم مائة ألف أو يزيدون من خلقي، يعمرون بلادي، ويلدون عبادي، ومحبتي أن أتأناهم للذي سبق من علمي فيهم وفيك وتقديري وتدبيري غير علمك وتقديرك، وأنت المرسل وأنا الرب الحكيم، وعلمي فيهم يا يونس باطن في الغيب عندي لا تعلم منتهاه، وعلمك فيهم ظاهر لا باطن له، يا يونس قد أجبتك إلى ما سألت، أنزل العذاب عليهم وما ذلك يا يونس بأوفر لحضك عندي ولا أحمد لشأنك وسيأتيهم العذاب في شوال يوم الأربعاء وسط الشهر بعد طلوع الشمس فأعلمهم ذلك فسر يونس ولم يسؤه ولم يدر ما عاقبته.

أقول: وفيه إن الله رفع عنهم العذاب لما آمنوا، وسجن يونس في بطن الحوت وكما في الآية ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ [يونس: ٩٨].

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٣٩-١٤٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٧، ٨٨.

إنه أبق إباق العبد من مولاه، أبق من تكميل الرسالة وتتميم الدعوة، مغاضباً مع قومه، فظن أن لن يقدر الله: يضيق الله: عليه في هذا الإباق، فساهم فكان من المدحضين، فالتقمه الحوت وهو مليم نفسه أن كان من الظالمين: المنقصين في بلاغ الرسالة، ولولا أن تداركه من ربه نعمة التسبيح للبث في هذا السجن إلى يوم يبعثون، فنبذه بالعراء لما سبح، وأرسله ثانية إلى قومه: إلى مائة الف أو يزيدون، فـآمنوا فمتعهم الله إلى حين: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1].

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾: حكم الاستقامة في الدعوة: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[2] ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[3]: هـذا - وحكم الله في هؤلاء الماردين يوم الدنيا ويوم الدين، يوم في حريق الحرب كما حان حينها منذ الهجرة، ويوم في حريق النار يوم القرار ولا فرار!

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾: يونس صاحب السجن الحي السابح في أليم، إذْ نادى ربه فيه ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾: مكظوم الغضب عن قومه لما عرف خطأه في التعجيل، وتركه واجب التأجيل ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: أن كظم غيظه وغضبه، ووفقه للتوبة والتسبيح ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ولكنه سبح ربه وتاب فنبذ بالعراء وهو ممدوح، فلقد كان بانتظاره عذاب دائب يوم الدنيا: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾[4] دون نبذ بالعراء مذموماً أو ممدوحاً، لو أنه ترك كل الواجب قديماً وفي السجن، ولكنه كان من المسبحين هنا وهناك، ولقد نجاه تسبيحه أن نبذ

(١) سورة يونس، الآية: ٩٨.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٢.
(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.
(٤) سورة الصافات، الآيتان: ١٤٣، ١٤٤.

بالعراء، وكان يبقى عليه الذم لو لم يكمل التسبيح بما أنعم عليه ربه من الاعتراف بالظلم، ومن التوبة النصوح، وكظم الغيظ، فنبذ بالعراء ممدوحاً ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: لتكميل الرسالة: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴿١٤٦﴾ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١٤٨﴾﴾[1].

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾:

الإزلاق هو إزلال القدم حتى لا يستقر على الأرض، والإزلاق بالبصر كناية عن غاية المقت والإبغاض عند النزاع والخصام، كأن هؤلاء الكفار - وعند سماع الذكر الذي لزامه التذكير - كأنهم من كثرة بغضهم يكادون ليستفزوه من الأرض بأبصارهم الحاقدة، وليمسوا من كرامته بألسنتهم الناقدة: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ رغم أن كيانه ذكر للعالمين ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهل يعقل أنه بنعمة ربه مجنون، وهم بنقمته عقلاء، فما لهم كيف يحكمون؟

ثم وهل للعين تأثير عفوي، دون محاولة خارجية فيما يراد؟ عله يكون أحياناً، ولكنه لغير المؤيدين المدركين بالعصمة الإلهية، فقد كاد الكفار ليزلقوه ولن يزلقوه، حيث العصمة الإلهية ترقب الرسول الأقدس عن كل محاولة تمس من كيانه الرسالي، مهما كادوا له كيداً ومادوا عليه ميداً، وكادوا ليزلقوه بأبصارهم، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين!

هذا كله، رغم أن: «العين حق»[2] و«العين تدخل الرجل القبر والجمل

---

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٤٥-١٤٨.

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٥٨ أخرج البخاري عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال:

القدر»[١] و«أكثر من يموت بعد قضاء الله وقدره بالعين»[٢]، كما يروى عن الرسول الأقدس ﷺ تأثيرات نفسانية سيئة تبتدئ بالعين، وكما لسائر المحاولات الشريرة آثار، إلا أن يشاء الله غيره ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾[٣]!

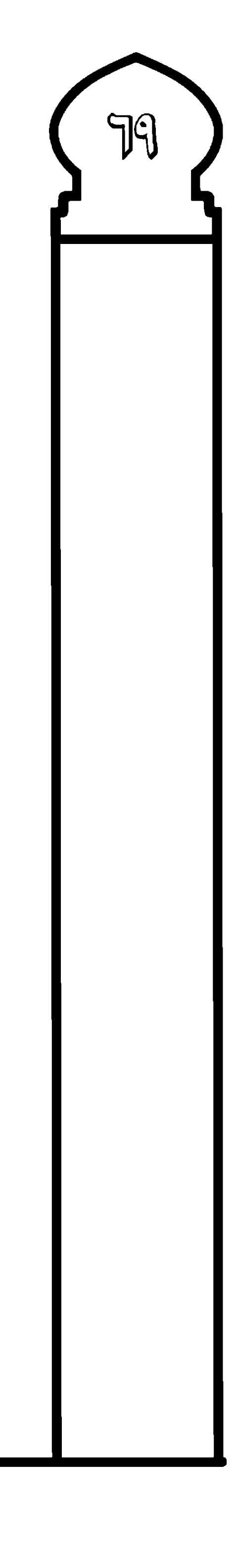
﴿وَيَقُولُونَ﴾ قولتهم الكافرة المجنونة: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ فهل لأنه لا يمشي ممشاهم ولا يهوى هواهم؟ ﴿وَمَا هُوَ﴾: قرآن محمد ومحمد القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: كل العالمين مهما كانوا في هذه المعمورة أم سواها من كواكب عامرة، فالعالمون العقلاء هم المعنيون بهذا الذكر، ولكي يعقلوا عنه الكثير الكثير من متطلبات الحياة العقلية، ويرفضوا به الكثير الكثير من خرافات الحياة المجنونة المنفصلة عن وحي السماء.

إنها في هذا الوقت المبكر والضيق المستحكم تعلن عن عالميتها، دون أن تكون هذه الصفة جديدة عليها حين انتصرت في المدينة، وإنما كانت ثابتة في صلب الدعوة منذ بدأت في أيام مكة الأولى، وكذلك تستمر إلى الأيام الأخرى، لو أن حملتها لم يهملوها ويمهلوا أعداءها للنيل منها، إنها لم تعرضها معارضات من دواخلها وخوارجها، فإن هذه الدعوة مستمرة مستزادة في ذاتها ومعطياتها.

فمهما تقولوا عليها فرية الجنون، لكنما العقلاء سوف يعرفون مدى عقلها على تقدم العقل والعلم، ومدى جنون المفترين عليها الزور!

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٥٨ أخرج أبو نعيم في الحلية عن جابر أن النبي ﷺ قال:
(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٥٨ أخرج البزاز عن جابر أن النبي ﷺ قال:
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.



سُورَةُ الحَاقَّة



مكية - وآياتها اثنتان وخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَآقَّةُ ① مَا ٱلْحَآقَّةُ ② وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ③ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ④ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ⑥ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ⑦ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ⑧ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ⑨ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ⑩ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ⑪ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ⑫﴾

﴿ٱلْحَآقَّةُ ①﴾:

من أسماء القيامة الكبرى، ذات الدلالة على حقيقتها وحقيَّتها، دلالة مزدوجة: بصيغة الفاعل وتاء المبالغة، حاقة بالأدلة والآيات الآفاقية والأنفسية، حاقَّة لمن يعرفها بثوابها، وحاقة على من ينكرها بعذابها، بأحوالها الواقعة وأهوالها، وحاقة بكل ما يحق عقلاً وعدلاً في قسطاس الإله العدل المتعال، تحقّق لكلِّ عامل سعيه، خيراً وشراً، إظهاراً للحق المجهول والمتجاهل عنه يوم الدنيا، ليوم الدين، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾؟

سؤال استعظام وإجلال لأمر الحاقة.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾؟:

إعظام ثان لأمرها: إنك - وأنت الرسول - ما كنت تدري ما هي لولا أن الله عرَّفك وأدراك بها!

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾:

ثمود هم قوم صالح من الثمْد وهو الماء القليل الذي لا مادة له، فهم وعاد قوم هود ألعن حماقى الطغيان، وقد كذبتا - فيما كذبتا - بالقارعة، القيامة القارعة، التي تقرع الكون وتدكُّه، تضرب الناس بفنون الأهوال وجنون الأحوال، والسماء بالانشقاق والانفطار، والأرض والجبال بالدك والنسف، والنجوم بالطمس والانكدار ببعضه، فلما كذَّبتا بها حقت عليهما القارعة التي تقرعهم بالحق فيما تقرع.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾:

بالصيحة الطاغية ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ۝٦٨﴾[1]، وبالرجفة الطاغية ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾[2] صيحة ورجفة خلَّفتا صاعقة: . . ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[3]، ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[4].

---

(١) سورة هود، الآيتان: ٦٧، ٦٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٧٨.
(٣) سورة فصلت، الآية: ١٧.
(٤) سورة الذاريات، الآية: ٤١.

إنهم أهلكتهم قبلكم الطاغية بطغواهم.. طاغية بطاغية: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾[(١)] ولقد اختصرت تلكم الحادثة هنا - في الحاقة - بحق الأمر الواقع من العذاب: «الطاغية» فائضاً بالهول المناسب لثورة السورة، تطويهم طياً، وتطغى عليهم بما بغوا وطغوا ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١﴾[(٢)] [(٣)].

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾:

﴿صَرْصَرٍ﴾ بالغة في الصّر والبرد، عاتية: شديدة الهبوب والغَلب وعلى حدّ تفسير الرسول الأقدس ﷺ: «غالبة»[(٤)]، عتت على خزانها. وكما يروى عنه ﷺ: «ما خرجت ريح قط إلا بمكيال إلا زمن عاد فإنها عتت على خزانها، فخرجت في مثل خرق الإبرة فأهلكت قوم عاد»[(٥)] كذلك. وعتت في غلبها عليهم فلم يجدوا عنها محيصاً، وعتت عليهم كما عتوا عن أمر ربهم، عاتية في كافة مراحلها إلا عُتو البغي، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

إنها كانت ريحاً عقيماً لا تخلّف إلا عقم الحياة بفور الممات: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾[(٦)]: ريح عذاب لا تلقح شيئاً من الأرحام ولا شيئاً من النبات، وما خرجت إلا على قوم عاد[(٧)].

---

(١) سورة الشمس، الآية: ١١.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٥٠، ٥١.

(٣) ذكرت ثمود في ٢٦ موضعاً من القرآن مع طغاة كأمثالهم، كما ذكرت عاد ٢٤ مرة.

(٤) الدر المنثور ٦: ٢٥٩ - ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ في حديث قال الله تعالى: بريح صرصر عاتية، قال: غالبة.

(٥) نور الثقلين ٥: ٤٠١ (من لا يحضره الفقيه) قال رسول الله ﷺ.

(٦) سورة الذاريات، الآيتان: ٤١، ٤٢.

(٧) نور الثقلين ٥: ٤٠١ عن روضة الكافي بإسناده إلى الباقر عليه السلام وهو حديث طويل.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾:

هذه الريح الصرصر العاتية العقيم، سلطت على هؤلاء الأوغاد في مثل هذه الليالي والأيام الحسوم: حسوماً بصرصرها، إذ حسمت وقطعت وأزالت كافة آثار الطغيان وكما تحسم المكواة بكرورها آثار الفوضى في الثياب، فقد حسمت الريح الصرصر العاتية فوضويين طغاة مكابرين ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾؟.

وحسوماً بتواصلها في أيامها الحاملة العذاب الصرصر ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا...﴾[1] أيام كأنها في تواليها يوم واحد: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾[2].

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾: في هذه الأيام النحسات، وفي صرصرها العاتية تراهم ميتين في مصارعهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾: خالية جوفاء ملقاة على أعجازها. ك «نخل منقعر»: والنخل الخاوية الأعجاز، المنقعرة المصرومة، أشبه شيء بالموتى الصرعى.

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾:

لا حاضراً إذ لا خبر واقع عنهم، إلا باقية باغية مزرية، ولا غابراً إذ لم تبق لهم حتى جثثهم: والريح الصرصر العقيم هي التي جعلتهم مندثرين، إما قذفاً لأجسادهم أو رمادهم في اليم، أو نثرها عبر الهواء. ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾؟ كلا: لا نفوس باقية ولا آثار من جثثهم الجهنمية، فقد اجتثوا من جذورهم، بأنفسهم ونفائسهم: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾[3]، فلم يبق

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١٦.
(٢) سورة القمر، الآيتان: ١٩، ٢٠.
(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٢٥.

منهم من يتحدث عنهم ولا حتى قبورهم اللهم إلا مساكنهم الخالية الخاوية.. فيا له من تعبير عديم النظر يرسم لنا مشهد التدمير كأننا الآن نشهده، فهنا عاصفة مزمجرة، وهناك ضحايا الزمجرة، صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية، فهل ترى لهم من باقية؟.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾:

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ﴾ - موسى - ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ من فراعنة التاريخ بهوامش الضلالة: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾[1].

وجاءت ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ﴾: الأقوام المفترية على الله ورسله، كقوم لوط وأضرابهم. جاؤوا ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾: الحياة الخاطئة، بالأفكار والتصرفات الخاطئة، خطأً متعمداً في حياة جهنمية مريرة.

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾: كتلة الضلالة عصت كتلة الهداية التي تجمعها رسالة إلهية واحدة، ولأنهم أجمع من إله واحد، وباتجاه واحد، مهما اختلفت فروع جزئية من شرائعهم صورياً لا جذرياً، لا فحسب أنهم واحد، بل وأمتهم أيضاً واحدة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾[2]، فشخصية الرسل واحدة، وشخصية الأمم التابعة لهم صدقاً واحدة، مهما كان الأشخاص والأمم عدة، فتكذيب رسول واحد تكذيب للرسل أجمع، لأنه تكذيب للرسالة

---

(١) سورة الفرقان، الآيات: ٣٧-٣٩.

(٢) سورة المؤمنون، الآيات: ٥١-٥٣.

الإلهية: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ في الاتجاه نحو إله واحد، ولقد كان نتيجة تكذيب تلك الأقوام الرسالة الإلهية هي الأخذة الرابية:

﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ عالية ضامرة غامرة تربو على قبيح أعمالهم: ﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾[١] ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[٢] كيف لا! وهو ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[٣].

أجل - وإنها أخذة تعلوهم كما استعلوا وعتوا عن أمر ربهم، دون أن تربو على عتوهم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٤] فقد ينقص العذاب عن الاستحقاق دون أن يربو عليه، وإنما الثواب هو الذي يربو على الاستحقاق. بل ولا استحقاق.. إلا مغفرة من الله وفضلاً.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾:

لقد طغا الماءُ في طوفان نوح عليه السلام في طُموِّ أمواجه وارتفاع أثباجه كالرجل الطاغي الذي علا متجبراً، وشمخ متكبراً، طغا الماء على الطغاة، وكثر على ضبّاطه وخزانه، فلم يضبطوا مدى الخارج منه كثرة.

فكيف طغا الماء؟ وما هي الجارية؟ وكيف حملتنا ولم نكن وقتئذٍ وإنما كان أجدادنا؟.

طغا الماء كما أراد الله: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾[٥].

---

(١) سورة المزمل، الآية: ١٦.
(٢) سورة هود، الآية: ١٠٢.
(٣) سورة القمر، الآية: ٤٢.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨٢.
(٥) سورة هود، الآيات: ١١-١٥.

ولقد سميت سفينة نوح بالجارية لأنها كانت تجري في اليم المحيط، وتسمى السفن جواري: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾[١].

وأما كيف حملتنا؟ إنها حملتنا ونحن ذرية في أصلاب آبائنا المحمولين فيها، فقد حُملنا بما حملوا، رحمة مزدوجة من ربنا: لنا ولهم، فكما يُمَن عليهم كذلك علينا وأحرى إذ حملنا ولم نكن شيئاً مذكوراً، إلا ذرية، وهو آية للرحمة والقدرة الإلهية: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾[٢] فليست ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ - وهم الموجودون حين نزول الآية - إنها ليست أبناءهم، كيف ولم يكونوا موجودين وقتذاك فضلاً عن أولادهم، ولا أجدادهم، لأنهم ليسوا ذرية في أية لغة واصطلاح، وإنما ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هم أنفسهم إذ كانوا ذرية «إضافة الشيء إلى نفسه اعتباراً بالحالة المسبقة» كما يقال: نطفتك - ميتتك - جيفتك، والمعنى فيها أنت حينما كنت نطفة، وحين تكون ميتة وجيفة كذلك الحال في ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فهم أنفسهم إذ كانوا ذرية في أصلاب آبائهم، ولئن كان هذا المعنى خفياً في البداية، فقرينة آية الجارية: ﴿حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ وكذلك نفس آية الذرية[٣]، فيهما الكفاية التامة لحصر معناها في إضافة الذرية إلى نفسها: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ حملناهم إذ كانوا ذرية، وما أحسنه تعبيراً عن الحالة المسبقة الضئيلة للإنسان، ولكي يتنبه نعمة الله عليه إذ لم يكن شيئاً مذكوراً.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾: لنجعل الجارية التي حملتكم في أصلاب أجدادكم، نجعلها لكم تذكرة: تذكرة في نعمتها لحملكم، وتذكرة في

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٤.
(٢) سورة يٓس، الآية: ٤١.
(٣) إذ لا يمكن أن يراد منها الأبناء والأجداد.

جريانها عبر التاريخ بآثارها الخالدة وأنقاضها الباقية بعد جريانها عبر البحر المحيط: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1]: إذ ظلت باقية حتى الآن: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2] وبما يحملها من بشارة:

فهي آية في أنقاضها، وآية في الآيات المكتوبة عليها باللغة السامانية التي تصرح باسم الخمسة الطاهرين من أهل بيت الرسالة المحمدية (محمد ﷺ. علي. فاطمة. الحسن. الحسين عليهم السلام) وكل ذلك واقع، فالسفينة آية في غابرها وحاضرها، في أنها نجاة للمؤمنين من قوم نوح ولذريتهم في الحياة الجسدانية إذ أنجتهم من الغرق، وفي الحياة الروحانية إذ حملت بشارة الغيب: أسماء الطيبين الذين أقسم بهم نوح عليه السلام حتى نجاه الله من الغرق.

سفينة نوح والبشارة المحمدية على أنقاضها:

«في تموز ١٩٥١ عثر على قطع متناثرة من أخشاب قديمة متسوسة وبالية، اكتشفها جماعة من العلماء السوفييت المختصين بالآثار القديمة، إذ كانوا ينقبون في منطقة بوادي قاف، مما دعاهم إلى تنقيب أكثر وأعمق، فوقفوا على أخشاب أخرى متحجرة وكثيرة كانت بعيدة في أعماق الأرض، ومن بينها عثروا على خشبة مستطيلة الشكل طولها ١٤ سنتيمتراً وعرضها ١٠، سببت دهشتهم واستغرابهم، إذ بقيت سليمة غير متناثرة بين الأخشاب الأخرى!.

وفي أواخر ١٩٥٢ أكمل التحقيق حول هذه الآثار الغريبة، فتبين أن اللوحة وسائر الأخشاب هي أنقاض سفينة نوح عليه السلام التي استوت على الجودي حسب القرآن، وقد ظلت عليها حتى القرن الحاضر.

---

(١) سورة القمر، الآية: ١٥.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ١٥.

وقد شوهد على هذه اللوحة بعض الحروف التي تعود إلى أقدم اللغات، وللكشف عنها ألفت الحكومة السوفييتية لجنة قوامها سبعة من علماء اللغات القديمة»(١) وبعد ثمانية أشهر من الدراسة لهذه اللوحة والكتابة المنقوشة عليها، أجمعوا أنها من نفس الخشب الذي صنعت منه سفينة نوح عليه السلام وأنه وضعها في السفينة للتبرك والاستحفاظ بعد أن تحققوا أن تلك الحروف كانت باللغة السامانية أو السامية: لغة نوح عليه السلام وقد ترجمها العلماء الروس المعنيون باللغات القديمة إلى اللغة الروسية، ثم العالم البريطاني (إين إيف ماكس) أستاذ الألسن القديمة في جامعة (مانشستر) ترجمها إلى الإنجليزية(٢)، وهي بالعربية:

---

(١) وهم: سولي نوف - أستاذ الألسن القديمة في جامعة موسكو، و(ايفاهان خنيو) عالم الألسن القديمة في كلية لولوهان بالصين، و(ميشانن لو فارند) مدير الآثار القديمة، و(تانمول غورف) أستاذ اللغات في كلية كيفزو، و(دي راكن) أستاذ الآثار القديمة في معهد لينين، و(ايم أحمد كولاد) مدير التنقيب والاكتشافات العام، و(ميجر كولتوف) رئيس كلية ستالين) نقلتهم مجلة البذرة النجفية في العددين: الثاني والثالث - شوال وذي القعدة:

(٢) ترجمتها باللغة الإنجليزية كالتالي:

يا إلهي ويا معيني	O my God my helper
برحمتك وكرمك ساعدني	*Keep myhands with mercy*
ولأجل هذه النفوس المقدسة	*And with your holybodies*
محمد	*Mohamed*
إيليا	*Alia*
شبر	*Shabbar*
شبير	*Shabbir*
فاطمة	*Fatima*
	They are all biggest and honourables
هم جميعهم عظماء ومكرمون	*The world established for them*
العالم قائم لأجلهم	
ساعدني بحق أسمائهم.	*Help me by their names you can reform to right.*

أنت تستطيع أن توجهني إلى الطريق الصحيح.

يا إلهي ويا معيني، برحمتك وكرمك ساعدني، ولأجل هذه النفوس المقدسة محمد - إيليا - شبر - شبير - فاطمة. الذين جميعهم عظماء ومكرمون، العالم قائم لأجلهم. ساعدني بحق أسمائهم، أنت تستطيع أن توجهني إلى الطريق الصحيح.

ولقد بقي هؤلاء العلماء في دهشة عظيمة أمام هذه اللوحة بأسمائها حيث توسل بها نوح وبقيت حتى الآن، واقع التصديق للقرآن ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[١]، وهذه اللوحة موجودة الآن في متحف الآثار القديمة في موسكو وفي خبر أن المسلمين رأوها من ذي قبل[٢].

ولما اكتشفت هذه البشارة المحمدية نشرتها المجلات والجرائد المهمة العالمية: الروسية والبريطانية والقاهرية[٣].

وإليكم صورة اللوحة الفوتوغرافية باللغة الآرامية كما نشرت في الجرائد والمجلات وبعض الكتب ككتاب إيليا، وأصل اللوحة موجودة الآن في متحف الآثار القديمة في موسكو:

وقد ترجمت كما سبق كالتالي:

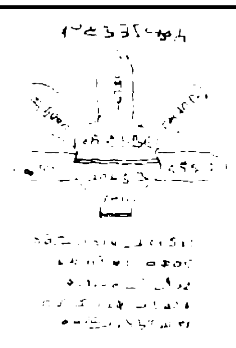
---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٥.

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٦٠: عن قتادة في الآية قال: عبرة وآية أبقاها الله حتى نظرت إليها هذه الأمة، وكم من سفينة غير سفينة نوح صارت رمماً).

(٣) ١ - مجلة روسية شهرية تصدر في موسكو تشرين الثاني ١٩٥٣، ٢ - مجلة (ويكلي ميرر) الأسبوعية اللندنية العدد الصادر ٢٨ كانون الأول ١٩٥٣، ٣ - مجلة (أستار) اللندنية، كانون الثاني ١٩٥٤ - ٤ - جريدة (سن لايت) الصادرة في مانجستر ٢٣ كانون الثاني ١٩٥٤، ٥ - جريدة (ويكلي ميرر) اللندنية في ١ شباط ١٩٥٤، ٦ - جريدة (الهدى) القاهرية في ٣٠ مارس ١٩٥٣) والمصادر الأربعة الأخيرة نقلت ترجمة العالم البريطاني (أن أف ماكس) أستاذ الألسن القديمة في جامعة مانجستر.

٧ و- من المصادر كتاب إيليا من منشورات دار المعارف الإسلامية بلاهور باكستان برقم ٤٢ - اللغة الأردية.



«يا إلهي ويا معيني، برحمتك وكرمك ساعدني، ولأجل هذه النفوس المقدسة: محمد - إيليا - شبر - شبير - فاطمة، الذين جميعهم عظماء ومكرمون، العالم قائم لأجلهم، ساعدني بحق أسمائهم، أنت فقط تستطيع أن توجهني إلى الصواب.

ولقد سبق نوحاً إدريس النبي عليه السلام في ذكر أسمائهم باللغة السريانية «پارقليطا - إيليا - طيطه - شپير - شپيير»[١].

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾: الأذن التي تعي الحقائق الناصعة إنها تعي آية سفينة نوح، بما على لوحتها من آيات، وأوعى الآذان آذان النبيين، وأوعاها بينهم جميعاً أذن الرسول الأقدس محمد عليه السلام. فحياته وعي للحقائق دون نسيان، ويخلفه في وعيه الشامل أذن علي عليه السلام. وعلى حد قوله ﷺ لما نزلت آية الأذن، «سألت ربي أن يجعلها أذن علي قال مكحول فكان علي يقول: ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً فنسيته»[٢] وعن علي عليه السلام: ضمني رسول الله ﷺ وقال: أمرني ربي أن أدنيك ولا أقصيك وأن تسمع وتعي[٣].

---

(١) التفصيل في كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية).

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٦٠، وقد أخرج في غاية المرام ستة عشر حديثاً مثله عن طريق الفريقين.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية والواحدي في أسباب النزول عن بريدة وأبو القاسم بن حبيب في تفسيره عن زر بن حبيش عن علي عليه السلام ورواه في تفسير روح البيان ج ١٠ ص ١٣٦.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١٥) وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)﴾

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ (١٣)﴾:

هي الأولى من نفختي الإماتة والإحياء والواحدة توحي بنفاذها وسرعتها وشدة مفعولها دون مهل ولا فشل، نفخة وصرخة تسمع أعماق الكائنات وتصرعها وتمحقها كأن لم تكن، وعلى أثر هذه النفخة المدمرة:

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً (١٤)﴾:

نفخة واحدة تخلق دكة واحدة، واحدة في عدها، مزدوجة في شدها ومدها: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾(١): يسمع منها صوت الدكداك: أشد الدقِّ الذي يسحق ويبدل الشيء إلى أجزاء دقاق كالدقيق.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١٥)﴾:

واقعة الإماتة والتدمير وتتلوها واقعة الإحياء والتعمير، ومن الأولى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾: .. ومن الثانية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾:

(١) سورة الفجر، الآية: ٢١.

اعتبرت الثانية كأنها الأولى أو من الأولى لاتصالهما: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ إذ دكت الأرض والجبال ووهت السماء.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦﴾:

مسترخية بشد رباطها بعد شد قماطها، فلقد كانت سبعاً شداداً: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾[1] فهذه السبع الشداد سوف تسترخي وتوهي: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾[2] تصبح السماء غير السماء مغايرة في الصورة والماهية، والمادة الأصلية هي نفس المادة، بانقلابها وانسلاخها عن ناموس العمار إلى ناموس البوار.

﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧﴾:

إن الملك - عند انفراط الكون وتغيره بأرضه وسمائه - يخرج عن ميدان النضال الموت إلى الأرجاء: الجوانب، فراراً من الموت، إلى تحقيق أمر الله، بأمر الله ولعلهم ملائكة خصوص ممن شاء الله. إذ يصعق وقتئذٍ من في السماوات ومن في الأرض: . . ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨﴾[3] فعلّهم هؤلاء الخصوص الذين شاء الله ألا يصعقوا، ولا سيما إذا كان ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ حالاً من انشقاق السماء ووهيها! «ويؤيده المروي عن النبي ﷺ[4]» أو علّهم كمن سواهم ممن هم قيام

---

(١) سورة النبأ، الآية: ١٢.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

(٣) سورة الزمر، الآيتان: ٦٧، ٦٨.

(٤) نور الثقلين ٥: ٤٠٣ عن إرشاد المفيد عن النبي ﷺ قال: إن الناس يصاح بهم صيحة واحدة فلا يبقى ميت إلا نشر، ولا حي إلا مات، إلا ما شاء الله. ثم يصاح بهم صيحة أخرى فينشر من مات. . .

ينظرون في نفخة الإحياء، ولكنه يبقى السؤال: لماذا على الأرجاء؟ أقول: ولكي يُحملوا مع العرش، يحملهم الثمانية ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾: الملك الذين هم على الأرجاء «ثمانية»: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾[1] فهم المحمولون مع العرش، ولكي يساعدوا الحملة في تحقيق أمر الله.

فإذ «ليس في طبقات السماوات موضع إهاب إلا وعليه ملك ساجد، أو ساع حافد»[2] فكونهم وقتئذٍ على الأرجاء، وباقي السماء منهم خلاء، ليس إلا أن منهم من صعق في الصيحة فانتهى دوره ومنهم من لحق حملة العرش على الأرجاء، وهم ممن شاء الله ألا يصعقوا.

ما هو العرش هنا ومن هم حملة العرش؟:

إن لله عروشاً عدة، منها عرش الخلق والتدبير، ومنها عرش العلم، ومنها كما هنا - عرش التربية: جسدانية، ونفسانية روحانية، يعنى به أعلى المقامات في أعلى الملأ، يحمله من خلق الله الملأ الأعلى ملائكية وبشرية أم ماذا؟!.

فهو على أية حال ليس عرشاً كعروشنا يتكأ عليه، ثم خلقه يحملونه على عرشه، فيصبح في ازدواجية الحمل: محمولاً مرتين! وإنما العرش خلق من خلق الله يحيط بسائر الخلائق من مصادر الأمر العليا بشأن الكون، في تدبيره جسدانياً وروحانياً.

فيوم الدنيا، لعرش العلم الإلهي حملة بين الخلق هم النبيون وأهلوهم المعصومون، ولعرش التدبير حملة منهم ومن الملائكة المدبرات أمراً بإذن الله، والله خالقهم وخالق العرش، وهو من ورائهم محيط.

لقد ذكر العرش في واحد وعشرين موضعاً من القرآن والكرسي في واحد،

(١) سورة غافر، الآية: ٧.

(٢) نهج البلاغة عن علي عليه السلام.

منها آيات استوائه تعالى على العرش، حينما كانت المادة الأولية دون أرض ولا سماء: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[1] ومنها ما في استوائه عليه بعدما خلق الأرض والسماء: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾[2] عرش الألوهية والملك المطلق، ومنها ما يعنى به عرش التدبير: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[3] ومنها عرش العلم: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. . .﴾[4] وما إلى ذلك من عروش تناسب وساحة الألوهية والربوبية، والحامل الأول والأخير لهذه العروش هو الله تعالى، وقد يحملها من خلقه من يشاء، يحملونه بإذنه وكما يريد من مصالح الخلق، وكما في الحمَلة الثمانية:

آيات ثلاث تحمل ذكر الحملة الثمانية، ثانيتها: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5] تعني العرش يوم قيامة الإحياء والحساب.

وآخرها: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[6] وهي كذلك تعني يوم الحساب.

ثم عرش الحاقة يمتاز بأمور عدة: منها ذكر العدد «ثمانية» ومنها اختصاصهم بيوم الحساب ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ فهل لأنهم أقل منهم يوم الدنيا فزادوا يوم الدين، أم كانوا أكثر فقلّوا؟

ثم الملائكة الحافون حول العرش ليسوا كلهم حملة، فمنهم محمولون

---

(١) سورة هود، الآية: ٧.
(٢) سورة طه، الآيتان: ٥، ٦.
(٣) سورة يونس، الآية: ٣.
(٤) سورة الحديد، الآية: ٤.
(٥) سورة الزمر، الآية: ٧٥.
(٦) سورة غافر، الآية: ٧.

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ ولا أن الحمَلة هم الملائكة فحسب، كما أن آيتي الحمل لا تختصانه بهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾[1] ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾[2] فمن هم الثمانية؟ وهل كانوا يوم الدنيا أقل أو أكثر؟.

نقول: هنا عرش قبل خلق السماوات والأرض، وعرش بعدهما يوم الدنيا وعرش يوم الدين، كل حسب ما يتطلبه الخلق من حاجاتهم إلى الله فيما يصدر من لدنه تعالى، ولعل لكل عرش حملة، وآية الحاقة تصريحة لحملته يوم الدين «ثمانية» وتلويحة لهم يوم الدنيا، لا ندري الآن عدتهم.

ثم الثمانية يوم الدين: هل هم أشخاص أم أصناف ثمانية؟ أم طوائف ثمان، تأنيث العدد يوحي أنهم أشخاص، إذ الطوائف ثمان لا ثمانية! ولا بد للأصناف من دلالة زائدة، وإذا كانوا أصنافاً فلا دليل أنهم كلهم حمَلة العرش.

وبما أن العرش هو المقام العلي الذي ترجع إليه أزمة جميع التدابير التكوينية والتشريعية، فلتكن فيه جميع الوقائع والحوادث، إلا ما يستثنى لله تعالى، الخاص بساحة الألوهية والربوبية، فليس العرش الذي تحمله ثمانية، هو الذي استوى عليه الرب، إنما قدر منه يقدر على حمله أصفياء من خلقه لتحقيق أمره فيكونوا على مستوى عظمة العرش، ومعنى الحمل للعرش.

فحملة عرش التربية والعلم هم العلماء الربانيون من الأنبياء المرسلين والملائكة الكروبيين، حملة الوحي إليهم، والمدبرين أمر الخلق بأمره.

وبما أن القيامة فيها خلاصة النشأة الأولى وزيادة، فليكن حملة العرش فيها أكثر منهم يوم الدنيا، ويصدِّق هذا الإيحاء، إضافة إلى «يومئذٍ» الدال على اختصاص العدد بيوم القيامة، يصدقه المروي عن الرسول ﷺ: يحمله

(١) سورة غافر، الآية: ٧.
(٢) سورة الحاقة، الآية: ١٧.

اليوم أربعة ويوم القيامة ثمانية[1] وروايات عدة أخرى تحصر الثمانية بيوم القيامة كالمروي عن الصادق عليه السلام قال: حملة العرش - والعرش العلم - ثمانية: أربعة منا وأربعة ممن شاء الله»[2] لو عنى بـ﴿مِنَّا﴾ الحملة البشر، أو حملته يوم الدنيا.

وبالنسبة لهؤلاء الأربعة لو نظرنا من زوايا عدة إلى نبوات عدة أصيلة كان الأربعة هم «نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم» فإن موسى والمسيح لم يحملا إلا رسالة واحدة هي التورات، فهما إذاً واحد[3].

ولو نظرنا إلى القمة المقسّمة على حملتها في الرسالة المحمدية الشاملة للرسالات كلها، المضيئة عليها كلها، كان الأربعة هم «محمد وعلي والحسن والحسين»[4] وعلى أية حال هؤلاء هم حملة العلم والتربية الإلهية تحقيقاً وجزاء.

وعن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام [5]: إذ سأله الجاثليق فقال: أخبرني عن الله عزّ وجلّ يحمل العرش أو العرش يحمله؟ فقال: الله عزّ وجلّ حامل العرش والسماوات والأرض وما فيهما وما بينهما وذلك قول الله عزّ وجلّ :

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٦١ - ابن جرير عن ابن زيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : وفي التفسير الكبير (ج ٣٠ ص ١٠٩) عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (هم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين فيكونون ثمانية).

(٢) نور الثقلين ٥ : ٤٠٦ عن الصادق عليه السلام .

(٣) راجع كتابنا (المقارنات العلمية وتفسير سورة الجن في هذا الجزء).

(٤) نور الثقلين ٥ : ٤٠٦ عن تفسير القمي قال: حملة العرش ثمانية: أربعة من الأولين وأربعة من الآخرين، فأما الأربعة من الأولين فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وأما الآخرون فمحمد وعلي والحسن والحسين، ومعنى يحملون يعني العلم.

(٥) نور الثقلين ٥ : ٤٠٥ - عن أصول الكافي عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد البرقي رفعه قال: سأل الجاثليق أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: أخبرني عن قوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحَاقَّة: ١٧] فكيف قال ذاك، وقلت: إنه يحمل العرش والسماوات والأرض! قال عليه السلام : . . .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾(١) قال: فأخبرني عن قوله: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾: فكيف ذاك؟ وقلت: إنه يحمل العرش والسماوات والأرض! فقال أمير المؤمنين: «إن العرش خلقه الله من أنوار أربعة: نور أحمر منه احمرت الحمرة ونور أخضر منه اخضرت الخضرة، ونور أصفر منه اصفرت الصفرة، ونور أبيض منه ابيض البياض، وهو العلم الذي حمَّله الله الحملة، وذلك نور من نور عظمته. فبعظمته ونوره أبصر قلوب المؤمنين، وبعظمته ونوره عاداه الجاهلون، وبعظمته ونوره ابتغى من في السماوات والأرض من جميع خلائقه إليه الوسيلة بالأعمال المختلفة، والأديان المتشتتة، فكل شيء محمول يحمله الله بنوره وعظمته وقدرته، لا يستطيع لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً، فكل شيء محمول والله تبارك وتعالى الممسك لهما أن تزولا: والمحيط بهما من شيء، وهو حياة كل شيء ونور كل شيء، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، قال له فأخبرني أين هو؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام هو هاهنا وهاهنا وفوق وتحت ومحيط بنا ومعنا وهو قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾(٢) فالكرسي محيط بالسماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى، وذلك قوله: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾(٣) فالذين يحملون العرش هم العلماء الذين حمَّلهم الله علمه، وليس يخرج عن هذه الأربعة شيء خلقه الله في ملكوته، وهو الملكوت الذي أراه الله أصفياءه وأراه خليله فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾(٤) وكيف يحمل حملةُ العرش الله؟ وبحياته حييت قلوبهم، وبنوره اهتدوا إلى معرفته».

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٤١.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

أقول: علّ الأركان الثلاثة الأول هي مقادير التقدير والتدبير والإبرام في سائر الكائنات تكويناً، والركن الرابع هو زاوية العلم: تشريعاً وتكويناً وما أشبهها.

ثم الأربعة الآخرون يوم القيامة، علهم من الملائكة الكروبيين الخصوص، أو أنهم هم لا سواهم، إذ لو كانوا من الحملة يوم الدنيا لانتفى دورهم يوم الدين!

وهؤلاء المكرمون الثمانية - أياً كانوا - هم فوق الخلائق أجمع، ويحملون عرش الرب فوقهم أجمع: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾.

وعلّهم - كما احتملنا مسبقاً - ثمانية صفوف أو صنوف، فلتشمل كافة حملة الرسالات الإلهية، وحملة أمر الله تعالى: يوم الدنيا ويوم الدين، منقسمين إلى صفوف أو صنوف ثمانية، وإنما ذكرت الروايات أولي العزم من الرسل لأنهم القمة فيما يحمّلون، والأئمة فيما يحملون.

وأخيراً ما أروعه وأعمقه حديثاً عن العرش يروى عن الصادق عليه السلام، إذ يسأله حنان بن سدير عن العرش والكرسي فقال: إن للعرش صفات كثيرة مختلفة، له في كل سبب وضع في القرآن صفة على حدة، فقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[(١)] يقول: رب الملك العظيم، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[(٢)] يقول: على الملك احتوى، وهذا علم الكيفوفية في الأشياء، ثم العرش في الوصل مفرد عن الكرسي لأنهما بابان من أكبر أبواب الغيوب، وهما جميعاً غيبان، وهما في الغيب مقرونان، لأن الكرسي هو الباب الظاهر من الغيب الذي منه مطلع البدع، ومنها الأشياء كلها، والعرش هو الباطن الذي يوجد فيه علم الكيف والكون والقدر والحد والأين والمشية وصفة الإرادة وعلم الألفاظ والحركات والترك وعلم العدد والبدء، فهما في

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٩.
(٢) سورة طه، الآية: ٥.

العلم بابان مقرونان، لأن ملك العرش سوى ملك الكرسي، وعلمه أغيب من علم الكرسي فمن ذلك قال: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: صفته أعظم من صفة الكرسي، وهما في ذلك مقرونان، قلت: جعلت فداك، فلم صار في الفضل جار الكرسي؟ قال عليه السلام: إنه صار جاره لأن علم الكيفوفية فيه وفيه الظاهر من أبواب البداء وإنيتها وحد رتقها وفتقها، فهذان جاران أحدهما حمل صاحبه في الصرف، وبمَثل صرّف العلماء، وليستدلوا على صدق دعواهما، لأنه يختص برحمته من يشاء وهو القوي العزيز[١].

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾:

تعرضون على الله بشهود الأعمال، عرضاً حاضراً حاذراً مشهوداً، بعدما كنتم معروضين عليه يوم الدنيا غير مشهودين، ثم ذلك عرض للحساب، وهنا عرض العلم، وفي ذلك العرض الشهادة الحساب ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾: خافية النيات والعقائد والأعمال والسرائر، مهما حاولتم في إخفائها، إخفاء عن الله؟ كلا! ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾[٢] ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾[٣] بارزون لأنفسهم وسواهم، فكيف يخفى على الله منهم شيء، ولا تخفى عليه خافية!.

وما أخطره هول المطلع والعرض وما أفظعه وأصعبه، ألا إنه ليوم عصيب أعصب من دك الأرض ومور السماء: وقوف الإنسان عريان الجسد، عريان النفس، عريان الضمير، عريان الحاضر والغابر، عريان الآمال والأعمال ما ظهر منها وما استتر، أين؟ أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله، وأمام عظمة الله وجلاله! ألا إنه حقاً لأمرٌ أمرٌ من كل أمر وأدهى، فليحسب له الإنسان حسابه، وليعدَّ له عُدَّته، سبحان الغفار العظيم!

---

(١) التوحيد للصدوق بإسناده عن حنان بن سدير.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٨.
(٣) سورة غافر، الآية: ١٦.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾

يوم العرض الأكبر إذ يظهر لأهل الجمع كل ما ستر، يؤتى الأخيار والأشرار كتبهم: كتب الأعمال، فالحساب، فالسقوط أو النجاح، كتب تتناسب في التدليل على مواقف أصحابها، ولعلهم قبل الكل تؤتاهم كتب الشريعة:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾:

تدليلاً على أنه ناجح بما عاش يمين الحياة بيمين الكتاب الإلهي على ضوء تطبيقه

﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾:

يقولها في فرحة غامرة بين الحشر تملأ الفرحة كيانه، وتظهر على لسانه

هاتفاً أهل الجمع: ﴿هَآؤُمُ﴾: هاكم ﴿ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾: كتاب الأعمال والحساب والنجاح.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾:

والظن هذا أعم من ظن القلب الذي يساور يقين العقل الذي يدفع للصالحات فإن من يقين العقل ما لا يدفع للصالحات فضلاً عن ظنه - وأعم من ظن العقل، فإن من المحشرين من يدخل الجنة بلا حساب ومنهم من يدخلها بحساب، فهو يظن نفسه من الآخرين متهماً نفسه تخضعاً لله، فإذا هو من الأولين وكما عن الصادق عليه السلام في ظن الشك الممدوح[1]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام في ظن اليقين[2] ولفظ الآية يتحملهما معاً حيث الظن يشملهما هنا لفظياً ومعنوياً: إني أيقنت لقاء الحساب وظننت أنني أدخل الجنة بحساب، فإذا بي أدخلها بلا حساب!، وتشمل الآية أيضاً من يدخل الجنة بحساب فيختص بالوجه الأول.

فهذا الكتاب يحمل حسابي بعلامة النجاح

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾:

عيشة بالغة في أنها مرضية لحد كأن الرضا أدغمت في ذاتها فأصبحت راضية، كما يقال: شعر شاعر وليل ساهر وسحر ساحر، مبالغة في كمالها

---

(١) نور الثقلين ٥: ٤٠٧ القمي في الآية قال الصادق عليه السلام: كل أمة يحاسبها إمام زمانها - إلى قوله - فيعطوا أولياءهم كتابهم بيمينهم فيمروا إلى الجنة بلا حساب.. فإذا نظر أولياؤهم في كتابهم يقولون لإخوانهم:
﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة: ١٩-٢٠].

(٢) المصدر في الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام وأما قوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣] يعني: تيقنوا أنهم داخلوها، وكذلك قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] وأما قوله للمنافقين: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠] فهو ظن شك وليس ظن يقين».

وجمالها، راضية يوم الدين كما كانت راضية يوم الدنيا: صورة طبق الأصل، وتفضله هناك لظهوره تامة فيها، ولمزيد الرحمة الإلهية المضافة إليها.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾:

عالية في المكان والمكانة، وفي الرحمات الجسدانية والروحانية «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾:

أثمارها التي تقطف دانية إلى طلابها، لا تتكلف القيام ولا التوسل بأية وسيلة.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾:

أكلاً وشرباً هنيئاً سائغاً لا تنغيص فيه في الحلقوم، وذلك بما أسلفتموه من الصالحات في الأيام الماضية: أيام التكليف يوم الدنيا.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾:

علامة السقوط ﴿فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾: فإنه عذاب فوق العذاب وقبله ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ فإنه يدخل النار بحساب، ودراية الحساب أيضاً قبل العذاب عذاب فوق العذاب، فإتيان الكتاب بالشمال عذاب، وعرفان الحساب عذاب، ثم بعدهما واقع العذاب بقدر الحساب.

﴿يَا لَيْتَهَا﴾:

القارعة المسبق ذكرها ﴿كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾: علي، الماحقة لوجودي بعد الموت فحسب، دون أن تتلوها قارعة العذاب بعد صيحة الإحياء في حياة الحساب، وهي تشبه مقالة الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾[1].

---

(١) سورة النبأ، الآية: ٤٠.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨﴾:

مالي وما، لي: ما ادخرت من أموال، وما كنت أملك من طاقات جسدانية ونفسية كنت أحسبها تغنيني، ومن أعوان وأنصار تكفيني، كل هذه ما أغنت عني يوم الفقر الأكبر، الذي لم أحسب له حساباً.

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ۝٢٩﴾:

فلا مالُه بقي ولا ما لَه وقد هلكا، ولا السلطان والقدرات فما بقي لها نفع، فسلطان الطاقات، وسلطان الأعوان والصداقات، وسلطان الجاه والمال كلها كانت قوى وهمية وواهية، إنها هلكت وبقيت لي فقط سيئات الأعمال، وليس المآل إلا أمر الله المتعال:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠﴾:

كما غل نفسه يوم الدنيا بأغلال الشهوات، واستغل معطيات الحياة كلها للحيونات.

﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١﴾:

أوقدوه ناراً شديدة التأجج، فبوقوده تتأجج فيحرق حوامش الضلالة

﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ۝٣٢﴾:

الغل الأكبر بعد الغل المسبق قبل الجحيم، والسلسلة السبعون تسلكه، وبعد ماذا؟ بعدما يصدر من العلي الأعلى الأمر بأخذ هذه الحشرة الصغيرة المكروبة المذهولة، فيبتدر لتحقيق أمر الله الملائكة الغلاظ الشداد ومعهم من معهم من المنتدبين للتنفيذ، تدور السلسلة حوله فتقيده، ولو كان هناك مجال لأصبحت السلسلة ملايين الأمتار لتسابق النادبين في سلكه بالسلسلة، لكنما المغلول محدود هكذا، وأمر الله محدد بالسبعين، علَّه مقصود لحده، وعلَّه كناية عن طوله ومده بالكثرة الكثيرة: و«لو أن حلقة من السلسلة التي

طولها سبعون ذراعاً وضعت على الدنيا لذابت الدنيا من حرها»[1] ولماذا هذا العذاب الشديد؟

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾:

كأن كيانه بشرِّه أصبح تأبياً عن الإيمان بالله ﴿كَانَ﴾ مستمراً معانداً دائباً ﴿لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي ترى عظمته في الخلق أجمع، وفي ضمير هذا الصغير! وأقل جزاءً له هذا العذاب الشديد.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾:

فقد قطع حبلاً من الله إذ لم يؤمن به، وحبلاً من الناس إذ لم يحرض على طعام المسكين: لا خير فيه لنفسه ولا لسواه فأصبح صفر اليدين عما يفلح الإنسان يوم الدين، لا إيمان بالله ينجيه، ولا رحمة على عبادة تغنيه، إذ تركهما إلى الأضداد، فأصبح أسيره بما قدم.

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾:

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾[2] وإلا ﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾[3] و﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾[4] ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾[5] ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ إلا ما يحمُّه من عذاب أليم، فهو يستحم في الجحيم، رغم ما كان له يوم الدنيا، فحميمه ينقلب عليه عدواً:

---

(١) نور الثقلين (٥: ٤٠٩) الحديث ٤٤: عن محمد بن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام.

وفي الصافي ص ٥١١ روى نفس الحديث عن القمي عن الصادق عليه السلام.

(٢) سورة النبأ، الآيتان: ٢٥، ٢٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٧٠.

(٤) سورة الحج، الآية: ١٩.

(٥) سورة الصافات، الآية: ٦٧.

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[١] ولو بقي له حميم، فـ ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾[٢]، فالذي كان يحم له ويستحم يوم الدنيا، سوف يبرد عليه يوم الدين، ولأن حمَّه كان على غير هدى ولا تقوى، وإنما على ضلال وطغوى، فيوم تبلى السرائر وتنكشف الضمائر وتستقر الحقائق، في هذا اليوم العصيب تتبدل هنا الحمُّ الخاطئ إلى برودة، كأنهم لا يعرف بعضهم بعضاً، اللهم إلا عداءً وبغضاً!.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾:

وهو من الضريع الذي يضرعه ويعذبه، بدل أن يلذه ويشبعه، والغسلين: غسالة أهل الجحيم من قيح وصديد، وهو يلائم قلبه المقلوب الخاوي من الإيمان بالله ومن الرحمة لعباد الله

﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾:

خطأً معمداً معانداً.



(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

(٢) سورة المعارج، الآية: ١٠.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

اللّاقسم هنا عام يشمل الكائنات كلها، إذ لا تخلو مما تبصرون وما لا تبصرون، منعطفاً إلى حقيقة ناصعة في ذاتها ومعطياتها: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾: فالقرآن بذاته شهادة على مصدره الرسالي الإلهي، دون حاجة إلى براهين منفصلة عنه تدل عليه، فاللاقسم هنا تأديب وزجر للمرتابين أن يفكروا في القرآن نفسه فيستدل كلٌّ بزاويته الخاصة التي تهمه، إذ القرآن معجزة خالدة في كافة جوانبه وزواياه، فليجل جال بصره وليقصر ناظر نظره إلى القرآن نفسه هل يرى فيه شعراً أو كهانة وسحراً، إلا تنزيلاً من رب العالمين، تلمس فيه ربوبيته العالمية.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾﴾:

قول رسول لا يقوله إلا عن مرسله دون أن يتقول عليه الأقاويل، وهو كريم ليس على غيب الوحي بضنين، هو واسع صدره متفتح قلبه، لا يخون

أمانة الوحي كالسماء ذات الرجع لا تخون ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤)﴾[١] إنه أمين كريم ليس كيانه في حياته إلا الرسالة الإلهية وبلاغها.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١)﴾:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾[٢] يبين بذاته أنه ذكر وليس شعراً وخيالاً موزوناً، رغم ما يتقولون عليه دون برهان أنه شاعر: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾[٣] ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾[٤] ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾[٥] هل هو شاعر؟ ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ... إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٦] فقد ينشد الشاعر عن إيمان وصدق، وأحياناً كثيرة عن الخيال واللاإيمان، وهما مشتركان في زخرفة المعنى بموسيقى القول، ما يزيد المعنى لمعاناً لو كان صادقاً، وما يريه حقاً لو كان باطلاً، وحاشى الرسول الكريم أن يزخرف الوحي بما ليس منه! ولماذا؟ فهل ليزيد في نضارة القرآن، وهو فوق القمم في فصاحة التعبير وبلاغة التنسيق!..

ثم لا نجد أياً من أوزان الشعر وأوهامه وأساطيره في هذا الذكر المبين، فكيف يتقول على قائله: إنه شاعر، أو عليه: إنه شعر، أهكذا كذب واضح وفرية فاضحة؟.

إن هذا القرآن ليس شعراً ولا نثراً نتعوده، إنما هو بدع في التعبير،

---

(١) سورة الطارق، الآيات: ١١-١٤.
(٢) سورة يس، الآية: ٦٩.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٥.
(٤) سورة الصافات، الآية: ٣٦.
(٥) سورة الطور، الآية: ٣٠.
(٦) سورة الشعراء، الآيات: ٢٢٤-٢٢٧.

عديم النظير، لم يصدر ولن يصدر من أي مصدر إلا الله، ولأنه خاتمة الوحي، فريد في موسيقاه، فريد في معناه، يوحي من كل زواياه، إنه ليس بقول بشر، ولا أي مصدر غير الوحي، منهج منقطع النظير، تفرد به اللطيف الخبير، وبين كتابات الوحي أيضاً، فضلاً عما سواها ممن سواه!.

إن المذاهب الأدبية أجمع، والمذاهب الفكرية أجمع، والمقاييس الموسيقية أجمع، إنها كلها ومعها كافة المذاهب طوال التاريخ، هي فاشلة أمام المذاهب التي سلكها القرآن، منهزمة في صراعها العنيد الشديد، يعرف بذلك أهلوها شاؤوا أم أبوا، وإنما يلقون دعايات يلغون فيها ويزخرفونها، علّهم يضلوا جهالاً كأمثالهم، ولكنما العلماء العقلاء لا يضلون.

فليست القولة الجاهلة: إنه قول شاعر، إلا نتيجة عدم الإيمان، لا أن لهم برهاناً على ما يتقولون ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾!

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ ﴿٤٢﴾﴾:

يؤخذ عن الجن والشياطين

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾:

فلو كان قول كاهن لم يرد فيه شتم الشياطين الذين يؤخذ منهم في الكهانة، ثم أناقة القول وعمق المعنى يحيده من أن يكون من غير الله، بل قليلاً ما تذكرون حقائق تعرفونها من أصولها.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾:

تنادي بهذه الحقيقة الناصعة آياته البينات فربوبيته العالمية باهرة فيها، ظاهرة لمن يتدبرها ويتذكرها وأراد الإيمان.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾: الأكاذيب... ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ...﴾.

لا هو فحسب، بل هذه السنَّة الإلهية ثابتة في رسله: أن لو تقولوا

لفضحهم وأخزاهم - ولن يتقولوا - يخزي المتقول لكي لا يخزي الوحي والرسالة الإلهية ويضل الناس فتكون حجة لهم على الله، كما لو لم يبعث رسولاً بل وأقوى: فالعقل هنا يستقل بما يوحيه النقل من ضرورة الأخذ بيمين القدرة الإلهية. من يتخلف من الرسل عن الرسالة الإلهية.

بشارة توراتية بحق الرسالة المحمدية:

تصرح التوراة - فيما تصرح - من عشرات البشارات بحق الرسول الأقدس محمد ﷺ هنا بوجه عام - بعد تخصيصه بالذكر - أن المتقول على الله يؤخذ بأخذة قوية إلهية تفضحه كما في الأصل العبراني التالي:

«نابِيء آقِيم لاهِمْ مِقِرِبْ إحِيْحِمْ كِمُوشِهْ وِنَاتَتِّي دِبارِي بِفِيُو وِيدِبرْ إِلُوهِيْم إتْ كالْ أشِرُ أصونُو»(١٧):

نبيٌ أقيم لهم: (بني إسرائيل) من أقرباء أخيهم، كموسى وأضع كلامي في فمه لكي يبلغهم جميع ما آمره به (١٧).

«وِهَاياه هـَا إيش إشِر لوء ييشْمَع إلْ دَباري إل أشِرْ يِدَبِرْ بِشْمي آنوحي إدُرْ وشْ معي مو»(١٩):

وأي إنسان لم يطع كلامي الذي يتكلم به باسمي فإني أحاسبه عليه (١٩).

«أخ هنابيء أشِر ياذِيد لِدَبِرْ دابار بش مِي إت أشِر لُوء صوييبو لِدَبِر وأشِر يِدَبِر بِشمِ إلوهيم اجريم ووميت هنابيء هَهَيُو» (٢٠).

وأي نبي تجبر فقال باسمي قولاً لم آمره أن يقوله أو تنبأ باسم آلهة أخرى فليمت (٢٠).

وِخي تومر بيل بابخا إخاه ندع إت هدابار أشر لوء ديبرو ادوناي أشر يدبر هنابيء بشم ادوناي ولؤيهيه هدابار ولوء يابوء هوء هدابار أشِر لوء ديبرؤ ادوناي بدادون ديبرو هنابئ لوء تاغُور ميمِنو (٢١ - ٢٢):

فإن قلت في نفسك كيف يعرف القول الذي لم يقله الرب (٢١) فإن تكلم النبي باسم الرب ولم يتم كلامه ولم يقع فذاك الكلام لم يتكلم به الرب بل لتجبره تكلم به النبي فلا تخافوه (٢٢).

هذه الآيات البينات تبشر أن الله تعالى وعد العالم أن يقيم نبياً كموسى من أقرباء إخوة بني إسرائيل، فإخوتهم بنو عيص كما تقول التوراة (تثنية ٢٨: ٨) فأقرباؤهم هم بنو إسماعيل. فهو الرسول الأقدس محمد الإسماعيلي الذي هو كموسى في استقلال شرعته، لا المسيح الذي هو تبع لموسى في شرعته.

ثم تتهدد الآية (١٩) هؤلاء الذين يتخلفون عن هذا الرسول العظيم، ثم تعزيزاً وتثبيتاً لموقفه الرسالي - ومعه سائر المرسلين - يحكم بالموت: الموت الروحاني وموت الدعوة، على المتجبرين المتقولين على الله الأقاويل (٢٠). ثم الآية (٢٢) تأتي بميزان لصدق مدعي النبوة أنه وقوع كلامه كما يخبر[١].

والقرآن يصدق هذه الآيات أن:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾:

أخذنا منه الرسالة والوحي واسترجعناه منه بيمين القدرة

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

قطعاً لوتين الوحي حيث لا رجعة فيه، وقطعاً لوتين العقل إذ يقول ما يفضحه مما يطارده العقل، موتاً مزدوجاً يفضحه أمام العقلاء النابهين، فليس يعني به وتين الجسم، وهو عرق رئيسي في القلب يمد شبكة العروق في الجسم، وإنما وتين قلب الروح الممدود به شبكات الروح.

كما الموت المهدد به حسب التوراة ليس موت الجسم فإنه لا يخص الكاذبين، وكثير منهم يعيشون حياة الكذب طويلاً، وإنما هو موت الروح

---

(١) تجد تفصيل البحث حول الآيات في كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية).

الرسالية بأن يتبين كذبه في فلتات لسانه وصفحات وجهه وسقطات تصرفاته، وفي تناقض أقواله وتهافت أحواله ودحض حججه في محكمة العقل والفطرة.

فكما أن يمين القدرة الإلهية هي التي وفقته للرسالة وعصمته عن الضلالة، كذلك هي التي تسترجعها لو تخلفت عن جهات أشراعها! ولكن حرف: (لَوْ) تحيل على الرسول الأقدس ﷺ تقوُّل الأقاويل، كما العقل يحيله إحالة مزدوجاً: أن الله اصطفاه وهو يعلم مستقبله كما علم ماضيه، وأنه يعصمه عصمة لأمانة الوحي وكرامة الرسالة، وما استرجاع المناصب إلا نتيجة جهل الناصب وضعفه ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

لا يحجزه أحد عما يريد، وهو الحاجز عما نريد.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

الذين يتقون الجهل والتجاهل والعناد، فهم المتذكرون بهذه الذكرى، وأما الذين كفروا معاندين فهي عليهم عمى!. وهم في ضلالهم يعمهون.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

لهذه الرسالة السامية.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾:

إن تكذيبها حسرة عليهم يوم الدنيا ويوم الدين، لأنها تملك من براهين الصدق ما لا يملكه سواها:

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾:

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.

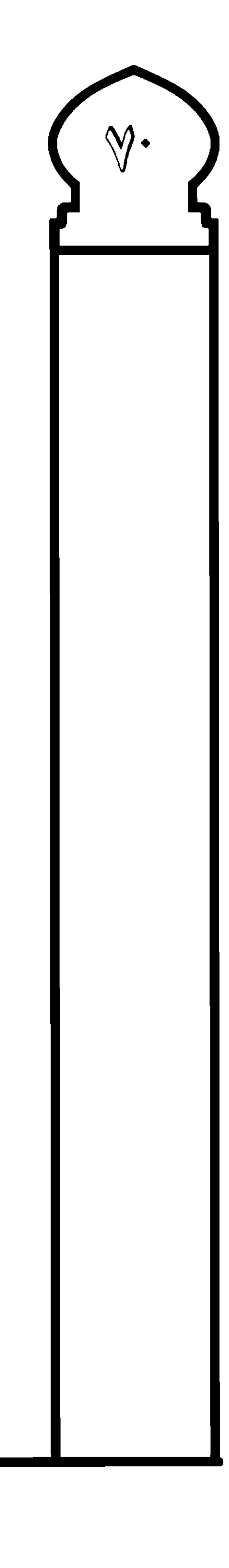
إن القرآن ونبي القرآن، إنه لحق اليقين، لا علم اليقين فحسب أو عين اليقين، فحق الوحي القرآني حق اليقين، ذاته اليقين: لا ريب فيه هدى للمتقين، فبإمكان من يعيش قلبه القرآن، ويسري في وتين قلبه روح الإيمان وفي نياطه القرآن، فيعيش القرآن قلبه، بإمكانه أن يعرج إلى أعلى معارج اليقين: حق اليقين، فعلم القرآن كما يحق هو علم اليقين، وعينه عين اليقين، وحقه حق اليقين! عميق في الحق وعميق في اليقين كأعمق ما يمكن.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾:

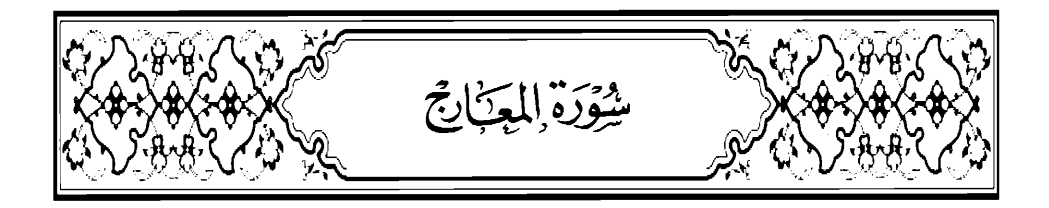
سبحه باسمه الحق عما لا يليق به فـ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[1] بوسبح كتابه باسمه عن أن يكون شعراً أو كهانة أو أي تقوُّل، فربوبيته العظيمة لائحة في طياته، بارزة في آياته، والسلام على من اتبع الهدى، وجانب الردى.



(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.



سُورَةُ المعارج



مكية - وآياتها أربع وأربعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾:

فمن هذا السائل؟ ولماذا سأل العذاب؟ وهل نزل عليه ما سأل؟

تقول كثير من روايات الفريقين إن السائل هو النضر بن الحارث الفهري[1]: «أنه لما شاع قصة الغدير في البلاد أتى ابن الفهري رسول

(١) الدر المنثور (٣: ١٨١): أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، وابن جرير =

الله ﷺ فقال: يا محمد! أمرتنا عن الله بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ وبالصلاة والصوم والحج والزكاة فقبلنا منك، ثم لم ترض بذلك حتى رفعت بضبع ابن عمك ففضلته علينا وقلت: «من كنت مولاه فعلي مولاه» فهذا شيء منك أم من الله؟ فقال رسول الله ﷺ والذي لا إله إلا هو أن هذا من الله، فولى ابن الفهري يريد راحلته وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فما وصل إلى راحلته حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره فقتله. وحينئذٍ نزلت الآية ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ (وفي شرح الأخبار) نزلت: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾[(١)].

أقول: مكية السورتين قد تنافي الروايتين اللهم إلا أن تكونا نازلتين بعد الغدير مسجلتين في سورتيهما النازلتين قبل الغدير وكم له من نظير!.

والقرآن يذكر السائل هنا والسائلين: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾[(٢)] ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[(٣)] ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾[(٤)].

وقد يكون السائل في المعارج غير السائلين في سواها كياناً وسبباً، وقد يكون منهم، ولكنه عجل قِطَّه: نصيبه بسؤاله، قبل يوم الحساب، والباقون

= عن عطاء، وفي: (٦: ٢٦٣) أخرج الفريابي وعبد بن حميد والنسائي وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس وابن المنذر عن زيد بن أسلم وابن جريح، وابن أبي حاتم عن السدي، وفي بعض الروايات أنه الحارث بن علقمة، وفي بعض: نعمان بن الحارث.

(١) ذكره أبو عبيد والثعلبي والنقاش وسفيان بن عيينة والرازي والقزويني والنيسابوري من إخواننا، في تفاسيرهم، وأصحابنا كذلك أجمع.

(٢) سورة الأنفال، الآيتان: ٣٢، ٣٣.

(٣) سورة ص، الآية: ١٦.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ٢٠٤.

أجلوا ليوم الحساب، علّه لكون الرسول أماناً ما دام فيهم أو يستغفرون، أو لأنهم استغفروا، وإنما أصيب واحد منهم ذكرى لهم لعلهم يحذرون.

وعلى السؤال لم يكن ليختص بهامة الغدير، فقبلها هامات أتم وأعم، كالأصول الإسلامية التي كانوا ينكرونها، إذاً فالروايات المفسرة لها بقصة الغدير هي من باب الجري والتطبيق، أو أنها من ضمن ما سألوا له العذاب، كما تظافرت به الروايات.

ثم السائل هنا - الذي أبهم عن أسمه - إنما سأل العذاب الواقع تحدياً على الحق وعلى وقوع العذاب، توهيناً للرسالة والمرسل، فلقد كانت الحقائق الإسلامية عسيرة الإدراك والتصديق على من عاشوا الخرافات والأساطير والهرطقات، وقد لقيت منهم معارضة نفسية عميقة، فكانوا يتسمعونها بكل دهشة واستغراب، وينكرونها أشد الإنكار، متحدِّين الرسول بألوان التحديات ولو تعرضوا للخطر، كهذا السائل الغبي!:

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾: أنه سأل ما لم يكن بحاجة إلى سؤال لأنه واقع للكافرين والسائل منهم.

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢﴾: واقع للكافرين ليس له دافع من الله، للكافرين فقط ليس له دافع، وأما غيرهم فلهم دوافع عنه من توبة وغفران وشفاعة وأضرابها من دوافع العذاب.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣﴾:

سأل من الله، بعذاب من الله، ليس له دافع من الله ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ الذي له معارج الرحمة ومعارج العذاب، يعرج خلقه في أيّ منهما يوم الدنيا ويوم الدين، ولكنما الأغبر الغبي يسأل العذاب، لأنه في تباب، وذاته تباب، وكيانه عذاب.

وإن حق المعارج لله هو معارج الرحمة ومعارج الحساب:

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾:

فما هذا اليوم؟ هل هو يوم القيامة؟ فلا نهاية له! أم هو يوم من أيامها؟ فما هي تلكم الأيام؟ أم من أيام الدنيا، فهذا خرق لنظام الكون! ولا تعرج الملائكة والروح عن مناصبهم إلى الله والدنيا قائمة، وإنما ذلك ليوم الدين إذ تقطعت الأسباب وقضي الأمر ورجعت الكائنات كلها إلى الله كما بدأت.

إن اليوم حسب القرآن - وفي وجهة عامة - يعني منه مطلق الزمان، من واحد الزمان كما نعرف وفوق ما نعرف، ومن مجموعة الزمان، وبينهما متوسطات.

فمن واحد الزمان إلهيّاً ما فيه شأن الخلق من الله العلي القدير: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[1] يعنى كل آن ليس فوقه آن، فإن الشأن الإلهي لا يخلو منه أقل آن، فلا بد أن يعنى هنا بالآن أقل الآنات في حساب الله.

ومنه اليوم النهار مقابل الليل: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾[2] ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[3].

ومنه اليوم: بليله ونهاره: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾[4].

ومنه يوم خلق السماوات والأرض: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾[5] وهو مجموعة زمان خلقهما، وقد عدت في آيات ستة أيام: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[6].

منها يومان لخلق الأرض، ويومان للسماوات السبع، ويومان علّهما:

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الحاقة، الآية: ٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.
(٤) سورة هود، الآية: ٦٥.
(٥) سورة التوبة، الآية: ٣٦.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

لخلق الدخان السماوي وخلق الأنجم في السماء الدنيا، أم ماذا؟ سوف نوافي بحثه في الآيات من فصلت وإن المعني من اليوم هنا الدور.

ومن اليوم ألف سنة مما تعدون: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[1] ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[2].

ومنه خمسون ألف سنة مما تعدون، ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ لنرى ما هو واحد الزمان الربوبي وما هو الألف والخمسون ألف؟

أقول: إنه ليس اليوم الألف ولا اليوم الخمسين ألف هو الزمان المنطبق على الحدَّين، وإلا كان حق التعبير «في ألف سنة» و«في خمسين ألف سنة» واليوم زائد، ولكان ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ زائداً، لأن الزمن «اليوم»: الألف والخمسين ألف لا يخصه.

إذاً فليكن المعني من اليوم واحد الزمان بحساب سرعة السير الملائكي في آية المعارج، وسرعة نفاذ التدبير الإلهي نازلاً من السماء وراجعاً إليها في آيتي الحج والسجدة، وعلى سير المعراج للنبي الأقدس هو كسير المعارج وعلى حد قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إنه أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى مسيرة شهر، وعرج به في ملكوت السماوات مسيرة خمسين ألف عام في أقل من ثلث ليلة حتى انتهى إلى ساق العرش»[3] وهذه المسيرة هي في واحد الزمان، لا في ثلث الليل.

فهل أن واحد الزمان في سير المعارج ثانية في حسابنا المألوف؟ أم

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٥.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٧.

(٣) نور الثقلين ٥: ٤١٣ في كتاب الاحتجاج للطبرسي روى عن موسى بن جعفر عن آبائه عن الحسين عليه السلام أن أمير المؤمنين قال - وقد ذكر النبي صلى الله عليه وآله -:

٥٠،٠٠٠/١ منها في حساب أدق وهو الزمن الإلكتروني[١] ٥٠،٠٠٠ ضعف الزمن الأرضي؟ أم أقل منها في دقة ثانية: أن نحسب كل دورة إلكترونية سنة ثم نقسمها بحساب الثواني[٢]، أم وأقل منها أيضاً لأن الزمن في حساب الله يختلف عما عندنا.

ثم الخمسين ألف هل هو حساب السنين الضوئية؟ التي هي - على أقل التقدير - ١٨٠ مليون ضعفاً بقياس السير العادي؟ أم فوق الضوئية وعلى حساب أكثر السرعة في سيرنا المتصور المقدر؟.

ثم المسافة إلى العرش، إلى السدرة المنتهى، ليست مسيرة يوم هكذا، إنما هذا قياس السرعة الملائكي وفي معراج الرسول ﷺ في واحد الزمن الربوبي، والرسول اجتازها في أقل من ثلث الليل - أربع ساعات - وهل تعرجها الملائكة والروح في نفس الوقت أم أكثر؟ لا ندري!

وحسب الحساب الدقيق الذي نعرفه حتى الآن تصبح المسافة المجتازة في المعارج، في واحد الزمن الربوبي - كالتالي:

٥٠،٠٠٠ - الثانية الإلكترونية × ٤٣٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ بتحويل الثانية الإلكترونية بحساب ٥٠،٠٠٠/١ منها: سنة، إلى ٥٠،٠٠٠ ضعفاً ثم بحساب سرعة الضوء تضرب في ٣٠٠،٠٠٠ والنتيجة:

٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٨٠٠،٦٤ هذا المقدار هو السير المعارجي في واحد الزمان الربوبي كما نعرفه، ولكنه بحساب الله أكثر بكثير، لأن واحد الزمان هو واحد الحركة في المادة الأولية وليست هي الإلكترون حتى نحسبه بحسابه، ثم إنه في ثلث الليل: أربع ساعات يصبح

---

(١) لأن الإلكترون يدور حول شمسه البروتوني في الذرة ٠٠٠، ٥٠ مرة في الثانية الأرضية.

(٢) إذ إن كل دورة إلكترونية وهي ٠٠٠، ٥٠ ثانية أرضية، تعتبر سنة إلكترونية، إذا نقتسم هذه السنة كذلك إلى الثواني، فكل ثانية منها نعتبرها واحد الزمن الربوبي في سير المعارج.

العدد المسبق مضروباً في/ ٨٦٤٠٠، فالسير المعراجي أيضاً يصبح: / ٥،٥٧٨،٧٢٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠ ضعفاً بالنسبة لسيرنا في ٥٠،٠٠٠ سنة: ، والحاصل أن اليوم المعراجي والمعارجي هو واحد الزمان الذي هو من مظاهر واحد الحركة، وإذا كان سير الرسول ﷺ في معراجه في واحد الزمان قدر خمسين ألف سنة مما نعده، ولا سيما إذا عددناه حسب السنين الضوئية حينئذٍ يفلت حسابه عن عدّنا وتصورنا[1].

وأما أن هذه السرعة الهائلة تخلق حرارة هائلة تذوب وتتحول فيها العناصر إلى أبسطها، ثم إلى كم؟ لا ندري، فكيف عرج الرسول هكذا سليماً ورجع سليماً؟ فالجواب. إن المعراج خارقة إلهية خرق فيها الكثير من القوانين الطبيعية العادية، كما النار أصبحت برداً وسلاماً، فلتكن معجزة عدم تحول الجسد المحمدي إلى غيره، كمعجزة أصل المعراج إلى الأفق الأعلى قلباً وقالباً، وتكملة البحث تجدها في النجم والإسراء إن شاء الله تعالى.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[2]: إلى عرشه، وإلى قمة الكون وكاهله، لا إلى ذاته المقدسة، فليس له تعالى مكان! وإنما إلى حول العرش كما شرحناه مسبقاً في الحاقة، ولأنهم قضوا ما كان عليهم يوم الدنيا، ومضوا فيما أمروا وقضي الأمر فإلى الله ترجع الأمور، وليقض بينهم الحق: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

---

(١) من قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ﴾، نستوحي أن هذا السير إنما هو بحساب سرعة العروج لا زمنه، في ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ﴾ أي مقدار السير في سرعته لا في زمنه.

(٢) إن اختلاف حساب الزمن لا يختص بالزمن الربوبي والخلقي، فإن العلم اليوم أثبت الاختلاف بين زمن الأرض وسائر العوالم السماوية، والكتاب والسنّة أثبتا اختلاف زمن الدنيا عن البرزخ وهو عن المحشر.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٧٥.

الملائكة والروح - وهو أعظم منهم وليس منهم بقرينة قرنه بهم[(١)] - إنهم يعرجون هكذا للعرض والحساب، وكما المكلفون أجمع يعرضون على الله، سواء.

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾:

الصبر: منه عليل كليل ومنه عظيم جميل جليل، فالجميل منه ممدوح والعليل مقدوح، والجميل ما يجمل صاحبه وسواه، بتحمل المكاره والأذيات في سبيل الله لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً، كما حدث أمر الله الجليل لهكذا صبر جميل لأهله الصالحين. فهو من عزم الأمور: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[(٢)] ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾[(٣)]، صبر ابتغاء وجه الله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ... أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾[(٤)] ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[(٥)] ومن هؤلاء الأئمة الدعاة إلى الله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾[(٦)] فمجال الصبر هو أن يكون ابتغاء وجه الله واتكالاً على الله، ورضى برضى الله، وانتظاراً لحكم الله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾[(٧)]: وكما صبر يعقوب عليه السلام إذ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[(٨)] ولكن الرسول الأقدس عليه أن يجمع في سبيل تنفيذ هذه الرسالة الخالدة، يجمع صبر أولي العزم وهممهم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[(٩)].

---

(١) راجع سورة القدر في ج ٣٠.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٣.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٦.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٢٢.
(٥) سورة النحل، الآية: ٤٢.
(٦) سورة السجدة، الآية: ٢٤.
(٧) سورة يونس، الآية: ١٠٩.
(٨) سورة يوسف، الآية: ١٨.
(٩) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾:

فهم يرون العذاب الواقع يوم الحساب، ويرون الحساب: بعيداً عن العقل والواقع، ونراه قريباً حسب العقل والواقع بحكم العدل، وكل آت قريب! ثم علمه قريب حلوله أيضاً: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[1] وكيف لا وقد جاء أشراطها؟! ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾[2] فبيننا وبين الساعة أقرب مما بيننا وبين بداية الخلقة لو أنها القيامة الأولى، أو من بداية خلقنا أو خلق كوننا الحاضر، لو أنها غير الأولى، فقد مضى - على أية حال - أكثر الزمن ويقي أقله، وكفاه قرباً للساعة، فلئن يشك الرسول الأقدس في قربها فهو بحساب آخر: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾[3]: قرباً أو بعداً بالنسبة لزمن نزول القرآن، لا قياساً إلى ما قبله، وعلى هذا القياس: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[4].

فهنا للساعة قرب مؤكد بحساب العقل والعدل، ومؤكد بحساب الواقع قياساً إلى ما مضى، ومجهول لأنه في علم الغيب قياساً إلى ما يأتي: أبعد سنة أو آلاف أو ملايين؟ لا ندري.

وإذا كانت الساعة قريبة فهي تسلي النبي في صبره الجميل على الأذى، إذ يرى من هنا كيف يجب على مناوئيه أن يصبروا على اللظى ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧﴾[5].

فأمره بالصبر، وقرنه بقرب الساعة، هما تثبيت لقلبه المنير على ما يلقى

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٣.
(٢) سورة محمد، الآية: ١٨.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٩.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١٧.
(٥) سورة المعارج، الآيتان: ١٦، ١٧.

من عنت المناوآت، فهو ضروري لثقل العبء ووعثاء السفر وبعد الطريق وغور النضال، حفظاً لهذه النفوس النفيسة وجعلها متماسكة راضية، متمسكة بحبل من الله، موصولة بالهدف البعيد، متطلعة إلى أبعد الآفاق.

ومن مشاهد هذا اليوم الرهيب العصيب في أغوار النفس ومجالي الكون أنه:

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾:

هذه الحرب المعلنة الشعواء تجعل من السماء مهلاً ومن الجبال عنهاً، ما يبرهن على انهزام تام للكون أجمع! تحت رحمة الواقعة القارعة والطامة الكبرى، ويومئذٍ يتذكر الإنسان ما سعى.

والمهل هو دردي الزيت المغلي وهو ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾(١): ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾(٢) وهو المهل بعينه، وعلَّ منه عَكْر القطران والفضة المذابة، فالمهل - أياً كان - لا يمهل ولا يهمل وإنما يغلى ويغلي، وهذه من الحالات المستقبلة للسماء ذات الرجع، وعلّه إلى حالتها الأولى الدخانية.

ومن المهل المعادن المذابة، فهل الأجرام السماوية مؤلفة من معادن منصهرة إلى الدرجة الغازية الدخانية، وعلى حد تعبير علماء الطبيعة والفلك؟ فترجع إلى نفس الحالة في رجعها، أم إن السماء كلها مخلوقة من غازات أولية، مهما انقلبت إلى معادن وسواها من السماويات، كما القرآن يقول، فتنقلب إلى ما كانت وفي أوساط الطريق إلى المهل؟: دردي الزيت؟ فهذا أتم وأعم، ولم ينظر العلم إلا إلى زاوية منه محدودة.

والعهن هو الصوف المصبوغ وعله هنا صبغتان: صبغة أولى هي من

---

(١) سورة الدخان، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٣٧.

الجبال أنفسها فإنها ألوان: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾(١) وثانية هي من أثر الدكة الواقعة التي تحمرٌ منها عين السماء وكلها عين! ثم هذا العهن ينفش: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾(٢).

فيوم السماء والمهل والجبال العهن، سوف يصبح الإنسان عهناً ومهلاً، سواء.

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾:

سواء كان له حميم كالأخلاء المؤمنين، أو لم يكن: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾(٣) كغير المتقين - فـ ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٤) فلقد زال التساؤل بين الأحمة وسواهم، فـ ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾(٥) فكيف يسأل حميم حميماً ولماذا؟ والسائل والمسؤول كلٌّ في شأنه الشائن أم سواه! وسواء أكانت حمَّة القرابة أو الصداقة أم أياً كان، أجل! ولأنهم كلهم في همٍّ شاغل، فلقد قطع الهول المروّع جميع الوشائج وتعطلت الأسباب ورجعت الأمور إلى الله لا تتعداه إلى سواه ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾(٦).

فلا هناك تساؤل استخبار عن أحوال، ولا شفاعة ولا أياً كان من أي ولأي صالحاً أم طالحاً إلا مَن أذن الله أن يَشفع أو يشفَّع له دون سؤال.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾:

يعرِّفونهم فيعرفونهم تماماً، فعدم التساؤل من عدم المعرفة لوقعة الطامة، ولكنهم يعرفونهم بعدما جهلوهم، ولكنما المتقون سوف يتساءلون وأما المجرمون:

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٧.
(٢) سورة القارعة، الآية: ٥.
(٣) سورة الحاقة، الآية: ٣٥.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.
(٥) سورة عبس، الآية: ٣٧.
(٦) سورة الدخان، الآية: ٤١.

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾:

فهذه المعرفة في يومهم العصيب لا تغنيهم إلا أملاً ليس بواقع، يأمل الكل على تحسر: لو يفتدي ويستبدل من عذاب يومئذٍ بمن يملك أمره ومن لا يملكه، لو يفتدي بأعز الناس عليه، ممن كان يفتديهم بنفسه يوم الدنيا، فهو يبتدئ في زعم الافتداء من بنيه إلى صاحبته وأخيه، وهم الأحِمَّة الأقارب، ثم إلى فصيلته: أمه التي فصل عنها وفصلت هي عنه وهي مع ذلك تؤويه، ثم إلى جماعة فصيلة عنه تؤويه عن مهالكه، مما يجعلهم كالأحمة، ثم يبلغ به هذا الأمل المحال إلى الافتداء بغير الأحمة والفصائل وإلى من في الأرض جميعاً لكي ينجيه، فلهفته على النجاة في هوله الحائل بينه وبين عقله، إنها تفقده الشعور، صورة للهفة الطاغية والفزع المذهل تجننه وتخبطه لهذا الحد: أن لو يفتدي بمن في الأرض جميعاً، مما يصور لنا ثقل العذاب الهائل الذي يفقد الشعور عن أهله أو يضطرهم إلى هذه الآمال المجنونة الفوضى!.

كلا! ليس هنا دافع من عذابه ولا فدية مالية: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾[1] ولا فدية نفسية ولا ما في الأرض جميعاً من نفس ونفيس: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾[2] ولو كان لهم ما تقبل منهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3] وليست الفدية المنفية تختص بالذين

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩١.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١٨.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٦.

كفروا: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(١)، ولأن الفدية من الرشوة وليس في حكم الله رشوة، وأنها ظلم بحق المفتدى به، وسماح عمن يستحق العذاب وكلاهما خارجان عن نجد الصواب.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ (١٨)﴾:

﴿كَلَّآ﴾! ليست جهنم مما تقبل الفدية، فـ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾: لهب خالص يتوقد ويلهب عن كفر خالص، من وقودها الكفار الذين يصلونها موقدين ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ تقتلع بشدة واعتماد، للشوى: جلدة الرأس والكوارع والأطراف ما عدا المقتل لكي لا يُقتل، فهي تنزع ما شوته وأحرقته ثم ترجع هي جلوداً غيرها، فهي هي وهي غيرها باختلاف الصورة والمادة: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾(٢).

ولأنها لظى: لهب خالص متوقد من أنفسهم الجهنمية، لذلك ليست لتقبل بدلاً وفدية، وإنما تدعو وقودها لا سواه، فهل يا ترى أن النار تدعو وقود غيرها؟ كذلكم هؤلاء الذين هم حطب جهنم ووقودها لا تدعو نارها إلا إياهم ولا ترضى بسواهم، اصطحاب العلة والمعلول!.

﴿تَدْعُوا﴾: تجذب إلى نفسها دون رادع ﴿مَنْ أَدْبَرَ عن الحق وَتَوَلَّىٰ﴾ دعوة لإيقادها وصليها: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦)﴾(٣) ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ جمع المال للإيعاء دون فائدة شخصية ولا جماعية، ودون تفهُّم ووعي لعوائدها، وإنما إيعاء للأموال كأنها هي الغاية، تبديلاً للوسيلة إلى الغاية، ثم تجميداً للغاية، وتوقيفاً لرحى الاقتصاد والحركة العمالية والتجارية، فهؤلاء خطر على البشرية مادية ومعنوية، وهم

(١) سورة الحديد، الآية: ١٥.
(٢) سورة النساء، الآية: ٥٦.
(٣) سورة الليل، الآيات: ١٤-١٦.

وقود لنيران الضلالات والفشل والبتل الاقتصادي، فلذلك لا تقبل منهم فدية، وإنما يدعون إلى ما كانوا جزاءً وفاقاً.

فمن الناس من يُقبل إلى الحق بكلا جزأيه: نفسانياً وجسدانياً، ومنهم من يقبل بجزء ويدبر بالآخر، ومنهم من يدبر بجسمه ويتولى بروحه عن الحق وهو ﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فالإدبار عمل الجسم، فكيانه المادي تأخير وتأخر عن الحياة المادية لإيعائه الثروات، والتولي عمل القلب إذ يعرض به عن الحق، فهو بقلبه وقالبه معرض عن الله إلى اللهو، فهو أشر الخليقة، يصلى النار الكبرى وهو وقودها وهي زبانيته!.



﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾:

جزوعاً حريصاً جباناً ضعيفاً لا يصبر: و﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[١] و﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾[٢]: مني يعجل حين صدورها، فيعجل المخلوق من هذا العجل في صدوره وروده، فهل أن كونه هلوعاً صفة ذم؟ وكيف يخلق الله مذموماً ثم يذمه كأنه من خلق الإنسان! وقد ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[٣]؟!.

نقول: إن هلع الإنسان فيه جهتان: خير كما في تكوينه، وشر إذا عامله الإنسان بغير وجهه، فالصالحون يهلعون إلى الصلاح والإصلاح كما

(١) سورة النساء، الآية: ٢٨.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٧.
(٣) سورة السجدة، الآية: ٧.

المصلون حسب الأوصاف المسرودة في هذه الآيات، والطالحون يهلعون ويهرعون إلى الطالحات ويتغافلون عن الحسنات، فالصالح يتبنى الهلع المخلوق هو عليه لصالحه، يتبناه لاستكماله، والطالح يتبناه لشقوته، فلا يرجع الذم إلا إلى كيفية معاملة الإنسان في هلعه، وكما يمدح على حسن عمله في هلعه: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ...﴾!

مبدئياً لا بد للإنسان - في سبيله إلى الاستكمال - أن يكون هلوعاً: حريصاً لنفسه، جزوعاً بمس الشر لكي يفر منه، منوعاً عن الخير لكي يجلبه إليه ويمنع من يمنعه عنه، ولكنما هلع الإنسان هذا لم يخلق إلا لصالحه ولصالح مجتمعه، ديناً ودنيا وعقبى، فليصرفه إلى ما صرفه الله إليه، فليهلع إذا مسه شر في دينه، وليمنع من يمس من كرامته إذا مسه خير، وليهرع مجداً مجاهداً في سبيل الله، ولكي يتلمع في حياته المجيدة المشرفة بلمعان الإيمان.

فالمستثنون المصلون هنا لم يُستثنوا عن أصل الهلع، الذي هو من خلق الله[١] وإنما عن طيش الهلع وفساده وحريته في حيونة الحياة، وفيما إذا قيد بقيود الشرع والعقل، واهتدي بهداية السماء، أصبح هلعه المخلوق لصالحه كاملاً لامعاً.

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾:

هذا بيان الواقع في خلق الإنسان، ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ وهذا تنديد بالهلوع كيف يصرفه ويتصرف فيه لغير وجهه ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ وهذا تبجيل للهلوع على تصرفه الجميل أن يصرفه في سبيل الصلاح والإصلاح.

---

(١) وإلا أصبح الخالق للهلوع غير الخالق لغير الهلوع، أو أن الخالق الواحد خلق البعض هلوعاً مذموماً، والبعض الآخر غير هلوع ممدوحاً، وهذه قسمة في الخلق ظالمة، ومس من كرامة العدالة الإلهية.

فالإنسان بطبعه الأولي، المتحلل عن وحي السماء، الهابط إلى أرض الشهوات، هذا الإنسان يصرف نعم الله في نقمه، ويبدل نعمة الله كفراً، فيحل نفسه في دار البوار فـ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟. . .﴾ ولا يدفع خسره، ولا يبدل عسره إلى يسره إلا التمسك بحبل من الله، والرباط العقائدي والعملي بوحي الله، لا كلمة تقال باللسان، ولا شعائر تعبدية - فقط - تقام، إنما حالة نفس ومنهج حياة تعيش الإنسان ككل ويعيشها الإنسان.

فالإنسان بما خلق هلوعاً، وقبل الاستضاءة بوحي السماء: إن هلعه يرجع به إلى ضلال:

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠﴾:

يتألم للذعته، ويجزع لوقعته، ويحسب أنه دائم لا كاشف له، سرمداً مضروباً عليه، لا يتوقع تغييراً، ولا يرجو من الله تحويراً، ولا لنفسه من أسر الشيطان تحريراً، ومن ثم يأكله الجزع، ويمزقه الهلع، ولا يفكر: علَّه شر أصابه كردة فعل من شره هو، فليمسك شره لكي يأمن بأسه، بدل أن يجزع، أو أنه شر أصابه من الأشرار في سبيله إلى ربه فليصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنه الذين لا يوقنون: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾[1] أو أنه امتحان من الله ليستكمله بما يمسه من الأتعاب، يمتحنه بها دون امتهان، فلماذا يجزع؟ أو أنه شر أصابه من ظالمه وهو قادر على دفعه فليدفعه بما منحه الله من نعمة القوة، فلماذا يجزع؟ أم لا طاقة له به فليصبر وليحتسب عند الله عناءه ويطلب منه جزاءه، فلماذا يجزع؟ وعلى أية حال ليس الجزع إلا من الجهل واللاإيمان وعدم الوثوق بالله، واللاحساب فيما يجزع به.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٠.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾:

يمنعه عن غيره كأنه مِلكه من كدِّ يده، فيحتجنه ويختزنه لنفسه، وكأنه إله نفسه ورازقها، فما يصيبه من خير ليس رزقاً من الله يمتحنه فيه، وإنما من نفسه يحتجنه، وهذه هي الفكرة الخاطئة القارونية المارِدة: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[1]. ولنفرض إنه منك وإليك، فلتكن كريماً بما عندك لا تبخل فيه، لو أنك أنت الذي حصلته بلياقة ولباقة! ولكنه ليس منك ولا لك، وإنما أمانة سمي ملكاً وأنت مستخلف فيها، لا مخولٌ تعمل فيها ما تشاء: فـ ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[2].

فكيف لا تدرك حقيقة الرزق ودورك فيه، ولا تتطلع منه إلى خير عند ربك، خاوياً قلبك من الشعور، تهرع وتهلع إلى نفسك، كأنك أنت فقط ولا مرزوق سواك؟!

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾....:

فهم منقطعون عن شر الهلع إلى خيره، وليس من الاستثناء المنقطع، فإنهم أيضاً ممن خلق هلوعاً، أجل ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ ولكن لا كل المصلين، فكثير منهم يهلعون كمن قبلهم من المذمومين، وإنما المصلين:

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾....:

والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك في جنات مكرمون:

إنما الصلاة تذكر - فيما يذكر هنا من الصفات المنجية - مرتين: أولاً وآخراً، مرة بدوامهم عليها، وأخرى بحفاظهم عليها، رعاية لها مرتين: في

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٨.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٧.

كمها وكيفها، وهذه هي الصلاة التامة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[(١)] وهي التي تدفع لعامة الخيرات، وقد ذكر أهمها مع ما ذكر من ترك الفحشاء، بين البدء والختم من ذكري الصلاة:

من الحفاظ على حق السائل والمحروم، والتصديق بيوم الدين، والإشفاق من عذاب الرب، والحفاظ على الفروج، وللأمانات والعهود، والقيام بالشهادات: أركان سبعة للإيمان تتوسط بين دوام الصلاة والحفاظ عليها، فالسبعة هي الدين، والصلاة هي عمود الدين! عمود في البداية وعمود في النهاية!.

ومن نظائر هذه الآيات ما في سورة المؤمنون[(٢)]: وإليكم تعريفاً بهذه الخصائل الثمان، وعلَّها تفتح علينا أبواب الجنة الثمان:

١ - «الصلوة»: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ دواماً عليها لأوقاتها، لا دواماً فيها فإنه ليس فرضاً ولا بالإمكان الدوام فيها، وإنما عليها، مما يوحي بالسلطة الكاملة لهم لأداء الصلوات المفروضات في أوقاتها.

و﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾: فهم يحافظون على شرائطها وأجزائها، على ظاهرها وباطنها، وعلى سائر الواجبات فيها ولها، فيقيمونها على وجهها، لا يأتونها كسالى وسكارى ولا مثقلين متثاقلين، بل خاشعين ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[(٣)].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٢) ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المومنون: ١-١١] (تفسير الفرقان - ج ٢٩ - م ٩).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

فالصلاة هي صُلات للعبد بربه، وانفصال عن المحدود من هذا الوجود إلى اللامحدود من خالق الوجود، يتجرد فيها مقام الربوبية ومقام العبودية في صورة معينة معنية، والدوام فيها هو الصلة المستمرة التي لا يقطعها كسل ولا فشل ولا بتل، فإنها ليست لعبة توصل أحياناً وتقطع أخرى، وإنما صفة الدوام صورة تمثل دوام العبودية والربوبية وكما في الحديث: «لا تترك الصلاة بحال» ومن الدوام على الصلاة إتمامها إذا شرع فيها وكما يروى عن الرسول ﷺ: «خذوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا» وكان أحب الأعمال إلى رسول الله ﷺ ما دووم عليه وإن قل، وكان إذا صلى دام عليها، قال الله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[1].

٢ - الحق المعلوم:

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾:

هذا الحق ليس هو الزكاة، فإنها لا تختص بالسائل والمحروم، ولا إنها واجبة على كل من سوى السائل والمحروم، والآية تفرض فرض حق معلوم للسائل والمحروم على غيرهما، تعلقت بما له الزكاة أم لا، دفعها أم لا، فهذا من صفات المتقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ...﴾[2] ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[3] وكما يروى عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن الله تعالى فرض للفقراء في أموال الأغنياء فريضة لا يحمدون بأدائها وهي الزكاة، بها حقنوا دماءهم وبها سُمُّوا مسلمين، ولكن الله تعالى فرض في أموال الأغنياء حقوقاً غير الزكاة فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ فالحق المعلوم غير الزكاة، وهو شيء يفرضه الرجل على نفسه في ماله، يجب عليه أن يفرضه

(١) الدر المنثور ٦: ٢٦٦ - أخرج ابن حيان عن أبي سلمة عن عائشة عنه ﷺ:
(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٥.
(٣) سورة الذاريات، الآية: ١٩.

على قدر طاقته وسعة ماله، فيؤدي الذي فرض على نفسه إن شاء في كل يوم وإن شاء في كل جمعة وإن شاء في كل شهر»[١].

و﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ يوحي: إنه لأهليه شاء أم لم يشأ، فليس له أن يصرفه لنفسه أو غير السائل والمحروم، ولا له أن يعتبره فرعاً وفي هامش النفقات، بل هو أصل كغيره من أمواله المصروفة في حاجياته الضرورية، فهما - إذاً - شريكاه في أمواله، عليه أن يدفع الحق المعلوم إليهما دون منٍّ ولا أذى.

وعليه أيضاً أن يدفع الحق المعلوم منذ حصول المال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[٢] فحق المذكورات ثابت يدفع يوم حصادها، سواء أكان زكاتاً كما في النخل وبعض الزرع، أم غير الزكاة كما في غيرهما، وعلى حد ما يفتي الفقهاء، إنه ليس فيها زكاة، فليكن الحق الواجب هنا غير الزكاة، وكما في صحيحة معاوية بن شريح في خصوص الزرع عن الإمام الصادق عليه السلام: «في الزرع حقان حق تؤخذ به وحق تعطيه، أما الذي تؤخذ به فالعشر ونصف العشر، وأما الذي تعطيه فقول الله عز وجل: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ يعني من حصدك الشيء بعد الشيء، الضغث بعد الضغث».

و﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾: يعلمه صاحبُ المال وصاحبُ الحق، فصاحب المال يعلمه كما يقتضيه الضمير الإنساني المؤمن العطوف، يقرر نصفاً أو ثلثاً أو ما نقص أو زاد كما يستطيع، وصاحب الحق يعلمه بما يعلم من صاحب المال أو من نفس المال أو أياً كان.

---

(١) نور الثقلين ٥: ٤١٦ عن الكافي في الصحيح، ومثله مع اختلاف يسير في الألفاظ ما رواه القمي عنه عليه السلام وما في الكافي عن الباقر عليه السلام.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾: للسائل محروماً وغير محروم، لحق السؤال، فهو موضوع الحكم في السائل لا الحرمان، والذي بذل من ماء وجهه أكثر بكثير من الذي يأخذ!

وللمحروم سائلاً كان أم غير سائل، محروم عن المال ومحروم عن السؤال، أو محروم عن لقمة العيش ومع السؤال، كل ذلك لحق الحرمان، أو ومع السؤال، فالسائل المحروم أسبق على أحدهما، والمحروم أسبق على السائل غير المحروم وإن تأخر هنا في الذكر، وعلَّه رعاية للوزن: ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾.

ومن المحروم ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ... يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾[1] فطالما السائل يبرز حاجته بسؤاله، فكيف تبرز حاجة المحروم غير السائل؟ فعلى صاحب المال أن يفتش صارماً دقيقاً رفيقاً علّه يجد محروماً هكذا فينفق عليه بلا منٍّ ولا أذى، فما دام حق المحروم في ماله معلوماً، لا يحق له التأخير عمن هو محروم، طالما السائل هو يفتش عن صاحب المال، وهكذا يجب أن يكون المؤمنون الإخوة يستخبر بعضهم عن بعض، علَّه يجد ذا حاجة مدقعة مفقرة، لا أن يكون هلوعاً، إذا مسه الخير منوعاً، يفر عن مظان الحاجة والسؤال، وإذا حوصر به ينكر أنه ذو مال.

٣ - التصديق بيوم الدين:

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾:

لا تصديقاً عقائدياً لا يظهر في الأعمال، وإنما الذي تصدقه الأحوال والأعمال، تصديق يشفقه من عذاب ربه:

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.

٤ - ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

والإشفاق عناية مختلطة بخوف، إذا عدي بمن كما هنا، فمعنى الخوف فيه أظهر، عكس ما إذا عدي بفي: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ فالخوف مع الرجاء، من عذاب الرب، هو من لوازم التصديق بيوم الدين، ولا يأمن عذاب الله إلا الكافرون:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾:

لا واقعاً ولا شعورياً، لمن له الحساسية المرهفة، والرقابة اليقظة، والشعور بالتقصير في جنب الله، والخوف من تقلب القلب وتفلته.

٥ - **العفاف:**

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾:

حفظ الفروج: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾[1] والحفظ للفروج، كما هنا وفي «المؤمنون» فحفظ الفرج عن أن ينظر إليه أو يلمس أو يفعل به، والحفظ له عن أن يعمل به ما يرغب منه ويترقب له، ومن التوليد وإن كان دون لقاح، كأن يؤخذ من نطفته فتزرق في رحم محرَّم عليه: من المحارم ومن المحرمات، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم.

فمن التعدي ألا يحفظ فرجه ولفرجه عمن وراء الأزواج والإماء، في أي من رغبات الفرج أو ما يترقب منه إطلاقاً، كأن يسمح لزرق نطفته في أرحام غيرهن سواء لذوات البعل العقيمات أم للبنات العذارى أم محارمه، فإن الاستيلاد من أصول ما يرغب من الفروج، دون اختصاص بالوطء واللمس والنظر.

(١) سورة النور، الآية: ٣٠.

وآية التحريم أيضاً تعم دلالة على التحريم: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ. . .﴾[1] إذ إن المحرم منهن ليس ذواتهن، وإنما ما يرغب منهن كنساء لا كأناسيّ، إنما كنساء، من النظر واللمس والوطء والاستيلاد، بأية طريقة حصلت.

لا نجد إطلاقات في الكتاب والسنة تلمح إلى حلية زرق النطفة، فلا سند لتحليله، وهنا إطلاقات تمنع كما هنا وفي آية التحريم، والآيات التي تمنع عما وراء الأزواج وما ملكت الأيمان، والصور المتصورة من زرق النطفة كالتالية:

١ - زرقها في الأزواج بلقاح أو سواه، ولا بأس بالثاني عند الضرورة وإلا فالأحوط تركه، ويلحق بهما الولد إطلاقاً وفي كافة الأحكام.

٢ - زرقها في أرحام المحارم نسبياً أم سببياً وهو حرام قطعاً سواء بلقاح أم سواه، ولا يجوز للغير زرقها في أرحام محارم أصحاب النطفة، إذ منع عن المحارم إطلاقاً، وفي لحوق الولد بصاحب النطفة تردد، والأشبه عدم اللحوق للحصر المستفاد من الحديث «الولد للفراش وللعاهر الحجر» والعهر من الموانع وليس المانع الوحيد، إذ إن الفراش هو الدافع الوحيد للحوق ولا فراش هنا.

٣ - زرقها في أرحام النساء الأغارب، سواء العذارى أم ذوات البعل، وإن كان البعل عقيماً، ولا يلحق الولد هنا بالبعل قطعاً وفي لحوقه بصاحب النطفة تردد أشبهه العدم لما تقدم، إلا عند الشبهة فيلحق.

كل ذلك لإطلاق المنع عما وراء الأزواج، الشامل للاستيلاد، بل هو أهم ما يرغب من النساء كنساء، ويجوز كل شيء بالنسبة لهن كبشر لا

(١) سورة النساء، الآية: ٢٣.

كنساء، فالممنوع معاشرتهن أو الاستفادة منهن فيما يرغب منهن كنساء وأهمه الاستيلاد.

ومن المؤيدات هنا ما عن الصادق عليه السلام قال: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجلاً أقر نطفته في رحم يحرم عليه»(١) والإقرار يعم اللقاح المنفصل وهو الزرق، والمحرم هو القرار الحرام سواءٌ أكان بفعل صاحب النطفة أم سواه.

وعن الرسول الأقدس صلى الله عليه وآله قوله: «لن يعمل ابن آدم عملاً أعظم عند الله عز وجل من رجل قتل نبياً أو إماماً أو هدم الكعبة التي جعلها الله قبلة لعباده أو أفرغ ماءه في امرأة حراماً»(٢).

أقول: وهذا يعد من اغتصاب الفرج: «وقد سئل أبو جعفر الباقر عليه السلام عن رجل اغتصب امرأة فرجها، قال: يقتل محصناً كان أو غير محصن»(٣).

ثم الأزواج تعم الدائمات والمنقطعات وملك اليمين عيناً أو منفعة، كالأمة الموهوب وطئها مع شروطها.

وهكذا يريد الله للجماعة المسلمة أن تكون عفيفة، تلبي دوافع الجنس

---

(١) وسائل الشيعة ج ٧ ص ٢٣٩ ب ٤ محمد بن يعقوب عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن عثمان بن عيسى عن علي بن سالم عنه عليه السلام ورواه الصدوق في عقاب الأعمال عن علي بن أحمد بن عبد الله عن أبيه عن جده أحمد بن أبي عبد الله عن أبيه عن عثمان بن عيسى، ورواه البرقي في المحاسن مثله.

(٢) المصدر محمد بن علي بن الحسين عنه صلى الله عليه وآله ورواه في الخصال عن محمد بن الحسن عن سعد عن القاسم بن محمد عن سليمان بن داود عن غير واحد من أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله.

(٣) المصدر ب ٨ ج ١ محمد بن يعقوب عن علي بن إبراهيم عن أبيه وعن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد جميعاً عن ابن محبوب عن أبي أيوب عن بريد العجلي قال: سئل أبو جعفر عليه السلام ... أقول: والاغتصاب يوحي بأن المرأة كانت ذات بعل، فالمغتصب يقتل محصناً أم غير محصن.

دون فوضى ترفع الحياء، قائمة على أساس الأسرة الشرعية، فيها يعرف كل ولد والديه يغلق كافة أبواب الفجور والاتصالات الجنسية الفوضى، في حين يفتح أبواب الزواج وملك اليمين على حدودهما الشرعية.

٦ و٧ - الأمانة والعهد:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢)﴾:

أماناتهم الإلهية كالعقل والتكليف لكافة العقلاء، وعلوم الشريعة لحملة الرسالات والأمانات البشرية كالأموال المؤتمنة والأعراض المعروضة كأمانات.

وعهدهم: الذي عاهد إليهم الله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾[١] والذين يعاهدون الله، وما يعاهدون عليه الناس وإن كانوا كافرين، إلا إذا أخلفوا فلهم أيضاً أن يُخلفوا ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾[٢] ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾[٣] فالمبدأ الأصيل في العهد أن يوفى به إلا أن يخلف المعهود له فيخلف عليه جزاءً وفاقاً.

إن رعاية الأمانات والعهود تبدأ من رعاية الأمانة الكبرى التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً، فهنا وفي آيات عدة يأمر الله الإنسان الهلوع أن لا يحمل الأمانة خائناً فيها، بل يؤديها ويراعيها.

٨ - القيام بالشهادات:

﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣)﴾:

قياماً بالشهادات الإلهية لحملة الرسالات، التي هي شهادات إلهية،

(١) سورة يٓس، الآية: ٦٠.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥٨.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٧.

وقياماً بالشهادات البشرية تلقياً وإلقاء لها، أن يتلقوا الشهادات لكي يلقوها إذا ما دعوا، ولا يقعدوا ويسكتوا عنها ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾(١).

فحدود الله تقام بالشهادات، والتخلفات عن شريعة الله تعرف بالشهادات، والحفاظ على حقوق الناس وأعراضهم وعقائدهم تعرف بالشهادات، فلا بد من قيام الشهادة لله والقيام بها ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ﴾(٢) حتى تقام وتنفذ شريعة الله.

فهذه أبواب ثمان إلى جنة الرضوان، إلى حياة سليمة مسلمة يوم الدنيا ويوم الدين، بها يكافح هلع الإنسان السيّىء، فيبدل إلى هلع صالح في تحصيل المحامد، وتَبنّي الحياة الجديدة المجيدة، ولقد كرِّرت فيها الصلاة دواماً وحفاظاً عليها، قبل السبعة وبعدها، كأنها المحافظة على هذه السبعة، ولكي لا تتبدل أبواباً جهنمية، وهذا هو الحق يقال: الصلاة عمود الدين إن قبلت قبل ما سواها وإن ردَّت رد ما سواها، فغير المحافظ وغير المداوم على صلاته لا تأتي منه هذه الخيرات السبع، وإن أتت فهي صور مجردة عن معانيها المعنيّة، وطالما فرّعت هذه السبعة على الصلاة، نعرف أنها من نتائج الصلاة القائمة والدائمة المحافظ عليها: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ. . .﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

جنات مزدوجة: نفسية وجسدانية، بعضها مع بعض دون فراق، فالكرامة في الجنات جنة روحية، إضافة إلى سائر الحظوظ الروحانية، ونفس الجنات حظ جسداني.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ٢.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝٣٩ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٤١ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦﴾:

ما لهم على كفرهم بالله ويوم الحساب وبرسالتك، قِبَلَكَ: عندك حافّين بك، مهطعين: شاخصين بأبصارهم إليك: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾[١] ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾[٢]: شخوصاً بأعينهم إليك بغضاً وعدواناً وكفراً وطغياناً.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧﴾:

جماعات في تفرقة إذا كانت من عِزة، وعلى حدّ المروي عن الرسول الأقدس ﷺ[٣] أو: متبصرين إن كان من عزاء، أو بالأحرى: جماعات

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٣.
(٢) سورة القمر، الآية: ٨.
(٣) الدر المنثور ٦: ٢٦٦ عن عبادة بن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد فقال ما لي أراكم عزين: حلقاً حلق الجاهلية، قعد رجل خلف أخيه، وعن جابر بن سمرة قال: دخل علينا رسول الله ﷺ المسجد ونحن حلق متفرقون فقال: ما لي أراكم عزين.

متصبرين عليك في شخوصهم إليك بأبصارهم، متفرقين في تصاميمهم السامة ضدك ولأن مبادءهم الضالة متضادة على ضلالها! ومتفرقين في تجمعاتهم حسب عادة الجاهلية.

وقد يطمع كل امرئ منهم - على كفره - أن يدخل جنة نعيم، أرجاء أن لو كانت واقعاً، أو استهزاء بالرسول والذين آمنوا معه، والهزء هنا يلمح من التنديد بنكرانهم حياة الحساب: ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾!

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾:

تلمح الآية أنهم طمعوا، ولكونهم كافرين نلمح أنه طمع استهزاء، وقد ورد أنهم كانوا يقولون: إن كان الأمر على ما قال محمد فإن لنا في الآخرة عند الله أفضل مما للمؤمنين كما أعطانا في الدنيا أفضل مما أعطاهم فلقد كان طمعاً منهم هازئاً، لا رجاء بإيمان وتصديق.

﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

كلا: لا يدخل امرؤ منهم جنة نعيم، كلا: وليس كما يزعمون أن لا حياة بعد الموت ولا حساب، فـ ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾: من نطفة قذرة لم تكن شيئاً مذكوراً، فخلقناهم منها في أحسن تقويم، وليس بعثهم أصعب من خلقهم أول مرة، بل هو أهون: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1].

ولقد قرأ النبي ﷺ الآيات ثم تفل على كفه ووضع عليها إصبعه وقال: يقول الله: ابن آدم! أنى تعجزني؟ وقد خلقتك من مثل هذا حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين، وللأرض مثل وئيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة![2].

(١) سورة قٓ، الآية: ١٥.

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٦٧ - أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن بشير قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية..

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٤١﴾:

لا حاجة إلى القسم، وحتى برب المشارق والمغارب، فبدون أي قسم بأي برهان - لأن أقسام القرآن براهين - إن القدرة الإلهية ظاهرة باهرة على أن له تبديلكم خيراً منكم، أفلم يبدل النطفة إنساناً في أحسن تقويم؟ فله تبديل الخير أياً كان، في الدنيا أن يذهبكم ويأتي بخلق جديد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ۝١٧﴾[1] أو خيراً منهم في حياة الحساب، بتبديل أجسادهم هذه إلى ما هي خير منها وأخلص وأثبت وأبقى كما هو الحق في حشر الأجساد: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦١﴾[2].

فله التبديل إلى خير أياً كان، إلى خير في نفسياتهم كأن يبدلهم بمؤمنين، أو خير في أجسادهم كأن يبدلهم بأمثالهم، بأجساد لهم كأجسادهم، مماثلة من جهة، وخيراً منها من جهة ثانية لكون الأجساد المعادة أخلص وأنقى فهي أبقى. ﴿بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾: هنالك مشارق ومغارب كما هنا وفي الأعراف: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾[3] ولكنما الأولى تعم مشارق الأرض ومغاربها، والثانية تخص الأرض، وفي الصافات المشارق فقط: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾[4].

وهناك المشرقان والمغربان: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾[5] أو المشرقان

(١) سورة فاطر، الآيات: ١٥-١٧.
(٢) سورة الواقعة، الآيتان: ٦٠، ٦١.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٣٧.
(٤) سورة الصافات، الآية: ٥.
(٥) سورة الرحمن، الآية: ١٧.

فقط: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾[١].

وهنالك المشرق والمغرب: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[٢].

فكيف التوفيق بين هذه الثلاث في مشرق الشمس ومغربها؟.

أقول: المشرق والمغرب هما الجهتان المتقابلتان بما فيهما الأخريان: الشمال والجنوب، فبما أن شروق الشمس يكون دائماً من جهة مهما تجولت فيها، وكذلك غروبها، لذلك وحد كل منهما في آيات.

وأما المشرقان والمغربان فلأسباب عدة: منها ضم الجهتين الفرعيتين الأخريين إليهما، الشمال في إحداهما والجنوب في الأخرى، تغلبياً للأصيلتين في التعبير، ومنها أن لكل نصف من كرتنا الأرضية مشرق ومغرب خاص هما المشرقان والمغربان، ومنها أن لكل من الصيف والشتاء، للشمس فيه غاية ارتفاع وغاية انخفاض هما المعنيان، وفيما إذا ذكر أحدهما كما في الزخرف: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ فالمقصود المشرق والمغرب تغليباً للمشرق، تفضيلاً للشروق على الغروب.

ثم المشارق والمغارب، ففي المطلق منهما يعني - فيما يعني - المشارق لكل الشموس والنجوم الشارقة، وكذا المغارب، وفيما اختصا بالأرض فمشرق كل يوم ومغربه يدور على عدد أيام السنة، وعلى حدّ المروي عن علي عليه السلام لهما ثلاثمائة وستون مشرقاً وثلاثمائة وستون مغرباً، فيومها الذي تشرق فيه لا تعود فيه من قابل»[٣]، وأكثر من ذلك، لكلّ أفق للشمس على أرضنا شروق وغروب، وبموجبه كان التكليف في أوقات

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٨.

(٢) سورة المزمل، الآية: ٩.

(٣) نور الثقلين ٥: ٤٢٠ في كتاب معاني الأخبار رفعه اليه عليه السلام: ورواه في الاحتجاج عنه عليه السلام مثله.

الصلاة حسب أوقات الشروق والغروب للآلفاق كما في الحديث: أنت مكلف لمشرقك ومغربك.

ومما توحيه هذه الآيات هو كروية أرضنا، وإلا لم يكن لها إلا مشرق ومغرب واحد.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾: ليس الأمر بحاجة إلى قسم، وإنما التلويح بذكرهما يوحي بعظمة الخالق وسعة قدرته، إذ يشرق الأرض ويغربها حسب تدبير زمني محسوب بالآنات أثناء دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، فهو أيضاً المشرق للأبدان بأنوار الأرواح، والمغرب لها بإزهاقها - سواء.

﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾: وكما بدلنا نطفهم خيراً منها إذ جعلناها في أحسن تقويم، كذلك سوف نبدل أجسادهم البالية خيراً منها، ما يناسب الخلود، بتخليصها من بواعث الأمراض والأعراض المؤدية إلى الموت، لحد لا يقضى على أهل النار فيموتوا، ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ﴾[١] ومن خيرها أنها البدن الأصيل متحللاً عن الزوائد من أبدان آخرين أو غيرها، إذ إن في إحيائها مع غير أبدانها إبطالاً لإحياء الآخرين وجزائهم الجسداني، وإحياء الزوائد من غير الأبدان لغو لا يفيد، لأن الهدف من إحياء الأجساد إيصال الجزاء إلى أرواحها العاملة بها، ويكفيه البدن الذي عاشه طوال حياة التكليف أو حياته كلها.

ومن خيرها أنها رقيقة كأنها الهواء أو أخف وألطف، وعلّها الطينة التي خلقت منها، وعلى حد المروي عن الإمام الصادق عليه السلام حين «سئل عن الميت يبلى جسده؟! قال: نعم، حتى لا يبقى لحم ولا عظم إلا طينته التي خلق منها فإنها تبقى مستديرة في القبر حتى يخلق منها كما خلق أول مرة»[٢].

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٦.

(٢) نبدل تطلب مفعولين ثانيهما مذكور وهو «أمثالكم» فالأول هو (كم) وهو الخلق الجديد.

وعلَّ الآيات في خلق الأمثال يوم المعاد، ترمي إلى هذه الأبدان الروحانية الصافية البراقة، تذوق نعم الله في جنته، أم نقمه في ناره: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾[1] نحن السابقون على القدرات لا مسبوقون على أن نبدلكم أمثالكم وهو الخلق الجديد: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[2] وهو مثل الخلق القديم في الصورة، لا عينها، لاستحالة إعادة المعدوم، وهو مثله في الجسم لا عينه في كله، وإنما كحالة تجردية كالبدن البرزخي، وكالنور، ومصدره البدن الذي عاشه حياته أو حياة التكليف.

وكذلك الآيات في مثل الخلق الجديد أنه كالبدء: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[3] ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[4] ولقد بدأنا بالنطفة فليعدنا بنفس النطفة التي خلقنا منها أول مرة، ثم لا حاجة إلى الزوائد يوم المعاد، فإنها بين ما لا تنفع، وما تضر، وسوف نفصل البحث عن كيفية الحشر معمقاً في مناسبتها الأخرى.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

فإذ لا تنفع هؤلاء المناكيد الأوغاد، أيّة حجة وذكرى، فذرهم على ما هم فيه خائضون من نكران الحق والهزء به، وذرهم يلعبوا بمغريات الحياة الدنيا، حتى يلاقوا اليوم الموعود، البادئ بما بعد الموت يوم البرزخ، ثم إلى يوم الحشر، ويعتبران يوماً واحداً اعتباراً بانقضاء التكليف وابتداء الجزاء بالموت[5].

---

(١) سورة المعارج، الآيتان: ٤٠، ٤١.
(٢) سورة ق، الآية: ١٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.
(٥) ولا يعنى هنا خصوص الحشر إذ لا يعقل استمرارية الخوض واللعب إليه، حيث الدنيا بما=

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

هنا يختص يوم القيامة بالذكر من يومي الجزاء، لأنه الأصل والبرزخ كتهيئة.

في هذا اليوم يخرجون بأجسادهم من أجداثهم: قبورهم، مسرعين، كأنهم يسرعون إلى نصب منصوبة أعلاماً لمن لا يعرف الطريق.

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾(١) ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾(٢) ومن الرهبة ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾(٣) ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾(٤) فأبصار العيون والقلوب تخشع واجفة، ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾: تشملهم بقهر ﴿ذِلَّةٌ﴾ وتغشاهم، ﴿ذَٰلِكَ﴾ اليوم العصيب الرهيب ﴿الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا﴾ طوال الرسالات وطول حياتهم ﴿يُوعَدُونَ﴾ عنه وهم ناكرون، وقد كانوا يرتابون فيه ويكذبون به ويستعجلون.



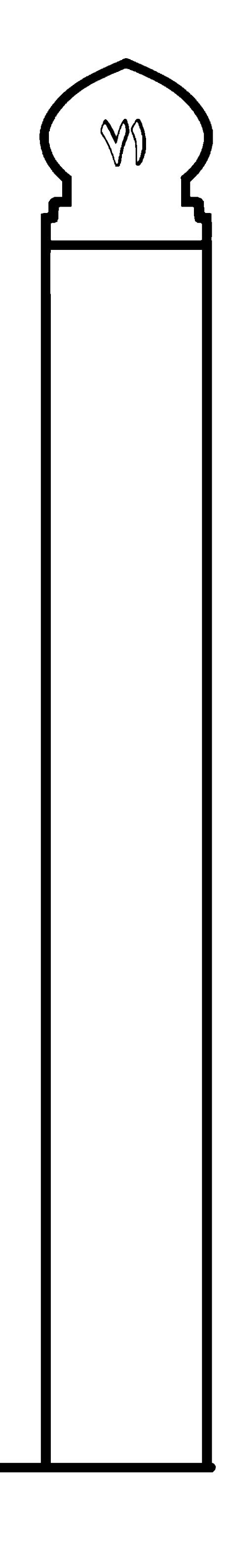
= فيها تنقطع بالموت وبه تقوم القيامة الصغرى، و(حتى) تفيد استمرارية الخوض واللعب - تأمل.

(١) سورة القمر، الآية: ٧.

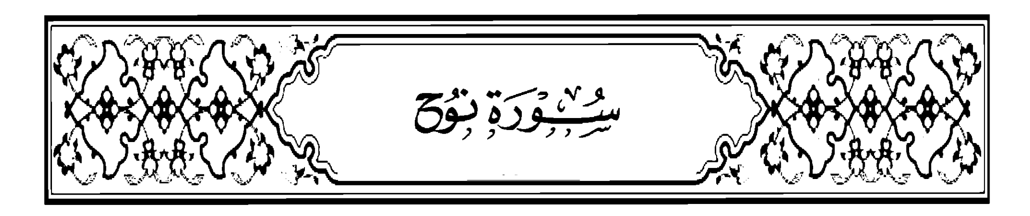
(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٥.

(٣) سورة غافر، الآية: ١٨.

(٤) سورة النازعات، الآيتان: ٨، ٩.



سُورَةِ نُوح



مكية - وآياته ثمان وعشرون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ﴿٥﴾ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴿٩﴾ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴿١٣﴾ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا

كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾

أولى الرسالات الفذة الإلهية يحملها أول الخمسة من أولي العزم من الرسل، نوح عليه السلام، وقد ذكر بدعواته وما لاقاه بسببها من قومه ٤٣ مرة في القرآن، منها مدى دعوته: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾(١). وهو اللبث الرسالي لذكره هنا بعد الرسالة، وقومه هم بنو الجن والإنسان كافة(٢) كما في أولي العزم كافة، ولذلك حق له أن يدعو على مَن على الأرض من الكافرين: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾(٣) فلو لم تشملهم دعوته لم يحق له هكذا دعاء شامل، ومن لطيف الأمر في دعوته الأليفة الرحيمة طوال قرونه العشرة أن القرآن يعتبره أخاهم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾(٤) فإنها أخوة لهم فيما سوى الإيمان: إن نشأ في البيئة التي نشاؤوا فيها فلم يتأثر بضلالها، وعاشرهم ودعاهم إلى الله كأخ رحيم، إلى أن تأكد بالوحي أن لا خير فيهم

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٤.
(٢) نور الثقلين ٥: ٤٢١ عن الباقر عليه السلام فأما نوح فإنه أرسل إلى من في الأرض بنبوة عامة ورسالة عامة. (تفسير الفرقان – ج ٢٩ – م ١٠).
(٣) سورة نوح، الآية: ٢٦.
(٤) سورة الشعراء، الآية: ١٠٦.

وفي أنسالهم، فإنما هم شر خالص: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1] فقد صبر على آذاهم المتواصل طول الدعوة علّهم يؤمنون، فهل يصبر إذا انقطع الأمل وتفاقم العناد منهم في ضلالهم ضد الدعوة والمؤمنين بها، إنه صبر على الظلم والضيم وعلى انتقاض شريعة الله وانتقاص دعوته، ولا يرضاه العقل والعدل!

الشريعة الأولى

هل أن شريعة نوح عليه السلام هي الأولى فلم تكن قبله شريعة من الدين مع أي من النبيين؟ أم كان الوحي إليهم يحمل تقوية الأحكام العقلية دون أن يحمل أحكاماً شرعية؟ أم لم يكن قبل نوح أنبياء؟ لا سبيل إلى الأخير والأولان هما الأوليان.

فإن القرآن لا يذكر من شرائع الدين إلا خمساً محتصرة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[2] ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ...﴾[3].

وأصحاب الشرائع الخمس هم أولو العزم من الرسل: عزمٌ لهم في استقلال شرائعهم وثباتها إلى شريعة أخرى تنسخها تكميلاً لها: بعثوا إلى شرق الأرض وغربها وجنها وإنسها[4] وعزم لهم في« سبقهم الأنبياء إلى الإقرار بالله»[5] وثباتهم على عهد الله المعهود إليهم: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن

(١) سورة نوح، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٦٣.
(٤) ج ١١ بحار الأنوار ص ٣٣ ح ٢٥ وح ٦١ عن الصادق عليه السلام.
(٥) ج ١١ بحار الأنوار ح ٣٠ عن الباقر عليه السلام.

قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[١] وعزم لهم في الصبر على وعثاء السفر وإتعاب السفارة الإلهية: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[٢] فقد عزموا على الصبر مع التكذيب لهم والأذى[٣] فهم «الذين دارت عليهم الرحى»[٤] رحى الوحي بشرائع الدين.

فهم عظماء ثابتون في عزمهم في أنفسهم وعهودهم وشرائعهم وكتبهم، وليس منهم آدم وإدريس قطعاً، فلم يحملا إذاً شريعة من الدين، وإنما أحكاماً عقلية مؤيدة بوحي النبوة، فشرائع الدين بحمَلتها الأصول، ودعاتها الفروع: النبيين الأتباع، إنها ابتدأت بنوح بعدما كان الناس أمة واحدة في الضلالة، ولانقطاع دعوة النبيين عنهم، عائشين في الفترة بين إدريس ونوح، كما بين آدم وإدريس: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٥] ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٦]. كانت الوحدة سائدة بين الناس قبل الرسالات، فهل يا ترى أنها وحدة في الهدى دون رسالة إلهية، ولم تتحقق الوحدة الدينية مع الرسالات؟ كلا، إنهم كانوا ضلّالاً أجمع، لعدم شرائع الدين وقتذاك، وتحللهم عن شريعة العقل المؤيد بوحي السماء.

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٥.
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.
(٣) ج ١١ بحار الأنوار ح ٣٠ عن الباقر عليه السلام.
(٤) كما في أحاديث عدة.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٦) سورة يونس، الآية: ١٩.

ومهما كانت الضلالة سائدة على البشرية قبل شرائع الدين، فإنها ضلالة عن تقصير وقصور، قصور زال بشرائع الدين، وتقصير في التحلل عن شريعة العقل الوحيد، أو عقل الوحي التي حملتها غير أولي العزم من غير أصحاب الشرائع، كآدم وإدريس، يوحي بذلك ما يحمله نوح في مستهل رسالته:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١﴾:

فإذا لم تكن قبل نوح أية شريعة قاطعة للعذر، داعية إلى الحق، فما هو العذاب الأليم الذي يهددهم به نوح عليه السلام: ﴿أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ﴾ فلولاً الإنذار من نوح - أيضاً - لكان يأتيهم عذاب أليم، ولكن الله يكمل حجته وإنذاره بأول شريعة من الدين، بعدما ثبتت الحجة بشريعة من العقل، فشرائع العقل بالوحي وسواه، وشرائع الدين، هما متناصرتان في إثبات الحجة ومزيدها على الناكرين، والقرآن يشير إلى رسل قبل نوح: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗ﴾[1] ولو لم يكن رسل قبل نوح لما صدق تكذيبهم لجمع الرسل، وأقله اثنان أو ثلاثة، وفي المروي عن الباقر عليه السلام أنهم كانوا عشرة[2].

فلا تخلوا - إذاً - الفترات الرسالية، من حجج بالغة، الفترة قبل شرائع الدين (بين آدم وإدريس وبينه وبين نوح) وبين شرائع الدين (كما بين المسيح ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم) مهما كانت الحجج أبلغ وأقوى في غير الفترات الرسالية، فإنما يُداقُّ الله الناس في الحساب على قدر ما أوتوه، كما يقتضيه عدله وحكمته البالغة.

ونوح عليه السلام يحمل في مستهل الدعوة وفجر الرسالة، الدعوة إلى أصول

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٧.

(٢) نور الثقلين ٥ : ٤٢١ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى محمد بن الفضل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام : كان بين آدم ونوح عشرة آباء كلهم أنبياء.

ثلاثة هي خلاصة الأساس في الرسالات الإلهية كلها، مهما افترقت في التخطيط والتفريع والعمق والبساطة والشكليات المناسبة لكل جيل:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾:

﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ﴾ عن عذاب الله في الدارين، إن تركتم هذه الأصول ﴿نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾: مبين لجذور الإنذار وأسبابه، مبين عملاً واقعاً جزاء ترك الشريعة، ومبين كذلك من هنا نتائج تطبيقها.

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: فعبادة الله وحدها، وكأوّل الفرائض، هي منهج كامل للحياة، تشمل التعرف إلى ألوهيته والعمل لعبوديته، وإنها الصلة الوحيدة العريقة بين العبد والمعبود، وينبثق نظام الحياة عنها، وهي تشمل توحيده في سائر شؤون الألوهية، وتطبيق الواجبات الشرعية تجاهه تعالى.

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾: تقوى الله في عبادته فلا يعبد معه سواه، وفي طاعته فلا يُطَع معه سواه، وفي حرماته فلا تهتك، إنها هي الضمانة الحقيقية لاستقامة الإنسان على الثبات في عبادته، وعدم التلفت والتفلُّت عنه أو الالتواء في تطبيقه.

﴿وَأَطِيعُونِ﴾: وطاعة الرسول أولاً وأخيراً هي الوسيلة الوحيدة للتعرف إلى عبادة الله وتقواه المقصودة الصالحة، إذ لا تعرف إلا بالوحي ولا سيما الذي يحمله أولو العزم من الرسل الذين دارت عليهم الرحى.

وهكذا نجد البرامج الرسالية طوال عهودها، تحمل هذه البنود البناءة كأصول الدعوة بالإنذار والتبشير، ثم الفروع تتبناها مهما اختلفت باختلاف المصالح والبيئات، وليبلوهم الله تعالى فيما آتاهم: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ ... لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾[١].

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

والشرائع هي شرائع الدين وهو واحد برغم اختلافها في شكلياتها، فالدين هو الطاعة لله الواحد القهار، مهما اختلفت صورها وسيرها: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[١] أقيموا الدين الواحد في شرائعه، فالدين واحد والأمة واحدة: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾[٢].

فهل توجد شريعة من شرائع الدين لا تتبنى - كأصول - هذه الثلاثة؟ والشاذة عنها أو عن واحدة منها ليست شريعة إلهية أو هي محرفة.

ونتيجة هامة عامة تنجم عن اعتناق هذه الثلاثة إضافة إلى سائر نتائجها الدنيوية والأخروية أمران:

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾:

غفر الذنوب - بعضها لا كلها - فإن «من» يوحي بالتبعيض، وهذا البعض ليس إلا مما سلف في زمن الكفر: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٣].

والبعض المغفور هو الحقوق الإلهية المضيعة زمن الكفر، وذلك بشرف الإيمان، وأما البشرية الضائعة فلا تغفر بالإيمان، إنما بالإصلاح وإرضاء أصحابها، مناسبة الحكم والموضوع، فإن الإيمان بالله ليس ليُضيع حقوق الناس.

وليس من العدل والحكمة في التشريع غفران الذنوب الآتية بسند الإيمان السابق ولو دام، فإن الإيمان لزامه الدفع للصالحات، لا أن يغفر

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.

صاحبه إذا تخلف عنها إلى الطالحات، ولزام الغفران هكذا إلغاء التكاليف الإلهية بسبب حصول مبدء التكليف ودافعه: الإيمان.

أجـــــل: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾[١] ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾[٢] وفيما يوحي بالغفر العام فهو بين مخصَّص بهذه الآيات، وخاص بالذنوب وهي الصغائر المكفرة بالإيمان وبترك الكبائر، ومذكور فيه بواعث الغفران فيحدد بحدودها كما توحيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[٣].

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: وهو المحتوم الثابت الذي لا يؤخر، وقبله الأجل المعلق على بواعث وحوادث للموت، سواء من صاحب الأجل. مخيراً أم مسيراً، أم من غيره، أم من الله، وكل من الله دون منافاة لخيرة الخلق.

والتأخير عن الأجل المعلق ببواعثها إلى الأجل المسمى المحتوم قد يكون نعمة ليكسب صاحبه فيها مزيداً من الإيمان والعمل الصالح، كما هنا، جزاء الحسنى بالحسنى، وكما في آيات تترى: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[٤] ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[٥].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٠.
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٣١.
(٣) سورة الصف، الآيات: ١٠-١٣.
(٤) سورة هود، الآية: ٣.
(٥) سورة إبراهيم، الآية: ١٠.

وقد يكون نقمة لا تكسب إلا إثماً وعذاباً مهيناً: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[١].

كما أن من التعجيل عن الأجل المسمى نعمة كمن يقتل في سبيل الله، ومن يعجل في موته كي لا يفوت عنه ما حصل من صالح، ولا يكسب في المستقبل ما يخسره من طالح.

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: وهذا التعليل يحمل بشارة وإنذاراً، بشارة لمن آمن فيؤخر إلى الأجل المسمى ليكمل، وليس بمؤخره لولا إرادة الله، فإن أجل الله لا يؤخر، لا محتومه إطلاقاً، ولا معلقه إذا جاء، فلا مؤخر له إلا الله، وليس هو بمؤخره رحمة إلا لمن تاب وآمن. ويحمل إنذاراً لمن بقي على الكفر، فإن أجله المعلق إذا جاء لا يؤخر إلى المسمى.

فهنا الأجل كلا الأجلين، وكون المعلق أجل الله اعتباراً بأن الموت لا يتحقق إلا بإرادته مهما توفرت بواعثه، وأن الحياة لا تبقى إلا بإرادته مهما توفرت عواملها، فله التأجيل إلى الأجل المسمى فإذا جاء لا يؤخر قط، وله التعجيل عن المسمى، فإذا جاء لا يؤخر إلا بإذنه، إذاً فلا منافاة بين عدم تأخير أجل الله، وأنه يؤخره إلى المسمى.

فلا يحسبن أحد أن أجله بيده، أو أن له تأجيل أجله أو تعجيله، إنما له تقديم دوافع الموت قبل أجله المحتوم، ثم إذا شاء الله أماته، وله تقديم دوافع التأجيل إلى المسمى كالإيمان، وقد يشاء الله تأجيله إن كان لصالحه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾:

عرض نموذجي لما بلغه نوح من رسالات الله، وما لاقاه وعاناه من

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

قومه طوال الدعوة مع ما كان منه من صبر على ألوان الأذى طوال الف سنة إلا خمسين عاماً: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾(١).

هذه الدعوة كانت متواصلة ليل نهار دون ملل ولا كلل ولا خلل، دون أن يمله عدم الإجابة، أو تكِلُّه مواصلة الأذى، يعرضها نوح في نهاية الأمد الطويل من دعوته ومستهل دعائه عليهم بعد الإياس من خيرهم والتأكد من شرهم ومَن في أصلابهم.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾: هل لأن دعوته كانت قاسية يُفر منها؟ أم لأنها كانت ناقصة لا تحمل حججاً تقبلها الفطر والعقول؟ أم لأنهم هم كانوا أظلم وأطغى، ودعوة الحق لا تزيد دعاة الباطل العنيدين إلا ضلالاً بما يصرون في عتوهم ونفورهم ونكيرهم للحق الصراح: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾(٢) إذ يخسرون فيها الدعوة والداعي ويبدلون الرحمة عذاباً وخساراً: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(٣) وإنما زيادته بظهوره عند ظهور الحق ووفوره عند نكيره.

إنه لا بد للدعوة الحق من زيادة، إما في الهدى، أو في الضلال، وإما ألا تؤثر لا إثباتاً ولا نفياً؟ فلا! ولا بد من مواصلة الدعوة ليل نهار وإثباتاً للحجة تنويراً للمهجة لكي تصبح نوراً للمهتدين وناراً على المعتدين جزاءً وفاقاً.

إنهم كانوا يفرون عن دعائه وعن إجابة الحق، ولكن نوحاً لم يكن ليذرهم يفرون إلا ويلاحقهم أينما كانوا، فما استطاعوا بالفرار بُعداً عن

---

(١) سورة النجم، الآية: ٥٢.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠.

دعائه، لذلك احتالوا حيلاً أخرى ليفروا عن سماع الحق في فرارهم على قرارهم، بملاحقته إياهم:

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾:

إصرار تلو إصرار واستكبار، إصرار الداعية على دعوة الحق في محاولة دائبة، وتحيُّن الفرص لتبليغهم إياه، وإصرارهم تجاهه في إدبار واستكبار كأنهم يدعون إلى الموت! وهو يدعوهم إلى الحياة، ليغفر الله لهم ذنوبهم ويحييهم حياةً طيبة!.

ظلوا في محاولة عنيدة بغيضة كي لا يسمعوا نوحاً ولا يروه بطريقة صبيانية حمقاء، بسد الآذان عن سماع الحق، وستر العيون عن رؤية داعية الحق، برد الثياب، وهذا منتهى الضلال.

لقد جرّب نوح كافة الأساليب في دعوتهم علّهم يهتدون، وهم قابلوه بكافة أساليب التمرد والعصيان وظلوا معاندين.

فمن حيث الزمن: ألف سنة إلا خمسين عاماً، وفي مواصلة دعائهم ليل نهار، وفي ملاحقتهم حالة الفرار لم يخل مجالاً، وفي كيفيتها: إسراراً ثم إعلاناً، ثم إعلاناً وإسراراً:

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾﴾:

فقد يوحي بسابق الإسرار، وهو بطبيعة الحال مستهل الدعوة: فلو ابتدأت جهاراً واجهت حملة جماهيرية قاضية، فلا بد من الإسرار أولاً كي تجد جواً صالحاً وركيزة تتركز عليها الدعوة في المارقين.

ثم إذا واجهت قبولاً ولو قليلاً، أم لم تواجه، فالإعلان، علّها تثير عَطف الجماهير وتحرك فِكَرهم وتنير فِطَرهم علَّ فيهم من يَقبل ويُقبل.

ثم أخيراً لا بد من الجمع بين الإعلان والإسرار، كلٌّ في مجاله المناسب وجوِّه اللائق:

﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩﴾:

إسراراً ليدخل شغاف القلوب وعل القابل يقبل فيلحق دون خجل من الجماهير العنيدة، وإعلاناً لتعزيز كلمة الحق، ولتظهر القابليات على رؤوس الأشهاد، ولقد حملت الدعوة - فيما حملت - ترغيبهم بالحق فوعدتهم بمتطلبات الحياة الدنيا، رغم أنها ليست دار جزاء، وتحريكاً لعقولهم وعواطفهم وضمائرهم، وتنديداً بهؤلاء الذين قلوبهم قلوب الشياطين فلا يعرفون أو يفهمون كلمة الحق!:

﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠﴾:

لا يذهب استغفاركم هباء، لأن الله تعالى غفار في سنَّته الإلهية منذ بدء الخلق، فاستغفروه لأنه ربكم: المالك المدبر لكم، ولأنه معدن الغفران: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾.

ومن آثار غفرانه في الدنيا أنه يفتح لكم بركات من السماء والأرض:

﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾:

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[1].

هذه البركات الموعودة هي مما تنتج عن الإيمان والتقوى وليزيدوا من الصالحات ويعيشوا بركات، ولكنها ليست دائماً ناتجة عن الصالحات كالتي

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

توفر على الكفار إملاء وإمهالاً ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين، فهي إذاً دركات لهم وليست ببركات، وكما نشهدها اليوم في دولتين كبيرتين موسع عليهما في الرزق، ممكَّن لهما في الأرض: أمريكا الرأسمالية المستعمرة، روسيا الشيوعية المستحمرة، والدرك الأسفل في الأولى هبوط المستوى الأخلاقي إلى أشر دركات الحيوانية، والحياة كل الحياة قائمة فيها على إغراءات المال، وفي الثانية تهدر قيمة الإنسان الروحية إلى أسفل دركات، ويسود التجسس ويعيش الناس في وجل دائم من المذابح المتوالية، وليست هذه أو تلك حياةً إنسانية، ولا تعد بركاتهم إلا دركات!: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾(١).

وآية المدرار والإمداد بالأمطار الغزيرة والأموال والبنين توحي أنهم كانوا في نقصان منها كلها، فمما يزيدها عليهم مجاناً ودون عمل دنيوي، هو الاستغفار من الذنوب ومواصلة الطاعات، إلا أنه ليس حتماً في كل الظروف والمجالات، فقد تكون هناك عوائق نجهلها، أو نحن نعملها، وإنما الاستغفار لو خلي وطبعه يستتبع بركات من السماء والأرض كضابطة عامة تقبل الاستثناءات ولا سيما بالنسبة للأفراد، فالحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد، فما من أمة قام فيها شريعة الله واتجهت اتجاهاً حقيقياً لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبئ عن خشية الله إلا فاضت فيها الخيرات ونزلت عليها البركات من الأرض والسماوات، وكما الآيات تحمل هكذا وعد للأمم لا للأفراد: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦.

وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾[1] إذاً فالقاعدة أممية لا فردية وإن كانت تعم الأفراد أحياناً.

والتقوى الجماهيرية بطبيعة الحال تقي جماهيرها عن التورط في دركات الحياة، وتخلق جواً سليماً سالماً متحللاً عن التطاولات المسببة للفوضويات، وتبني صرحاً عالياً لرغد الأمن والعيش لمن يتقي الحرمات واللاأخلاقيات، مما يؤهل لنزول مزيد البركات كنموذج فعلي للجزاء، وتمام الجزاء ليوم الجزاء: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾[2].

وإرسال السماء مدراراً لا يخص ماءه المدرار المكثار، إنما بركات السماء ككل، من نور شمسها وحرارتها ورياحها وأشباهها.

والإمداد بالأموال والبنين ليس دائماً إلى خير، فمن الأموال ما لا تُمِدُّ وإنما تَمد في خسار وبوار، ومن البنين من لا يمدون إلا في غي وطغيان، ومنهما ما يضر ديناً ودنياً، فالإمداد الموعود فيهما هو الذي يأخذ بيد الإنسان إلى صالح النشأتين، ويدفع عنه تبابهما. «فرحم الله امرءاً استقبل توبته واستقال خطيئته وبادر منيته»[3].

وأكمل الاستغفار - على حد تعريف أمير المؤمنين عليه السلام إنه «درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان: أولها الندم على ما مضى والثاني العزم على عدم الرجوع إليه أبداً والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عز وجل أملس ليس عليك تبعة والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٦٥، ٦٦.
(٢) سورة هود، الآية: ٥٢.
(٣) نور الثقلين ٥ : ٤٢٣ عن نهج البلاغة بعد قوله عليه السلام وقد جعل الله سبحانه الاستغفار سبباً لدرور الرزق ورحمة الخلق (مستشهداً بالآية). . .

السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول: أستغفر الله».

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾:

وأصل الوقار ثبوت ما يكون به الشيء عظيماً، من الحلم والعلم اللذين يؤمن معهما الخرق والجهل، ومن القدرة التي تؤمن عن العجز، وأشباهها التي تثقل الكائن وتخرجه عن الخفة، وبصيغة أخرى العظمة المطلقة.

والرجاء ظن يقتضي حصول ما فيه من المسرة، وكذلك هو خوف عما يؤهل المخافة، فأنتم أنتم الأوغاد المناكيد ما لكم: تقطعون عن ربكم وحتى أمل الخير، أمل الوقار والعظمة، كمن يتأكد من ربه اللاوقار فيفر منه وممن يدعو إليه، وإذا أنتم تعتقدون وقاره فلماذا لا تخافونه، رغم أن وقاره وعظمته، تصميمه وحكمته، عطفه ورحمته، علمه وقدرته، وكل مظاهر ألوهيته وربوبيته، إنها ظاهرة في خلقه لكم وللكون كله لو أنتم تشعرون، فهو الذي يجب رجاء وقاره وتوقيره: أن تخافوه لأنه الوقار كله، والوَقور يُخاف لعدله وقدرته، وأن تأملوا من وقاره خيراً، فإنه يؤمل فضله لرحمته، وأن تأملوا من أنفسكم له وقاراً فتعبدوه وتوقروه وتعزروه. فقد يعتقد الإنسان ربوبية الله ولا يوقره جهالةً وعصياناً، وقد لا يوقره ارتياباً في ربوبيته مع احتمالها، وقد لا يرجو - أيضاً - وقاره، كأنه متأكد أنه ليس إلهاً، وهذا أحط دركات الكفر بالله، رغم ظهور آياته في الآفاق والأنفس!.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ فلكلٍّ من أشخاصكم أطوار، ولكم أجمع أطوار، مما تنتفي عنه الصدفة العمياء، والخلق الفوضى:

فمنها الأطوار الجنينية من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الهيكل إلى الخلق الكامل وإلى إنشاء الخلق الآخر «الروح» فتبارك الله أحسن الخالقين.

ومن الأطوار الجنينية نفسها أن الجنين يشبه لأول مرة حيوان الخليَّة الواحدة، ثم بعد فترة يمثل شبه الحيوان المتعدد الخلايا، ثم شكل حيوان مائي، ثم حيوان ثديي، ثم المخلوق الإنساني، وإدراك هذه الأطوار الثانية، مهما كان بعيداً عن قوم نوح، فإنه قريب إلينا كما كشف عنه العلم حديثاً، والقرآن كتاب كل الأزمان.

ومن الأطوار الأخرى بعد الخلق هي أطوار الحياة الدنيا، من كونكم طفلاً وإلى الشيخوخة ثم إلى الأجداث وقد تجمع هذه الثلاثة آيةُ الخلق والبعث:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا...﴾[1] ومنها أطوار الحالات الجسمية والنفسية والألوان وأشباهها.

ثم الأطوار الرابعة هي الجماعية، فالقطاعات البشرية ترى مختلفة في الألسن والعادات والأشكال والأحوال، وليتعارفوا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2].

فهذه الأطوار المقصودة في الخلق، الدائبة فيه، مما يجعل العقلاء الأحرار يأملون ويخافون ويرجون لله وقاراً، لأنه الخالق، وهو المدبر لا سواه، وهو الرحمن الرحيم والمنتقم، فما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً؟!، والخلق المتطور يدل على الخالق المطوِّر، والتطور المتناسق اللامتفاوت دليل على وحدة المطور، فكما لا خالق سواه، كذلك لا مدبر ولا مطور إلا إياه، فليرج وقاره على أية حال.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾:

هل الرؤية المسؤول عنها هنا هي الحسية؟ أم العلمية التجريبية؟ أم بالوحي؟ وكيفية السبع الطباق مجهولة حتى الآن!

بديهي أنها ليست رؤية حسية حين الخلق إذ لم يكونوا موجودين عنده: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ﴾(١) ولا بعد الخلق، كيف والعيون المسلحة حتى الآن لم تصل إلى عمق السماء الأولى، سماء الأنجم، فضلاً عن واقع أو كيفية السبع الطباق، وفضلاً عن الإنسان زمن نوح عليه السلام!

وكذلك الرؤية العلمية على ضوء العلوم التجريبية لم تتحقق حتى الآن.

وأما رؤية المعرفة الدينية من طرق الوحي فهي وإن كانت حاصلة لقطاعات من البشر المعتنقة وحي السماء، ولكنها علم الواقع عن السبع الطباق بالوحي، لا كيفية خلقها، إذاً فماذا تعني الآية، لا سيما والمخاطبون - وهم الكفرة من قوم نوح - لم يكونوا ممن يعتنق وحي السماء ليعرفوا ذلك بالوحي!.

والحل أن معرفة كيفية خلقه السبع الطباق ليست بمستطاع الإنسان أياً كان، إلا من يوحى إليه فيريه الله ملكوت الكون كما أراه إبراهيم ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾(٢).

فلتكن الرؤية المسؤول عنها معرفة واقع السبع لا حقيقتها وملكوتها، ولا سبيل إليها أيضاً إلا عن طريق الوحي، حيث العلم التجريبي قاصر حتى الآن عنها وحتى عن المعرفة الشاملة بالسماء الأولى، فالآية توحي أنه كان هناك وحي قبل نوح، بالإمكان أن يتعرف به إلى أمثال هذه البدائع الكونية،

(١) سورة الكهف، الآية: ٥١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

طالما كان قوم نوح مكذبي الوحي، حين كان عليهم تصديقه، لمزيد المعرفة بالله عبر التعرف إلى عظمة الخلقة.

أو أن الخطاب لا يخصهم، وإنما المخاطبون هم الذين يخاطبون بوحي القرآن منذ نزوله وحتى القيامة، فهؤلاء يمكنهم معرفة السبع الطباق، بتصديق الوحي أم بالمحاولات العلمية التوسعية، وإن لم يصلوا بها حتى الآن.

أو أن رؤية السماء - أية رؤية كانت - هي في الواقع رؤية السبع الطباق سواءً عرفوا السبع بما تُعرف، أم لم يعرفوا، فلا أقل من رؤية هذه الأجواء الواسعة ذات القناديل البراقة الكوكبية والنجومية، فليعتبروا بها، بالسبع أم الجو الممتد مدَّ البصر.

فمهما كانت الرؤية قاصرة عن السبع، ولكنها ليست لتجعل واقع السبع غير واقعها، فلينبَّه الناظرون - ولو بأمثال هذه الآيات - أن ما يرونه فوقهم هو السبع الطباق، والقرآن كما يخبرهم بها، يحركهم نحو معرفتها والاستدلال بها على قدرة بادئها.

ولقصور الرؤية المتحللة عن الوحي: هنا يجعل القمر فيهن نوراً والشمس سراجاً وهاجاً ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾[1] كل ذلك رغم آلاف الأقمار والشموس في سماء الأنجم، وعلَّها في سواها أيضاً.

فبما أن المخاطبين هنا - فعلاً - هم سكنة الأرض، وإن كان معهم غيرهم، ولا نور قمرياً ولا سراج شمسياً لهم في هذه السماوات، إلا هذا القمر وهذه الشمس لذلك يقول: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[2] أي جعلها لكم، كما جعلها لغيركم من سكنة الكرات طالما لهم أقمار النور والشموس السراج، مما يبرهن أن الشمس الضياء والقمر النور هما في السماء

---

(١) سورة النبأ، الآية: ١٣.

(٢) سورة نوح، الآية: ١٦.

الأولى: سماء الأنجم، لا فوقها: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[١].

والشمس السراج توحي أن نور القمر مكتسب منها، ودليلاً واقعياً حسيّاً على أنه ليس له نور من ذاته، وصول البشر إلى سطح القمر، بينما تأكدت الاستحالة على أي المخلوقات الوصول إلى كوكب الشمس، فلولا الشمس لكنا في ليل داج دائب، فالقمر ليس سراجاً، وإنما نور كما يستعمل لغرفة النوم ليلاً و﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾[٢].

فالقمر إذاً ليس سراجاً ولا ضياءً بذاته، إنما هو الشمس سراجنا وضياؤنا الوحيد في كل الأفلاك، مهما كان في سماء الأنجم وسواها شموس وأقمار لمن سوانا من سكنة الكرات.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾:

هل الإنسان من نبات الأرض؟ أجل ولأنه نبت منها كسائر النباتات مهما اختلفت كيفية الإنبات، فلنبات الإنسان من الأرض وسائل طائلة تخرجه من صدق نبات الأرض عليه فيما يطلق، فلا يصح السجود عليه لعدم صدق الأرض عليه ولا نباتها، مهما كان نابتاً منها. فصدق الاستعمال والتعبير إيحاءً بحقيقة كونية لا يصدق شمول اللفظة المطلقة على المستعمل فيه، وحقيقة الإنبات الظاهرة من لفظه، إنما هي فيما تطلعه الأرض من نباتها، وتخرجه عند ازدراعها، ولما كان الله سبحانه يخرج البرية من مضائق الأحشاء إلى مسافح الهواء، ويدرجهم من الصغر إلى الكبر وينقلهم من الهيئات والصور، كل ذلك على وجه الأرض ومن الأرض، لذلك صح التعبير عنه بكونه نباتاً وإن لم يشمله على الإطلاق.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦١.

(٢) سورة يونس، الآية: ٥.

أنت تبيع أحياناً ما عندك من البقل، فأنت حقاً بائع البقل، فهل أنت إذاً بقّال!.. إنما البقال من شغله بيع البقل، وكذلك النبات - حين إطلاقه - لا يشمل كل نابت من الأرض، وإنما لقرينة خاصة كما هنا.

فهذه الآية ونظائرها توحي بالوحدة بين أصول الحياة الأرضية مهما اختلفت نشآتها وألوانها وأشكالها وأسماؤها، وكلها من نبات الأرض.

فالإنسان الأول نابت من تراب الأرض، ثم نسله كذلك منها، من ترابها ومائها وثمارها التي هي نتيجة التزاوج بين ما يخرج من بين الصلب والترائب، ثم في الرحم ينمو بأدواره وأطواره مما يصله من الأرض ونباتها، ثم يعيش - بعدما يولد - على هذه الأرض بما تنبت.

وإنباته نباتاً دون إنباتاً، خلاف ما يقتضيه بناء فعله، علّه للإشارة إلى أزدواجية خلق الإنسان: من فعله تعالى: «الإنبات» وهو الأصل في خلقه، ومن فعل الأرض الذي هو أيضاً راجع إلى فعله: «النبات» فهو أنبتكم منها، فنبتم منها نباتاً بفعلها وتفاعلها، وبما تزرعون وتأكلون فتولدون: فعل الله وفعل الخلق.

فالأرض الأم هي التي تلده بما تلده أمه، ثم تعيده في رحمها بعد انقضاء أجله، ثم تلده ثانية لحياة الحساب والجزاء.

ومن لطيف التناسب هنا أن السجود في الصلاة يفسر لنا عملياً هذه المراحل الثلاث، فالسجدة الأولى لله أن أنبتنا من الأرض نباتاً، نسجد شكراً له ولنشر برفع رؤسنا عن السجدة الأولى، إلى سبب الشكر: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ ثم نسجد ثانية، إشارة إلى الإعادة ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾ فالموت نعمة تتطلب الشكر كما الحياة نعمة، ثم نرفع رؤسنا ثانياً إشارة إلى الحياة والولادة الثانية والأخيرة التي نحاسب فيها فنجازى.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴿٢٠﴾﴾:

بما أن البسط هو النشر بعد القبض، وأن الجعل المتعدي لمفعولين هو

جعل الشيء شيئاً آخر في كيفيته وصورته، فجعل الأرض بساطاً يوحي أنها كانت منقبضة غير منبسطة، ثم جعلها الله منشورة للعائشين عليها، ولا سيما إنسانها: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ فلم تكن بساطاً قبلئذ، ولا صلباً، إذ كانت محترقة مذابة، ولا لها جو إذ كانت حارة محرقة، دون أن يعيش فيها مواد الحياة من الماء وأوكسجين الهواء، شرباً وتنفساً وإنباتاً.

إنها لم تكن لتسلك فيها سبل فجاج: الطرق الواسعة، التي يهتدى بها إلى متطلبات الحياة: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[1] فالسبل الفجاج في الصحارى وبين الجبال، إنما هي من حصائل بسط الأرض ونشرها، فقد ذلت الأرض بعد شماسها لنمشي في مناكبها ونأكل من رزقه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[2] ذلولاً بعد شماس، في ركوبها وسكنها وابتغاء الرزق فيها، وبصيغة عامة: الحياة المريحة عليها، في فجاجها السبل التي ما كانت مسبلة حين شماسها.

ثم البساط - وهو النمط الذي يمد على الاستواء فيجلس عليه - إنه يوحي برياحة التنقل في الأرض كما يتنقل الإنسان على بساطه.

فيا نبات الأرض، المفضل على كل نباتها! المدلل إلى كل خيراتها وبركاتها، المستنير بقمر السماء وشمسها ومطرها، أنت كيف تسمح لنفسك أن تكفر بربك رب العالمين ولا تستطيع التحلل عن نعمه أبداً؟.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾:

رب إنهم - على طول الدعوة وبعد هذا العناء الطويل والتنوير الوفير، والإنذار والتبشير، بعد هذا كله - إنهم عصوني في عبادتك وتقواك وطاعتي، واتبعوا الخاسرين المخسرين، الذين لم تزدهم نعمة المال والأولاد إلا خساراً

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣١.
(٢) سورة الملك، الآية: ١٥.

لسوء تصرفهم فيها، وغرورهم بها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾[١].

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾:

.. مكراً كباراً: متناهياً في الكبر، مستعملين فيه كافة أساليب التدجيل فقالوا ما قالوا.. ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أضافوا الآلهة إليهم إثارة للنخوة الكاذبة والحمية الحمقاء، كأنهم يُدعون إلى إله غريب عنهم، دخيل في آلهتهم، فلينكروه حفاظاً على الكرامة، وليتمسكوا بآلهتهم إبقاءً للقديم على قدمه واستدامة لعادة الآباء والجدود، ففي تخليهم عنها والإيمان بإله نوح، رفض لكيانهم وخروج عن كونهم حملة التراث، وأنهم أبناء آبائهم.

فإثارة الحميات والقوميات والطائفيات والعنصريات، لها دور كبير في المتمسكين بها، المتقيدين بأسرها، المفتخرين بها، بين المتحللين عن المثل العليا الأخلاقية، المفاخرين بما لغيرهم من اللاأخلاقيات، الماشين ممشاهم على العمياء.

والنص يلمح لدرجات ثلاث بين آلهتهم، أهمها «ود وسواع» إذ خصصا بالعطف بعد التعميم، ثم يغوث ويعوق ونسر، المذكورة في عطف وردف واحد، ثم بقية الآلهة الداخلة في عموم اللفظة.

طبقات في الآلهة هي معبودة طبقات[٢]، فالنظام الطبقي العارم بين الوثنيين كان سائداً بين آلهتهم أيضاً، ظلمات بعضها فوق بعض!

كما وحدة الإله بين الإلهيين أزالت النظام الطبقي بينهم مهما كانوا

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٨، ٢٩.

(٢) في تفسير علي بن إبراهيم: كان (ود) صنماً لكلب و(سواع) صنماً لهذيل وكان (يغوث) صنماً لمراد وكان يعوق صنماً لهمدان، وكان نسر لحصين.

درجات: حسب المساعي والخلقة، فشريعة التوحيد تأمرهم بحياة تضامنية أليفة تحكمها روح التوحيد والحنان والمحبة، كأنهم شخص واحد رغم اختلاف الأعضاء.

هذه الأصنام الخمسة - ومعها غيرها - كانت تعبد زمن نوح وحتى الرسالة الإسلامية التي قضت عليها فاجتثت من جذورها، إلا التي أفلتت منها أو نبش قبرها بعد الرسالة أو بُعدها، في القطاعات التي تحكمها الطواغيت.

ولقد تناصرت نعرات الجاهلية الأولى والقرن العشرين، في الحفاظ على الوثنيات وعبادة الطواغيت لكي يبقى الشيطان على كرسي الضلالة مهيمناً.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ حول الأصنام: أخشاباً وأحجاراً وأشخاصاً وأفكاراً، للصد عن شرعة التوحيد، بهذا المكر الكبار.

﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾: ضلالاً كجزاء لضلالهم، جزاءً وفاقاً، ضلالاً في قلوبهم بما ضلوا وزاغوا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[1] وضلالاً في سعيهم: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ وضلالاً في في الآخرة إذ يضلون سبيل الجنة إلى النار وبئس القرار، وكل هذه ردة عادلة لما ضلوا وأضلوا ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[2]؟.

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾﴾:

من خطيئاتهم تلك أغرقوا في الخسران ومنه غرقهم في الطوفان ومن ثم في النيران يوم البرزخ: الفترة بين الموت والقيامة.

---

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٢.

﴿أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ ففاء التفريع تفرع دخولهم ناراً على غرقهم بخطيئاتهم ومضي الفعل «أدخلوا» يصرح بسابق دخولهم النار، فلا يعني مستقبله يوم الحشر، وإنما بعد الموت دون فصل، فهذه الآية من آيات الحياة البرزخية بعذابها وثوابها، مع العشرات الأخرى من آياتها.

وفيما إذا سئلنا كيف تجتمع النار والماء، فهم غرقوا في الماء وأدخلوا في النار؟ فهل الماء يحمل النار، لا سيما تلك النار التي لا تبقي ولا تذر فكيف لم يغل الماء؟!

فالجواب: إن المعذب في البرزخ ليس الروح ببدنها الدنيوي الظاهر إنما ببدنها البرزخي الذي يساور الروح، فناره أيضاً برزخية غير ظاهرة، كثوابه، ولكلٍّ من العالم الظاهر والباطن حكمه، والثواب والعذاب البرزخيان، هما من الباطن بالأسباب الباطنة غير المحسوسة، ولكنها مدروسة حسب الوحي.

وشاهد علمي على ذلك أن المادة أياً كانت، إنها تحمل الطاقات الحرارية، وحسياً: الشجر الأخضر الذي تطلح منه نار فإذا أنتم منه توقدون: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[١].

فهذا الشجر يحمل خشب الوقود، وماء الإطفاء، ونار الإيقاد! رغم انحصار مفعوله في الدنيا، أفليس الذي يقدر على ذلك بقادر على إحراق الأجساد البرزخية بالنار البرزخية الكامنة في الماء وفي كل شيء مع اختلاف العالمين؟.

وإنما يحمل السائل المتعنت المستنكر على هكذا سؤال، جهله بالبدن المثاب والمعذب في البرزخ، وبماذا يثاب وبماذا يعذب؟ ثم تجاهله وإنكاره لهذه الشواهد الحسية والعلمية.

(١) سورة يس، الآية: ٨٠.

﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾: فمن ينصرهم من بأس الله بعد إذ غرقوا وأحرقوا، وإذ لم يكن أنصارهم بمنجيهم عن غرق الدنيا، فكيف ينجونهم من غرق البرزخ ولا تنال منه قدراتهم؟ فأين من أضلوهم وآلهتهم؟ ولينصروهم إذ هلكوا في سبيل الصمود على طاعتهم، ومعصية الله رب العالمين!.

ثم في آخر المطاف من دعوة نوح الطويلة - وبعد انقطاع الأمل عن إيمانهم وخيرهم، وحتى عما يخلفون من أمثالهم، وبعد التأكد أنهم مضلون كما هم ضالون - هناك يدعو:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾:

فإن صالح الإنسان في صلاحه أو صلاح نسله، فإذا فقد الجانبين إلى الإضلال فيهما، لم يبق لبقائه إلا فساد على فساد وسبحان الله عن هكذا إبقاء!

فقد لمح الوحي إلى نوح بمستقبلهم وذريتهم سنداً لما عرف عنهم في ماضيهم: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[(١)] فـ «لن» تنفي إيمانهم أبداً، ولزامه أن لا يلدوا إلا فاجراً كفاراً، وكما عن باقر العلوم عليه السلام[(٢)].

فقد كانت الأرض بحاجة إلى الإحياء بعد موتها، وإلى التطهير بعد قذارتها من الشر العارم الذي انتهى إليه القوم في زمنه، ولم يبق علاج في

(١) سورة هود، الآية: ٣٦.

(٢) القمي بسنده عن صالح بن ميثم قال: قلت لأبي جعفر الباقر عليه السلام: ما كان علم نوح حين دعا على قومه: أنهم لا يلدوا إلا فاجراً كفاراً؟ فقال: أما سمعت قول الله لنوح: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦].

تطهيرها إلا تدميرهم، إذ إن في بقائهم إضلال القلة القليلة ممن آمن معه، طوال ألف سنة إلا خمسين عاماً.

وفيما إذا سئلنا: كيف لا يلدون إلا فاجراً كفاراً، والإنسان أياً كان لا يولد كافراً مهما كان أبواه كافرين، وإنما الكفر والإيمان منذ التكليف لا الولادة؟

فالجواب: إن خبث النطفة إضافة إلى خبث الجو والبيئة، لا يلدان إلا فاجراً كفاراً، فإن الجو الفاسد الذي أوجدوه، والبيئة الضالة التي خلقوها، إنهما يوحيان بالكفر من الناشئة الصغار، فلا توجد فرصة لترى الناشئة نوراً، وقليل هؤلاء الذين يولدون من الظلمات ويعيشونها، ثم يخالفونها إلى النور، وقد ولد هذا القليل في هذه المدة الطائلة ولم يبق منهم أحد وفي أنسالهم أيضاً، فلا يعنى من ولادة الفاجر الكفار أنها منذ الولادة، إنما من حين التكليف، وإن كانت الولادة الخبيثة والجو الخبيث لهما دورهما الفعال في الكفر والفجور، فالولادة عن هكذا كفار، ثم ولادة ثانية تولدهم البيئة الكافرة لحد التكليف، ثم عفوياً الولادة الثالثة منذ التكليف، الناتجة عن الولادتين، هذه وتلك ليست إلا ولادة الفاجر الكفار: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾:

حينذاك كانت مناداة نوح ربه حقاً وفي محله ومرضياً عند ربه: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾[1] دون أن تكون مرضية للشيطان كما في مختلقات الروايات.

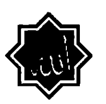
ثم يدعو للمؤمنين والمؤمنات مع نفسه ووالديه:

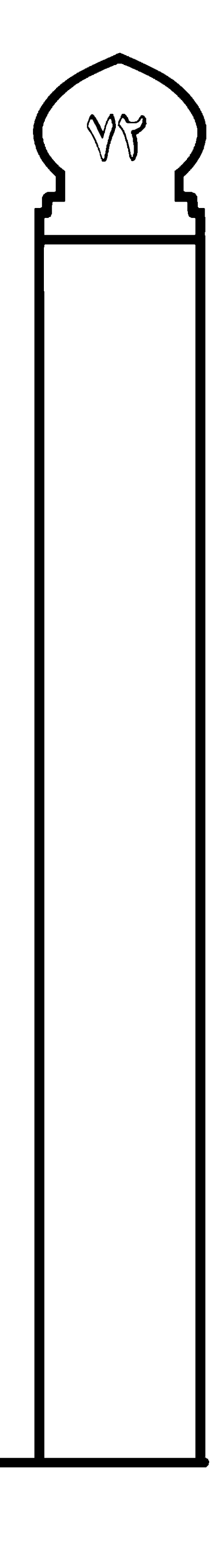
﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾:

دعاء على الظالمين مرتين يوسط بينهم دعاءه لنفسه ولوالديه، ولمن

(١) سورة الصافات، الآية: ٧٥.

دخل بيته مؤمناً، لما حان حين الغرق، فهم المؤمنون الجدد حينه وعند البأس، ثم للمؤمنين والمؤمنات طول الزمن، وهذا شعور عام بآصرة القربى على مدار الزمن واختلاف السكن دون أن يبعدهم بُعد الزمان والمكان، كما الدعاء على الظالمين عام على طول الزمن.





سُورَةِ الجِنّ



مكية - وآياتها ثمان وعشرون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ﴿١﴾ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ

عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾

هذه السورة تقرر حقيقة الجن وكيانهم وشعورهم نحو الشريعة ومشابهتهم الإنس في الأحكام إلا ما يفرقهم عنه افتراق الجنس، ثم هي تقف موقف الوسط بين الإغراق في الوهم ممن يزعمهم مسيطرين على الإنس، وبين الإغراق في الإنكار ممن ينفي حتى وجودهم، فتقرر أن لهم حقيقة موجودة، نتعرف إليها في طيات الآيات هنا وفي سائر القرآن، فمن ميزاتهم خلقهم قبل الإنس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾[1] وإنهم محجوبون عن الإنسان مبدئياً، يرونه ولا يراهم: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[2].

ومن ميزات الإنس استقلال الرسالة الإلهية فيهم دائماً دون تبعية للجن، ولكنما الجن تتبع الإنس فيها وكما ندرسه في هذه السورة.

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٢٦، ٢٧. (٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

ثم هما مشتركان في التكليف، والبعث والعقاب: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ . . .﴾[1] وأنَّ فيهم الجنسين يتكاثرون بالتناسل كالإنسان: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[2] ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾[3] وفي غير ذلك.

وهل فيهم أنبياء منهم، أم هم دوماً أتباع لأنبياء الإنس؟ نتبين ذلك وكثيراً مثله في هذه السورة:

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾:

فمن هؤلاء النفر؟ هل هم رسل الرسول محمد ﷺ إلى سائر الجن دون أن يوحى إليهم بشيء؟ أم هم رسل الله إليه ليستمعوا منه وحي القرآن، دون أن يستقلوا بوحي الرسالة الإسلامية ولو تبعاً للرسول، وإنما أوحي إليهم ليستمعوا منه القرآن فيولوا إلى قومهم منذرين؟ قد يلمح القرآن إلى وحيهم هذا: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾[4].

فلا يعني صرف الله تعالى نفراً من الجن إلا وحيه إليهم أن ينصرفوا إلى الرسول ﷺ، ولو لم يكن الوحي والرسالة مختومين بالرسول محمد، لجاز استقلال رسل الجن بالوحي، كما قبل الإسلام تلميحاً من الآية: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.
(٢) سورة الجن، الآية: ٦.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٥٠.
(٤) سورة الأحقاف، الآيات: ٢٩-٣٢.

هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ...﴾[(١)] وتصريحاً من آيات تكليفهم وقد خلقوا قبل الإنسان، فهل يا ترى كانوا قبلئذٍ مكلفين دون وحي؟ أم بالوحي إلى أشخاصهم أجمع؟ أم إلى بعضهم وهو الصحيح، وآية المعشر تعمم الرسالة الإلهية لقبيلي الجن والإنس منذ كانوا، فليكن منهم رسل قبل الإنس ومع الإنس، فـ «منكم» الدالة على الجنس توحي بكون الرسل في كل منهما من نفسه لا سواه، فلو كان رسل الجن هم من الإنس لم يقولوا: «شهدنا» كما العكس أيضاً كذلك.

ثم بلوغ الحجة الإلهية لا يتم إلا أن يبعث لكلٍّ رسولٌ منهم، مهما كانت رسالته أصيلة، أم تبعاً لرسالة الإنس، أم رسالة إلى رسول الإنس ليأخذوا عنه كما في الرسالة المحمدية.

لذلك نجد القرآن يحتج - فيما يحتج - على منكري رسالة البشر، أنها من دعائم الحجة عليهم، فلو أرسل إليهم ملائكة لاعتذروا باختلاف الجنس: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[(٢)] ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[(٣)] ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ﴾[(٤)].

إذاً فمن المؤكد أن من الجن رسلاً ولا سيما قبل خلق الإنس، ثم بعده وقبل وحي القرآن عل رسالة الجن كانت تبعية لرسل الإنس كما تلمح إليه آيات الاصطفاء: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾[(٥)] وأما

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٥.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١١١.
(٥) سورة الحج، الآية: ٧٥.

مع الرسالة المحمدية وحتى القيامة فوحي الرسالة منقطع وحتى عن أهل عن أهل بيت الرسالة فضلاً عن الجن، اللهم إلا وحياً يحمل الانبعاث إلى الرسول محمد ليحمل عنه رسل الجن ما حملوه من وحي القرآن، فهم خلفاء الرسول في هذه الرسالة، كما عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قول جني انساب إلى منبر علي عليه السلام فتطاول وسلم عليه عليه السلام وقال: أنا عمرو بن عثمان خليفتك على الجن، قيل له عليه السلام: فيأتيك عمرو وذاك الواجب عليه؟ قال: نعم»(١).

وأما النفر من الجن المبعوثون من الله إلى الرسول، فلم يكونوا أكثر من تسعة أنفار كما توحيه لغة النفر، وأن نفرهم هو انزعاجهم من الجو الطائش إلى أمان الوحي بأمر الله لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون كما فعلوا، وقد سماهم علي عليه السلام، وإنهم كانوا من أشرافهم(٢) ولقد ناب على عليه السلام الرسول في تعليمهم(٣).

---

(١) نور الثقلين ٥: ٤٣٣ ح ١١ عن جابر عنه عليه السلام وفيه عن أبي حمزة الثمالي عنه عليه السلام: هؤلاء وفد شيعتنا من الجن جاؤوا يسألوننا عن معالم دينهم (ح ١٢).
وفيه عنه عليه السلام أولئك إخوانكم من الجن أتوا يستفتوننا في حلالهم وحرامهم كما تأتوننا وتستفتوننا في حلالكم وحرامكم (ح ١٥)
وكذلك (ح ١٦).

(٢) نور الثقلين ٥: ٤٣٥ ح ١٨ عن احتجاج الطبرسي روى موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي عليه السلام أن علياً عليه السلام قال لبعض اليهود: إن الشياطين سخرت لسليمان وهي مقيمة على كفرها، وقد سخرت لنبوة محمد الشياطين بالايمان فأقبل إليه من الجن التسعة من أشرافهم واحد من جن نصيبين والثمان من بني عمرو بن عامر من الأحجة، منهم شضاة ومضاة والهملكان والمرزبان والمازمان ونضاة وهاصب وهاضب وعمرو، وهم الذين يقول الله تبارك وتعالى اسمه فيهم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] وهم التسعة ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

(٣) المصدر ح ١٧ القمي في حديث: فجاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأسلموا وآمنوا وعلمهم رسول الله شرايع الإسلام، فأنزل على نبيه ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾.. السورة كلها، فحكى الله قولهم وولى عليهم رسول الله منهم، وكانوا يعودون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كل وقت، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمير المؤمنين عليه السلام أن يعلمهم ويفقههم، فمنهم مؤمنون وكافرون وناصبون ويهود ونصارى ومجوس وهم ولد الجان.

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾: والعجب ما لا يعرف سببه، وكل ما يقرأ على الإنسان ويسمعه يعرف سببه اللفظي والمعنوي، وإذ لا يعرف سبب هذا القرآن فهو إذاً خارق للعادة، وسببه غيب عن المعرفة والاكتناه، فإنه الله الذي لا يعرف بالذات مهما عرف بالآيات.

﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾:

إنه: قرآن، عجب، يهدي إلى الرشد، أمور ثلاثة فيه تدفعنا إلى الإيمان به، فما كل عجيب يهدي إلى الرشد فإن الشعوذة والسحر أيضاً عجب مهما عرف سببه لأهله، وما كل ما يهدي إلى الرشد عجب، ثم ليس كل هاد عجيب مما يقرأ، فهذا القرآن يجمع بين إناقة الظاهر وعملاقته قرآناً يلفظ ويسمع، وبين العجب في كيانه قلباً وقالباً غير مألوف، يثير الدهشة في القلوب، ذو سلطان على المشاعر الحية، وذو جاذبية غلابة، وبين هدايته للرشد عقلياً وفطرياً وأخلاقياً وعلمياً وثقافياً وفي كلما تتطلبه الحياة الإنسانية الخالدة.

هذه الميزات للقرآن يتفرع عليها الإيمان: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾ إيمان بمن أنزله، وكفر بمن سواه، اللهم إلا من يدعو إليه كذريعة للإيمان.

فالإيمان بالقرآن، فبمن أنزله ومن أنزل عليه، إنه استجابة طبيعية مستقيمة لسماع القرآن وعياً في النفس، دون حاجة إلى حجة سواه، بل هو حجة الحجج، تدل كالشمس في رايعة النهار، دلالة رائعة فائقة العادة على من أنزله ومن أرسل به.

وأما أنهم كيف اجتمعوا بالرسول لاستماع القرآن، هل الرسول ﷺ ذهب إليهم؟ أم هم انصرفوا إليه؟ آية صرفهم وحضورهم توحي بالأخير: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ ... فَلَمَّا حَضَرُوهُ ... فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[1].

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٩.

وهي تلمح أيضاً أن النفر هم وحدهم حضروه دون سواهم، وتقول الروايات أن الملتقى كان بحراء ولم يكن معه من الإنس أيضاً أحد، ملتقى خالياً عن الأغيار[١].

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾:

﴿وَأَنَّهُۥ﴾ ضمير الغائب هذا للشأن، وكما في الآيات التالية أيضاً: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾: استعراضات رسل الجن لقومهم بشأن الرسالة القرآنية، وما كان منهم قبلها، وكذلك قيام عبد الله (أي النبي) بهذه الرسالة السامية.

ف ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ فاعل لـ ﴿تَعَٰلَىٰ﴾: جملة وصفية تعني: تعالى عظمة ربنا عن اتخاذ الشركاء، لا: أنه «الله» تعالى، جد لربنا، رجوعاً لضمير الغائب إلى الرب، ليعني أن الله تعالى هو جد لرب الجن، فربهم حفيده، ولزامه اتخاذ الصاحبة للتوليد، واتخاذ الولد ليولد الرب الحفيد، وهم يصفونه بنفي الصاحبة والولد! ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾.

فهل أن رسل الجن، المبعوثين من الله لحمل الرسالة الإسلامية إلى قومهم، هل كانوا منحطين عقلياً لهذه الدرجة، لكي يعتقدوا بأن الله جد لربهم، في حين ينفون عنه الصاحبة والولد، فالجد له صاحبة وولد وحفيد، فكيف الجمع بين هذين المتناقضين؟ وهم يحيلون الإشراك بربهم قبل هذا التقرير: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ والله يقرهم على هذه التقارير، وهم أنفسهم

(١) نور الثقلين ٤٣٠: ٤ عن علقمة بن قيس قال: قلت لعبد الله ابن مسعود من كان منكم مع النبي ﷺ ليلة الجن؟ فقال: ما كان منا معه أحد، فقدناه ذات ليلة ونحن بمكة فقلنا: اغتيل رسول الله ﷺ أو استطير فانطلقنا نطلبه من الشعاب فلقيناه مقبلاً من نحو حراء فقلنا: يا رسول الله! أين كنت؟ لقد أشفقنا عليك وقلنا بتنا الليلة بشر ليلة بات بها قوم حين فقدناك، فقال: إنه أتاني داعي الجن فذهبت أقرئهم القرآن، فذهب بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، فأما أن يكون صحبه منا أحد فلم يصحبه.

يسفهون جماعة منهم قالوا على الله شططاً، ومن أردئه أن لله صاحبة وولداً: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ فما روي عن الصادقين عليهما الصلاة والسلام: أنه شيء قاله الجن بجهالة[1] إنه هو جهالة مفتعلة على الإمامين عليهما السلام، ممن يجهلون معاني كلام الله، وهنا نعرف مدى وجوب عرض الأحاديث على كتاب الله ليعلم الغث من السمين والخائن من الأمين.

ثم الجدّ لغوياً هو العظمة كما في الحديث «كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة جدّ فينا» وهو القطع، وسمي الفيض الإلهي جداً، وهو الحظ والغنى كما في الحديث «قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء، وإذا أصحاب الجد محبوسون» وهو الجلال كما في الحديث «تبارك اسمك وتعالى جدك»: إشعاءات عدة من هذه اللفظة الواحدة وكلها تناسب المقام.

فالله سبحانه متعالي العظمة عما يصغره بصاحبة وولد، ومتعالي القطع، منقطع عن مجانسة المخلوقين وقريب منهم بعلمه وقيوميته، ومتعالي الغنى عما يفقره إلى الشركاء والأنداد والصواحب والأولاد، ومتعالي الجلال عما يُذلّله بصغار، لا تبديل لجده إلى غير جد كالمخلوقين أياً كان جدهم ومهما كان فإنهم صغار وإلى صغار.

فاتخاذ الصاحبة والولد والشركاء ينافي علو جده، فما أحسن شعور رسل الجن باستعلاء الله تعالى عن اتخاذ الأنداد والأضداد، وما أقبح اللاشعور من مختلقي الأحاديث على الصادقين عليهما السلام أن هذه من جهالات الجن!.

هنا الجن تكذب خرافة أسطورية جارفة هي أن الملائكة بنات الله جاءته من صهر مع الجن ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[2]، وكانوا هم أحرى أن

---

(١) نور الثقلين ٥: ٤٣٥ عن القمي والخصال عنهما عليهما السلام ح ١٩، ٢٠، ٢١.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٥٨.

يفخروا بهذا الصهر لو كان، ولكنهم في هذه الآيات قذفوا هذه الخرافة المصدقة لتصورات المشركين ممن زعموا أن لله صاحبة وولداً، وكما أن سفهاءَ الجن كانوا يتقولون على الله من هذه الترهات والشطحات.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾:

والقول الشطط هو المفرط في البعد عن الحق، كشط النهر حيث يبعد عن الماء بحافته، وما أبعد شطط هذه القطاعة السفيهة من الجن عن هؤلاء الرسل منهم في استبعادهم وإحالتهم الكذب على الله من قبيلي الإنس والجن، وهي عصمة في التفكير والعقيدة، وطهارة بالغة في القلب، ولكنها يجب أن تعدل بالوحي لكي لا يضلوا بحسن الظن، فكان لا بد لهم من وحي القرآن ليدلهم على ضلالات الإنس والجن ليجتنبوها، كما يدلهم إلى صراط الحق ليسلكوه.

وقد يقال: إنهم قبل سماع القرآن كانوا يتبعون سفهاءهم في شططهم على الله، لحسن ظنهم بالإنس والجن كافة، ثم اتضح لهم كفرهم فآمنوا، ولكنه يتنافى وابتعاثهم الإلهي رسلاً للجن، وإن الجن كانوا طرائق قدداً ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾.

فهل يا ترى أن الله تعالى انتجب لرسالة الجن غير الصالحين المسلمين مع من فيهم من الصلحاء؟ كلا! وإنهم كانوا أصلح الصلحاء منهم، على ظنهم أن لن تقول الإنس والجن على الله شططاً، وعلهم ما كانوا ليختلطوا معهم، ثم بعد المخالطة عرفوا أنهم على شطط وفي مقالة الكذب، وزادهم الوحي عرفاناً بالحق والباطل.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾:

﴿بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ دليل أن فيهم نساء فلهم ذرية، و﴿كَانَ رِجَالٌ﴾ يوحي

بعلمهم بسابق الرهق والتضليل في سفهاء الجن، قبل أن يسمعوا القرآن، فظنهم أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً، أنه يسبق هذه المعرفة، فرسل الجن هؤلاء على طهارة قلوبهم وصفاء ضمائرهم في حياتهم، لقد مضت عليهم حالات ثلاث:

١ - ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

٢ - ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا . . . وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

٣ - ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا (١) يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا (٢)﴾.

فهم إذاً - طول حياتهم - كانوا بريئين من الشرك والشطط والكذب على الله.

ثم إن العوذ بغير الله هو إشراك بالله، وإنما يستعاذ بالله ممن سواه، ولقد كان العوذة بالجن بين الجاهلين سنّة، زعم أن للجن قدرة مستقلة على النفع والضر، فهم محكّمون في مناطق من العالم، فكان رجال من الإنس يستعيذون برجال من بأس أشرارهم وشرهم، رغم أن هذه العوذة الجاهلة الملعونة ما زادتهم إلا رهقاً واضطراباً وضلالاً وحيرة وقلقاً تنوش قلوبهم المقلوبة الراكنة إلى الأعداء الضالين: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ وهذا هو الضلال البعيد أن يستعاذ بالشرير من شره ومن أشرار حزبه، ولا يستعاذ بالله الذي خلقهم وبيده ناصية كل شيء!.

فالقلب حين يلجأ إلى غير الله طمعاً في نفع أو دفعاً لضر، لا يناله إلا زيادة الضر والرهق ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[١].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

هذه العوذة العارمة ترهق المستعيذ والمستعاذ به ﴿فَزَادُوهُمْ﴾: رجالُ الإنس رجالَ الجن وبالعكس، وضميرا الغالب يتحملان كلا الاحتمالين، فالمستعاذ به يغتر بهذه العوذة فيزداد ضلالاً وإضلالاً، كما المستعيذ يزداد رهقا وعذاباً.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾:

﴿وَأَنَّهُمْ﴾ هؤلاء الرجال الضالون من الإنس ﴿ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أنتم الرجال من الجن، ضلال كضلال وظنّ كظن: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[1].

أو ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ رجال الإنس والجن الضالون السابقون ﴿ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أنتم الموجودين من القبيلين، خطاباً لهما من رسل الجن، عرفه الجن بما خوطبوا والإنس بما نزل به القرآن:

﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾: لا بعث النبوة في حياة التكليف، ولا بعث الحياة الأخرى في حياة الجزاء!! ترى كيف يجتمع الظن و«لن» وهي تُحيل البعث والظن يرجّح عدمه؟ الجواب أن «ظنوا» يحكي عن واقع ما في أنفسهم، إذ لا سبيل لليقين بعدم البعث: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[2] و«لن» تحكي عما يدعون من العلم بعدم البعث، وعما يشهد له واقع أعمالهم وتصرفاتهم كأنهم على علم مما يظنون! وإن هم لا يظنون.

هذا ظنهم دون سناد إلى شيء، فكما العلم بحاجة إلى سبب كذلك الظن، وهناك العقل والنقل والفطرة تدلنا على ضرورة البعثين كما نراها في طيات آياتها.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٤.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾:

هنا رسل الجن يستعرضون لمسهم السماء للاستماع إلى الملإ الأعلى، أنهم كانوا يقعدون منها مقاعد للسمع دون حرج ولا حظْر ولا خَطَر، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً، فهل إن الحرس الشديد والشهاب الرصد شيء جديد؟ آيات الشهب تقول إنها كانت منذ خلقت سماء الأنجم والشياطين الذين كانوا يسمّعون إلى الملإ الأعلى!

أم إنما حصل جديداً هو ملءُ السماء حرساً شديداً أو شهباً، مهما كانوا موجودين قبل ذاك دون شدة وكثرة؟ آيات الشهب لا تنفي الكثرة السابقة، بل وقد تلوح إليها!: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾﴾[1]!

إذاً فهل الجديد منع الجن عن السماء بعدما كانوا يلمسونها؟ آيات الشهب تصرح أن السماء بالملإ الأعلى كانت ممنوعة قبل ذاك أيضاً! فما هو التوفيق؟

الجواب في كل الأطراف المعنية واضح وضح النهار، من الآيات أنفسها: فآيات الشهب الثاقبة، إنما تختصها بدحر الشياطين المتسمعين للملإ الأعلى، المسترقين السمع وليس لهم، وأما الجن المؤمنون ولا سيما رسلهم الكرام فلا تمنعهم: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾[2] ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ

(١) سورة الصافات، الآيتان: ٨، ٩.
(٢) سورة الصافات، الآيات: ٦-١٠.

ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾[1] ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾[2].

فلا الجن المؤمنون المتسمعون للملإ الأعلى، ولا الإنس الذين لا يقدرون التسمع، لم يكونوا ممنوعين ومدحورين، وقد كان لرسل الجن هؤلاء مقاعد خاصة في السماء عند الملإ الأعلى فيها يسمعون، وكان حقاً لهم بما هم رسل يستمعون الوحي ثم يولّون إلى قومهم منذرين، فلما ابتعث خاتم المرسلين محمد ﷺ مُلِئت السماء كل السماء حرساً شديداً ومن الشهب الرصد، السماء كل السماء، وفي مقاعد الجن المؤمنين أيضاً، ولأن الوحي ختم بعد النبي، وفي وحي القرآن كفاية عما كانوا يستمعون، وزيادة عما كانوا يأملون، فكان ولا بد من أن تملأ السماء حرساً شديداً وشهباً تدحر الجن كافرين ومؤمنين.

فالذي حصل جديداً زمن النبي الجديد أن السماء مُلِئت حرَساً شديداً، وفي مقاعد الجن المؤمنين أيضاً، بعدما كانت خالية عنهم آمنة من دحرهم، وشهاباً رصداً لهم يمنعهم عن التسمُّع إلى الملإ الأعلى منعاً، دون مسٍّ من كرامتهم، أو عذاب لهم واصب، أو شهاب ثاقب يثقبهم كما كانت لمردة الجن الشياطين، إنما حرسٌ شديد وشهاب رصد لصدّهم عن التسمّع إلى أسرار الملإ الأعلى إذ عُوّضوا عنها بوحي أعلى يصدرونه عن الرسول الخاتم محمد ﷺ.

هنا الجن يقرّون أن الرسالة المحمدية منذ بزوغها هي التي ملأت السماء حرساً شديداً وشهباً، لا منذ ولادته ﷺ إذ قالوا: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ﴾: قبل الآن ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ والآن هو آن استماعهم للقرآن لا آن ولادة نبي القرآن.

---

(١) سورة الحجر، الآيات: ١٦-١٨.

(٢) سورة الملك، الآية: ٥.

هذا - ومن الجائز كون تجنيد الحرس الشديد والشهاب الرصد، منذ ولادة الرسول، كذلك وملء السماء وفي مقاعد الجن المؤمنين دون تعرّض لهم، ثم منذ الرسالة ونزول القرآن أخذوا في تنفيذ الأوامر الباتة لدحر المتسمعين من الجن كافرين ومؤمنين سواء.

فالنيازك النارية الراصدة بحرسها الشديد، تحرق مردة الجن المسترقين للسمع دائماً، وتنبه المؤمنين منهم، ولا ريب أنهم تركوا لمس السماء بعد إذ عرفوا أنهم ممنوعون، تركوه بدافع الإيمان ولا سيما أنهم مرسلون، ثم سائر المؤمنين منهم مهما أخطؤوا في لمس السماء لاستماع أخبارها، فعلّهم لا يثقبون بالنيازك الشهب كما تثقب مردة الشياطين، وإنما يدحرون دحراً أو ينبهون مرة تلو الأخرى، ولكي يختص الوحي وأخبار السماء بالرسول الختم، ثم لا خبر ولا وحي بعد ارتحاله ﷺ وإلى القيامة الكبرى.

فحريٌّ بهؤلاء الرسل الكرام أن يحتاروا في أمرهم: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذ انقطع عنهم خبر السماء ووحيه، وكانوا - كرسل - يصدرونه إلى أهل الأرض من الجن، أشر أريد بهم؟ فظلوا في فتور الوحي أو فترته: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾: بما علّه يعوّضهم عنه بما فيه رشدهم وأكثر مما كان، فليس انقطاع خبر السماء رشداً لأهل الأرض إلا إذا عوّض عنها بما هو أرشد وأحرى، وكما قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا. . .﴾.

فلم تكن أخبار السماء عجباً كما القرآن عجب، فقد أراد ربهم بهم فيه رشداً.

فما روته الرواة خلاف النص أو الظاهر من هذه الآيات نضرب بها عرض الحائط، كما يروى أنه حيل بين الشياطين وبين خبر السماء[1]، وكما

(١) رواه الواحدي بإسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم، انطلق رسول الله في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل =

اختلق على علي عليه السلام أن الشياطين ما كانوا محجوبين عن السماء وإنما حجبوا عنها لما ولد الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم [(١)]: غلطاً على غلط حيث المنع كان منذ الرسالة لا الولادة، والممنوعون هم مؤمنوا الجن بعدما كان لهم مقاعد للسمع، وأما كفارهم فقد منعوا منذ كانوا وكان الملأ الأعلى!، وعجيب من أصحاب الحديث كيف يسجلون هذه الأحاديث المخالفة للآليات كأنها وحي نزل، وكأن القرآن فرع بها يؤوّل، ونحن لا نذكرها إلا رداً لها على كتاب الله وليذّكر أولو الألباب!.

نكات على ضوء هذه الآيات:

١ - هناك في السماء ملأ أعلى هم أعلى محتداً ومنزلة، مِن سواهم من الخليقة، مُلئوا من أسرار السماء ويتحدثون دوماً عنها، كان الجن المؤمنون، أو رسلهم بوجه خاص، يستمعون إليهم فيرجعون إلى قومهم منذرين، دون الجن الشياطين الذين لا يرجعون بما يسرقون إلا بكل تدجيل وتضليل.

= بين الشياطين وبين خبر السماء فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب، قالوا: وما ذاك إلا من شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبي وهو بنخل عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر. فلما سمعوا القرآن استمعوا وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء فرجعوا إلى قومهم وقالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنّا به ولن نشرك بربنا أحداً، فأوحى الله إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١] ورواه البخاري ومسلم أيضاً في الصحيح.

أقول: مهما رويت هذه الرواية في الصحيح وسواه فهي غلط إذ تنافي نصوص القرآن - تأمل.

(١) نور الثقلين ٥: ٤٣٦ ح ٢٤ عن احتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام: (و لقد رأيت الملائكة ليلة ولد تصعد وتنزل وتسبح وتقدس وتضطرب النجوم وتتساقط علامة لميلاده، ولقد هم إبليس بالظعن في السماء لما رأى من الأعاجيب في تلك الليلة، وكان له مقعد في السماء الثالثة والشياطين يسترقون السمع، فلما رأوا العجائب أرادوا أن يسترقوا السمع فإذا هم قد حجبوا عن السماوات كلها وقد رموا بالشهب جلالة لنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ - إن في الجن رسلاً كما في الإنس، ولكنما الرسالة الأصيلة هي لرسل الإنس، كما يوحي به انقطاع وحيهم منذ الرسالة الإسلامية، فلو كانوا مستقلين فيها لكان منهم خاتم يحمل الوحي الخالد كما منا خاتم.

٣ - في حرمان رسل الجن عن الوحي مع الأبد، منذ بزوغ وحي القرآن، دلالة ناصعة أنه خاتمة الوحي، لا كتاب بعده ولا نبوة بعد نبوته، وختم الوحي والرسالة هو الرَّشَد الذي أراده الله بمنع التسمع إلى الملأ الأعلى عن رسل الجن: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

٤ - السماء الملموسة لرسل الجن هي سماء الأنجم وهي الاولى من السبع، حيث ترى الشهب الثاقبة والنيازك النارية، ولا ريب أنها في الأولى، إذ ليس غيرها مرئية لنا حتى الآن ولا بالعيون المسلحة، ومن لمسهم السماء ودحرهم عنها نعرف أن سكنى الجن هي الأرض بجوّها، بخلاف الملائكة.

٥ - يوحي التنديد بالعائذين بالجن، كما تفرضه حكمة الله وعدله: أن لا سلطان للجن على الإنس ولا من شياطينهم إلا كيداً: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1] فمن الظلم أن يفسح المجال للجن أن يؤذوا الإنس وهم لا يرونهم، ولا حيلة لهم في الدفع عن أنفسهم وأعراضهم، وليست فكرة تدخّل الجن في البعض من أمور الناس وحالاتهم وتخبّلهم بهم إلا خرافة أسطورية قضى القرآن على أمثالها.

٦ - الحرس الشديد الجديد عند بعث النبي الجديد، يوحي بأن الحراسة ما كانت قبلئذٍ بتلك الشدة، إذ كان الجن المؤمنون يستمعون إلى الملأ الأعلى في مقاعد لهم خاصة، وكانت مردة الشياطين منهم يسترقون شيئاً مّا مهما لاقوا من دحر وعذاب، لكنما الرسالة المحمدية الختمية أوجبت حصر الوحي به ودحر من سواه، سواء أكان استماعاً حرّاً كما كان

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٦.

للمؤمنين، أم استراقاً كما للشياطين، فالكل محرومون عن كل أسرار السماء إلا من طريق الرسالة المحمدية، حيث الجن الرسل يُصدون عنه.

فالأجهزة الدفاعية السماوية من الشهب والنيازك النارية والحرس الشديد، تنفّذ أمر الله تعالى وإلى يوم القيامة الكبرى، فمن ادعى بعد الوحي المحمدي وحياً وبعد رسالته رسالة وبعد كتابه كتاباً فهو دجال كذاب.

٧ - لا ندعي أن أهداف الشهب تختص بدحر الجن، وإنما هو من أهدافها التي كنا نجهلها كما جهلنا الجن، وكما يجهل العلماء حتى الآن أهداف هذه الشهب، فهل من العقل إنكار المجهول من أسرار الكون وأكثره مجهول؟! إن المتفلسفين الذين يحاولون تفسير هذا الكون وارتباطاته في كافة زواياه ومجالاته، إنهم ظلوا يتعثرون كالأطفال الذين يصعدون جبلاً شاهقاً لا غاية لقمته، محاولة حل لغز الوجود، وهم لم يتقنوا بعدُ أبجدية الهجاء من كتاب التكوين الغامض الفائق العقول.

لقد ظلوا مرتكسين في تصورات لهم مضحكة حين نقرنها إلى التصورات الواضحة البديعة الجميلة التي ينشئها القرآن، فتلك منهم مضحكة بعثراتها ومفارقاتها وتخلخلها وقزامتها إلى عظمة الوجود، وهذه عريقة عميقة إلى غير الحدود، فإنها من خالق الكائنات، سبحان الخلاق العظيم!

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾:

علّ الصالحين هنا هم الصالحون تماماً دون فساد وهم رسلهم، و﴿دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ يشمل دون الصلاح الشامل، من الصلاح الخليط بالفساد كمن دون الرسل من مؤمنيهم، والفساد التام دون صلاح كشياطين الجن، وفي كل من هؤلاء الثلاثة أيضاً صنوف، يوحي بهذا التقسيم ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ فلم يقل طريقين ليكون تقسيم الصالحين ودون ذلك ثنائياً كما يُزعم، إنما ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾.

وبما أن الطرائق جمع طريقة، والقِدَدْ جمع قِدة وهي المستمرة بالقَدّ في جهة واحدة، المشقوق طولاً، نستوحي أنهم كانوا ولا يزالون في مبادئ متباينة، كلٌّ يباين الآخر، كما المقدود يباين بعضه البعض، وبما أن أقل الجمع ثلاثة فطرائقهم المباينة إذاً: رسلهم ومردة الشياطين وبينهما المؤمنون على شتات درجاتهم، فلا رسل الجن يكفرون أو يفسقون، ولا شياطينهم يرسلون أو يؤمنون، ولا المتوسطون يشيطنون، وإن كان المرسلون يصطفون من بينهم ولا بدّ، ونرى القرآن هكذا يقتسم الجن إلى هؤلاء الثلاث ومنهم الشياطين وهم ذرية الشيطان الأكبر وذريتهم أيضاً، هم قِدة مستمرة في الكفر لا يؤمنون كأنهم من صنف آخر: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾(١) وهذه ميزة أخرى بين الجن والإنس، إذ لا نجد من الإنس من هم قدة مستمرة في الكفر بذرياتهم، فقد يولد مؤمن من كافر أو كافر من مؤمن.

هنا نكرر براءة رسل الجن عما ينسب إليهم أنهم كانوا ذيولاً لسفهائهم قبل سماع القرآن، سناداً إلى تفسير رديء لقولهم ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ رغم أنه يطهرهم للغاية كما أسبقناه، ثم هذه الآية تجعلهم من الصالحين تماماً منذ كانوا، مما يذود عنهم وصمة الغواية عن جهالة.

فهؤلاء الرسل الكرام، القدة الصالحة، مرسلون إلى من هم دون ذلك، إلى شياطينهم وسفهائهم لإلزام الحجة، والى من بين القدتين لإيضاح المهجة، ولئلّا تكون لهم حجة على الله بعد الرسل ولله الحجة البالغة.

وما أجمل هذا التقرير عن مصير الجن في بيئتهم: ازدواجية الطبيعة والاستعداد لكلا النجدين: الخير والشر، إلا من تمحّض منهم للشر وهو إبليس وقبيله بذريتهم، ومن تمحض للخير كرسل الجن، تمحضاً بالطبع

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

والسعي معاً، رغم التصور الغالط عندنا وحتى بعض الدارسين: أن الجن يمثلون الشر أياً كانوا! وأن الإنسان وحده بين الخليقة هو ذو طبيعة مزدوجة، كلا! إنهم كأمثالنا طالما اختلفوا عنا فيما استوحيناه مسبقاً، مما لا يجعلهم سابقين علينا ومسيطرين فينا، ولا شريرين تماماً، فهم مكلفون كما نحن، وهم طرائق قِدَد كما نحن إلا في شياطينهم الثابتين على قدتهم، فقد شبّه سبحانه اختلافهم في الأحوال، وافتراقهم في الآراء كالسيور المقدودة التي تتفرق عن أصلها وتتشعب بعد ائتلافها، حيث ائتلفوا منذ الخلقة إذ خلقوا من نار، ثم اختلفوا قِدَد النور والنار وبينهما متوسطات.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾:

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾: ظن القلب الذي يساور اليقين، لا ظن العقل الذي لا يغني، ولا يقبل من المؤمنين، و: ﴿لَّن﴾ المكررة هنا مرتين، الدالة على استحالة مدخولها، إنها أثبت قرينة أنه ظن القلب، فظن العقل، بل ويقينه - أحياناً - يتحمل فكرة تعجيز الله بأيّ معنًى كان، كما نلمسه ممن يدّعون الإيمان، وظنّ رسل الجن مما يُحيل هذه الفكرة، فليكن يقيناً عقلياً راجحاً.

وإنما يقتصر هنا بالظن، وجماعةٌ من رسل الجن هم من أهل اليقين في قلوبهم؟ لأنهم درجات، يجمعهم ظن القلب، مهما اختص البعض منهم بيقينه! . .

﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: يوحي أنهم من سكنة الأرض، وإن كان باستطاعتهم صعود السماء، وهنا يعترفون - رغم أوهام المشركين الظانين أن الجن شركاءُ الله وأنسباؤه - يعترفون أنهم يعرفون قدرة الله عليهم في الأرض، فلن يعجزوه فيها، بل ولا هرباً: هرباً من الحياة الدنيا، فإنهم ينتقلون بعد إلى برزخ الحياة وهم في قبضة الحي القيوم، أم هرباً من حياة الأرض إلى السماء فإلى أين يهربون إلا إلى ملكه وسلطانه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ

وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾(١) فلنفرض أن هناك منفذاً من أقطار السماوات والأرض، فإلى أين بعد؟ فهل إلا إلى سلطان الله وملكه؟

فهؤلاء - وهم رسل الجن - أقواهم بينهم - يعترفون بعجزهم عن الهروب من سلطان الله والإفلات من قبضته، والفكاك من قدرته، شاعرين بسلطان الله عليهم أينما كانوا، وعلى الخلق أجمع، فكيف بشياطينهم!

وعلى أثر هذا الاعتراف الصادق النابغ، النابع من قلوبهم الصافية الضافية، أصبحت حياتهم تحسساً وتجسساً عن الحق الصراح، النازل بوحي السماء:

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾:

إنهم سمعوا القرآن ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ﴾ وسمّوه هدى وهو هدى مزدوج، يهدي المتحسسين عن وحي السماء، إلى أنه وحي السماء، ثم يهديهم إلى رشد الحياة، فالإيمان به إذاً إيمان مزدوج، وليس تقليدياً، وإنما عن برهان، إيمان بوحيه وهداه.

﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ والإيمان بالقرآن إيمان بمن أنزله، فإنه تعالى تجلى بعلمه وهداه في قرآنه، فالناكرون القرآن إنما ينكرون الله أو يكذبونه لو كانوا يعقلون.

ثم هكذا إيمان متين مسنود إلى برهان مبين يزيل عن صاحبه كل خوف، ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾: بخساً: نقصاً على سبيل الظلم أو كل نقص، ولا رهقاً: شمول الاضطراب.

(١) سورة الرحمن، الآية: ٣٣.

لا يخاف في حياة الإيمان وسبيله واقع البخس ولا توقّعه، في مال أو جاهٍ أو نفس، فهي كلها فداء في سبيل الله، تجارة مربحة لا بخس فيها ولا نقص، ولأن الإيمان يؤمن الإنسان عن المخاوف ويُطَمْئِنه عن الإرهاق، وعلى حد المروي عن الإمام الرضا عليه السلام: «من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء».

ولا يخاف - كذلك - رهقاً: اضطراباً يشمله ولماذا يضطرب؟ ألفقد مغريات الحياة الدنيا وزخرفاتها؟ فما هي إلا متاعاً لتجارة لن تبور! يستبدل بها المؤمن مرضاة الله ورحماته في الدارين، فذكر الله تعالى يُطمئن القلوب ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1] فضلاً عن الإيمان المازج القلوب، التي أصبحت ذكراً لله إذ عاشت ذكره، داحرة ناحرة مَن سواه.

إنهم مهما شملهم بَخْسٌ أو رَهَق في الحياة الدنيا في سبيل الله، فلا يخافون، لأنهم الرابحون يوم الدين، فلن يبخس المؤمن حقه الثابت ولن يرهق، ومن ذا الذي يملك بخسه وإرهاقه وهو في حماية الله ورعايته، وحرمانه عن ملذات الحياة الدنيا ومغرياتها ليس بخساً ولا رهقاً بجنب ما يكسبه من رضوان الله والحياة الآخرة، فهو في راحة في ضميره ونفسه دنياً مهما ضحى بنفسه ونفيسه، وفي راحة شاملة في الآخرة: لا يخاف بخس الدنيا ورهقها، الواقع - لا محالة - للسالكين في هذه السبيل، يوم الدنيا، ولا يخافهما يوم الدين إذ هما لغير المؤمنين.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾:

يُلمح من تقسيمهم إلى المسلمين والقاسطين أن الجمع هنا: «أنّا» يشمل

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

الجن أجمع، لا خصوص المؤمنين أو الرسل منهم، فـ «أنّا» هنا تختلف عن «أنّا» هناك، بين خاصة برسلهم كـ ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ وعامة للمؤمنين منهم وعلّه: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ...﴾ وعامة للجن أجمع ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ فـ «أنّا» هنا وهناك وهنالك طرائق قِدَد في الشمول والخصوص كما الجن طرائق قِدد!.

ولئن سئلنا ما هو الفرق بين ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ و﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ وبين ما هنا ﴿ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ و﴿ٱلْقَٰسِطُونَ﴾؟

فالجواب أن ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ كما مضى هم رسل الجن، ودون ذلك يشمل كلا القاسطين، والمتوسطين بينهما من المؤمنين بدرجاتهم، ولكنما «المسلمون» يعم رسلهم والمؤمنين، و«القاسطون» يخص شياطينهم ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ فالمؤمن مهما كان فاسقاً ليس لجهنم حطباً، وإن أحرق بوقوده قليلاً أم كثيراً، ولكنه خارج عنها إلى رحمة الله، لإيمانه، فلا يضيع الله إيمانهم ولا يسوي بينهم والشياطين.

وبما أن التحري هو التعمل في قصد حَرَى الشيء وجانبه، نعرف أن مسلمي الجن إنما أسلموا فاحصين قاصدين الإيمان المفصل بالوحي بعد أن كانوا مؤمنين الإيمان المجمل بعقولهم الصافية وقلوبهم الضافية، فقد تحروا رشداً حتى جاءهم الرشد بوحي القرآن فآمنوا به غير مسيّرين ولا ناكرين ولا راغبين بالإيمان مالاً ولا منالاً، وإنما رشداً، كانوا يتحرونه حياتهم، وكلٌّ نال رَشده وهداه قدر سعيه ولباقته ولياقته، بين من أوحي إليه وحمل رسالة السماء على هامش رسل الإنس، وبين المؤمنين بدرجاتهم، بما أرسل إليهم رسلهم إذ ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[1].

فالإسلام - أياً كان - بحاجة إلى التحري والتفكير الصحيح للوصول

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٩.

إليه، دون الضلالة فإنها تتحرى الإنسان وهي قائمة على كافة الدروب، دون حاجة إلى أن يتحراها الإنسان، فالضلالة والقسط تخبّط عشوائي، ولا إنسانية بغير إدراك، والإسلام والإقساط اهتداء إلى الرشد في إنسانية التحري والتفكير ودحر الجهالات والتعصبات.

والقسط - خلاف الإقساط -: أخذُ نصيب الغير ظلماً، خلاف إعطائه عدلاً - كالضرب والإضراب - فالإسلام يتضمن الإقساط، إعطاء كل ذي حق حقه، حق الخالق والمخلوق، وحق المسلم نفسه، مستسلماً في هذه الحقوق لحكم الله، والقسط تجاوزٌ إلى حقوق الغير وأخذها ظلماً وعتواً، ويرجع إلى هدر الحقوق جماعية وفردية، خَلقية وخالقية، ولصاحب القسط قسط عظيم من قسطه، يكدّر حياته وهو يحسب أنه يحسن صنعاً!

﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾: «كانوا» لا «سوف يكونون» فهم حياتهم حطب جهنم، يؤجّجون نيران الخلافات والحرمانات والظلامات، في الحياة الدنيا، وبذلك سوف يكونون حطباً لجحيم الآخرة، تستدام النار بدوامهم، فكل نار لا بد لها من حشاش يحشها ووقود يقودها.

فالقاسط نارٌ عبر حياته هنا وهناك، والمُقسط جنة عبرها هنا وهناك ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[1].

والجن مهما كانوا مخلوقين من نار، فالقاسطون منهم يحرِقون ويحرَقون في جحيم النار بما يوحيه النص القرآني الذي نستمد منه تصوراتنا الإيمانية، فالتصورات الشاردة الماردة التي تُحيل أو تستبعد عذاب الجن بالنار، ليست صادرة إلا عن أفكار مادية ضيقة تعارض النصوص القرآنية والواقع الملموس أيضاً، إن كثيراً مما أصله النار يُحرق بالنار، والنار الأقوى كذلك تحرق الأضعف أو تزداده حرقاً، إضافة إلى أن الجن لم يظلوا ناراً وإنما خُلقوا من

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣٩، ٤٠.

نار، كما الإنسان المخلوق من التراب يقتله الحجر المخلوق من التراب، فهل من المستحيل - إذاً - أن مادة أقوى تصطدم مادة من جوهرها هي أضعف منها، مهما بقيت على حالتها، أو - بأحرى - تغيرت، كما الجن خلقوا من مارج من نار وليسوا الآن ناراً، ولو بقوا ناراً فنار الجحيم هي أقوى، وعلى أقل تقدير تزيد في ناريتهم فتحرقهم مهما لا تحرقهم نارهم الأصيلة، وكما في الإنسان أيضاً نار هي من شروط حياته، فلو زادت أصبحت النار نفسها من بواعث مماته كالحمى البالغة ذروتها، المجمدة للدم.

ثم من بعد ذلك فعدل الله وفضله وكلمته البالغة تفرض التسوية بين الجن والإنس، مؤمنين وكافرين، إلى الجنة على سواء والى النار على سواء، وكما تدلنا عشرات الآيات مصرحات، ومئات شاملات، فالحظائر المعدة بين الجنة والنار لمؤمني الجن وفساق الشيعة، المروية عن باقر العلوم عليه السلام هي مكذوبة مزورة عليه عليه السلام، مكتوبة بأيدي الجهل في البعض من كتب الحديث[1].

فآيات الجنة في سورة الرحمان تشمل الإنس والجان صريحة: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾[2].

ولقد أوحى التعبير في هذه الآيات أنها تحمل مقالات واعترافات رسل الجن، مزيجة من وحي العقل والإيمان ووحي السماء، ثم الله يؤيدهم في أن الاستقامة على طريقة الإسلام تسقيهم ماءً غدقاً يحييهم في عوالم الحياة كلها، فليس الإسلام المنقطع الفاشل بالذي ينجيهم، وإنما الإسلام المستقام:

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٣٧ القمي وسئل العالم عن مؤمني الجن أيدخلون الجنة؟ فقال: لا - ولكن لله حظائر بين الجنة والنار يكون فيها مؤمنو الجن وفساق الشيعة!.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤٦، ٤٧.

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾:

ونرى هكذا تتمة السورة أنها من كلمات الله تأييداً لرسالة الجن وتكميلاً لها في وحيها الأصيل إلى رسلهم ورسول الإنس محمد ﷺ.

وإن في ترادف آياته تعالى بما ينقله عن رسل الجن دلالة لطيفة على مدى تصديقه لهم في مقالاتهم النابعة عن وحي الإيمان ووحي السماء، وإنها مصدّقة كوحي القرآن لأنها نابعة عنه.

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ المسلمون من الجن وسواهم ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ المثلى التي تحروها، دون تزعزع وفوضى، وإنما الاستقامة: طلب القوام والقيام فيها من أنفسهم وسواهم ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ غزيراً: يمطر عليهم من سماء الرحمة روحانية وجسدانية: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[1] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[2].

إن الماء الغَدَق هناك، والبركات هنا، لا يخصان ماء السماء وبركاتها المادية فحسب، فإنها تعم المستقيمين وسواهم، وإن كانت لهم رحمة ولمن سواهم ابتلاء ونقمة، فهي تعم ماء الحياة الروحانية وبركاتها التي تخص المتقين المستقيمين دون سواهم، فلا تختص عوائد الإيمان وفوائدها الحياةَ الأخرى، بل إنها تعمها والحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى، فالبركات الروحية هي أولى وأحرى أن تسمى ماءً غدقاً وبركات إذ لا تخالطها دركات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٦.

تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[١] لذلك نرى الإمام جعفر الصادق عليه السلام يفسر الماء الغدق بالعلم الكثير، تفسيراً بما هو أحرى مصاديقه[٢].

ثم الماء الغدق المادي وبركاتها، هو جزاء المستقيمين من جهة، وفتنة لهم من أخرى، وكما جُعِلت غاية للإسقاء: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[٣] فالمستقيم في الفتنة، الذي لا تغريه بركات الدنيا ومغرياتها ولا تنسيه وتعرضه عن ذكر الله، هذا المستقيم تزداده الفتنة رحمة وإيماناً، وقليل ما هم الصامدون على الاستقامة في التَّرف والتَّرَح، ولذلك لا يعم الله سعة الأرزاق للمستقيمين أجمع، فأكثرها لمن يستقيم، ثم بجانبهم المعرضون عن ذكر الله الذين يبدلون نعمة الله كفراً ويُحلَّون قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار، هؤلاء الذين حياتهم هي الغفلة ويعيشون التخلفات، فالماء الغدق والبركات تصبح لهم دركات وتسلكهم عذاباً صعداً ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ ينفذه عذاباً صعباً.

من المؤمنين غير المستقيمين في الإيمان، والمستقيمين ما داموا فقراء فإذا سقوا ماءً غدقاً بغوا ونسوا الله، ومن القاسطين المستقيمين في القسط والبغي، هؤلاء شركاء في سلك العذاب الصَّعَد نتيجة الإعراض عن ذكر ربهم، كل على قدره - أعاذنا الله منه - فهم في العذاب الصعد فقراء وأغنياء، رؤساء ومرؤوسين، وليس إملاؤهم في أعمارهم وإمدادهم بأموال وبنين خيراً لأنفسهم: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٤] فإملاء المؤمن المستقيم هو

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٢) نور الثقلين ٥ : ٤٣٩ عنه عليه السلام معناه: لأفدناهم علماً كثيراً يتعلمونه من الأئمة.

(٣) سورة طه، الآية: ١٣١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

لازدياد الإيمان، ثم هو لغيره لازدياد الإثم فالعذاب الأليم، فحياته ومعيشته ضنك أينما حل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾(١) مهما لم يحس أم لم يبرز ضنك المعيشة في الدنيا، ولكنها في الآخرة محسوسة بارزة.

إن الحياة الدنيا كلها بكافة حالاتها ووجهاتها فتنة، فمنها خير ومنها شر: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(٢) ففتنة الخير تقدم الإنسان نحو الأكمل فالأكمل في الخير: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣) وفتنة الشر تدفعه نحو الأشر: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾(٤).

فالمؤمن المستقيم يفتن بالماء الغدق والبركات ليزداد إيماناً، وسواه يفتن بها أحياناً ويسواها أخرى ليزداد إثماً وله عذاب أليم، ويا لفتنة المؤمن بالبركات صعوبة صعداً، ثم تكون له ولمن معه رحمة.

فالابتلاء بالنعمة بحاجة ملمة ملحة إلى يقظة مستمرة تعصم من شر الفتنة، فنعمة المال كثيراً ما تقود إلى فتنة البطر والإعراض عن ذكر الله، ونعمة القوة كثيراً ما تقود إلى فتنة الطغيان والعصيان على الخلق والخالق، والتهجم على الحرمات والتجهم على بركاته، ونعمة الجمال كثيراً ما تقود إلى فتنة الخيلاء، ونعمة الذكاء كثيراً ما تقود إلى فتنة الغرور والاستخفاف بالآخرين، فلا تكاد تخلو نعمة من الفتنة السوء إلا من استقام فذكره الله فعصمه الله.

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.
(٣) سورة النحل، الآية: ١١٠.
(٤) سورة طه، الآية: ١٣١.

وكل ذلك بخلاف فتنة النعمة وابتلائها، الممتحن بها كثير من المؤمنين المستقيمين، فهي أخف من ابتلاء النقمة بكثير.

والعذاب الصَّعَد الصاعد في الصعوبة لحدّ كأنه نفس الصعوبة والصعد، إنه يخص المعرضين عن ذكر الرب، لا المؤمنين المستقيمين الذين يتلهون أحياناً بالبركات والماء الغدق، ما لم يصل الالتهاء إلى الإعراض عن الله، ولا سمح الله، وكرامة الإيمان - أياً كان - تمنع عن دركات الإعراض والعذاب الصَّعَد، والله من وراء القصد.

يختص الماء الغدق هنا من بين البركات لأنه أصل البركات، فأوّل أسبابها توافر الماء، فما تزال الحياة تجري على خطوات الماء، وما يزال الرخاء يتبع خطوات الماء حتى هذا العصر الذي انتشرت فيه الصناعة، فالماء له أهميته الحيوية والعمرانية عبر الحياة في عصورها.

ثم الارتباط بين حياة الاستقامة والرخاء حقيقة ملموسة لا تنكر، وإذا كانت هناك أمم غير مستقيمة على طريقة الله ثم تنال الوفر فإنها معذبة بآفات وعاهات أخرى هي أشد من الفقر، آفات في أمنيتها وأُمنيتها، في إنسانيتها وقيمها وكرامتها، التي تسلب عن ذلك الغنى والوفر حقيقة الرخاء، وتحيل الحياة فيها لعنة مشؤومة على كافة معاني الإنسانية ومثلها، كما أسلفناه في سورة نوح.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾:

عطف على الآية السابقة، المعطوفة على ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ...﴾ فما هي المساجد هنا، التي لا يدعى بها أو فيها مع الله أحد؟

المساجد جمع المَسجَد والمِسجَد والمَسجِد: أن تكون على الترتيب مصدراً ميمياً بمعنى السجدة، واسم آلة هي آلة وذريعة السجدة وسببها المؤول إلى الأدلّاء على الله والهادين إلى مرضاة الله وعبادته، واسم مكان

وهو ما يسجد فيه: «محال العبادة» وما يسجد عليه: «محال السجدة من الجبهة» وما يسجد به من «مواضع السجدة» واسم زمان: «المَسجَد والمَسجِد»: زمان السجدة، فهي كلها لله، والمساجد هنا في كلام الله تتحمل هذه كلها.

فكما السجدة - وهي غاية الخضوع - خاصة بالله، لا تعدوه إلى سواه، كذلك المواضع السبعة التي تسجد بها: من الجبهة والكفين والركبتين وإبهامي الرجلين، لا يسجد بها إلا لله، ولا تقطع في أية جريمة إلا ما شذ، وكذلك بيوت الله المعدة للصلاة، إنها لله، فلا يدعى فيها مع الله غيره، ولا تتخذ لغير عبادة الله، كذلك والراسخون في العلم المعصومون فلا يدعى معهم غيرهم أحد حيال دعوتهم إلا من يدعو بهم، وكذلك أزمنة السجدة المفروضة، المحددة فرضاً وندباً، إنها لله ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾[1].

وقد تتأيد هذه الاختصاصات بآيات بينات، كالتي تحصر السجود في الله، فالسجدة بما أنها غاية الخضوع لا تحق إلا للخالق الذي في غاية الرفعة، لا يشاركه فيها أحد حتى يشاركه في السجدة: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾[2] ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم﴾[3] وآيات السجود لآدم لا تعني أنه المسجود، وإنما سجدة الشكر لله لأجل آدم معلم الملائكة كما نسجد لما رزقنا الله وأنعم علينا وليس الرزق هو المسجود له، إنما هو الله والرزق مسجود لأجله، والتفصيل إلى سورة البقرة.

وبما أن الراسخين في العلم يفسرون القرآن تدليلاً على معانيه الخفية غير الظاهرة لنا أحياناً، نجد هنا أحاديث متظافرة عنهم عليهم السلام أن المساجد

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٣.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٧.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١٥.

هنا هي مواضع السجدة السبعة[١] وأنها منها، ومنها الأئمة استفادة لطيفة أنيقة من الآية إذ يتحملها مع سائر المساجد. ولكنها خفية بينها، والآية إذن تحمل بيان أحكام شرعية إيجابية وسلبية.

١ - ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ غاية الخضوع قلباً وقالباً تختص بالله، بكافة أنحائها وأنواعها ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ فلا تسجدوا لأحد من دون الله إذ لا أحد يملك ما لله من عز الألوهية والكبرياء، فلا أحد مع الله يداينه أو يساويه فكيف يسجد له، أتسوية له بالله فهي ضلال مبين: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[٢] فالتسوية بالله في أية مرحلة من مراحلها، إنها ضلال مبين، إذ ليس مع الله أحد في ألوهيته ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً حتى يسوى به أية تسوية، وإن كانت سجدة ظاهرة يقصد بها الاحترام، فاحترام رسل الله وأوليائه بالسجدة أو الركوع، احترام لكرامة الربوبية وضلال من جهتين: ترفيع العبد إلى مرتبة الرب، وتنزيل الرب إلى منزلة العبد وهو ضلال مزدوج يعتذر عنه الضُّلّال: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ وقد تضافرت الأحاديث عن الرسول الأقدس وأهل بيته الكرام أن السجود خاص بالله لا يعدوه إلى سواه[٣].

---

(١) نور الثقلين ٥: ٤٣٩ عن تفسير العياشي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه سأله المعتصم عن السارق من أي موضع يجب أن يقطع؟ فقال: إن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع فيترك الكف، فقال:

وما الحجة في ذلك؟ قال: قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: السجود على سبعة أجزاء الوجه واليدين والركبتين والرجلين، فإذا قطعت يده من الكرسوع أو المرفق لم يدع له يد يسجد عليها، وقال الله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] وما كان لله فلا يقطع.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

(٣) نور الثقلين ٥: ٤٣٩ عن أصول الكافي عن أبي الحسن عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] قال: هم الأوصياء. أحمد بن حنبل في مسنده ٤: ٣٨١ أن معاذاً لما قدم من اليمن سجد للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا معاذ! ما هذا؟ قال: إن اليهود تسجد=

٢ - بيوت الله المعدة لعبادته، إنها خاصة بالله، فلا تدعوا أحداً إلا إياه، وأنتم معه في بيته، فطالما تذكرون غير الله في بيوتكم وسواها، فاتركوه إلى ذكر الله في بيته، اللهم إلا ذكراً لأولياء الله متذرعين به إلى ذكر الله، فإنه أيضاً من ذكر الله، فلا تجعلوا مساجد الله نوادي لما ليس لله فيه نصيب، ولا متاجر وأسواقاً، إنما عبادة الله وما يرجع إليها وتقصد منه.

٣ - مواضع السجود، ما أعدت للسجود لله، فلا تصرف لمن سواه، ولا تقطع، وإنما يبقى منها ما يسجد بها لله، فالسارق لا تقطع يده إلا أصابعه لا كفه، فإنه من المساجد، ولا رجله إلا أصابعه فإنه من المساجد، وفيما إذاً تقطع الأيدي والأرجل من خلاف، فإنما المصلحة الراجحة الجماعية والحفاظ على كرامة المسلمين تقتضيه، وبالنسبة لمن لا يعرف السجود لله أم لا يعتقد، جزاءً المحاربة لله وعيث الفساد في الأرض، جزاءً وفاقاً، تقطع يده ورجله من خلاف لخلافه وتخلفه: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ

= لعظمائها وعلمائها ورأيت النصارى تسجد لقسسها وبطارقتها قلت: ما هذا؟ قالوا: تحية الأنبياء فقال ﷺ: كذبوا على أنبيائهم، وعن الثوري عن سماك بن هاني قال: دخل الجاثليق على علي بن أبي طالب فأراد أن يسجد له فقال علي عليه السلام: اسجد لله ولا تسجد لي، والجصاص ج ١ ص ٣٥ عن عائشة وجابر بن عبد الله وأنس أن النبي ﷺ قال: ما ينبغي لبشر أن يسجد لبشر ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها، ورواه ابن ماجة وأحمد بن حنبل في ٤: ٣٨١ و٦: ٧٦ و٥: ٢٢٨ من مسنده وروى ما في معناه أبو داود في سننه نكاح ٤٠. وفي تفسير البرهان ج ١ ص ٨١ عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: لما عرف الله ملائكته فضل خيار أمّة محمد وشيعة علي وخلفائه واحتمالهم في جنب محبة ربهم ما لا تحتمله الملائكة أبان بني آدم الخيار المتقين بالفضل عليهم ثم قال فلذلك فاسجدوا لآدم لما كان مشتملاً على أنوار هذه الحقائق الأفضلين ولم يكن سجودهم لآدم، إنما كان آدم قبلة لهم يسجدون نحوه لله عز وجل وكان بذلك معظماً مبجلاً ولا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد من دون الله، يخضع له خضوعه لله، ويعظم به السجود كتعظيمه لله، ولو أمرت أحداً أن يسجد هكذا لغير الله لأمرت ضعفاء شيعتنا وسائر المكلفين من شيعتنا أن يسجدوا لمن توسط في علوم وصي رسول الله ﷺ.

أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

٤ - حملة الرسالات الإلهية لله، يدعون إلى الله وعبادته وسجوده بإذنه ووحيه دون جهل أو خطأ أم سهو أو نسيان فيما حملوه، وإشراك غيرهم بهم وتسويتهم بهم ليس إلا دعوة مع الله سواه ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ فكما لا يسجد إلا له لا سواه، كذلك لا يعبد إلا بتدليلهم لا سواهم، إلا من يحمل عنهم ما هو منهم.

٥ - أزمنة السجود لله، صحيح أن الزمان كله لله، ولكنه تعالى حررنا في غير أزمنة الصلاة أن نفعل ما نشاء كما يشاء، فاختص زمن الصلاة بنفسه، فلا يجوز أن يحلها غيرها من أشغال.

وحقا أن الآية تتحمل هذه المعاني كلها، والأحاديث المشار إليها أرشدتنا إليها وكما نفسر القرآن على ضوء هذه الإرشادات والدلالات اللطيفة الأنيقة العميقة من أهل بيت الرسالة المحمدية صلوات الله عليهم أجمعين.

ثم إن بيوت الله المعنية فيما تعنيه الآية، أنها معدة لعباد الله من الجن والإنس والملائكة وسواهم سواء، فما يروى أن الآية نزلت منعاً للجن المؤمنين أن يشهدوا مع الرسول ﷺ الصلوات الخمس في مسجده[2] لا تأويل لها إلا ضربها عرض الحائط، فإن الآية تختص المساجد بالله لا بمؤمني الإنس، وتمنع عن أن يدعى مع الله أحد، لا أن يدعوه الجن مع الإنس في مسجد الرسول ﷺ!

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٣.

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٧٤ - أخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش قال: قالت الجن: يا رسول الله ائذن لنا فنشهد معك الصلوات في مسجدك فأنزل الله ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] يقول: صلوا لا تخالطوا الناس.

وقد يعنى من كون المساجد «بيوت الله» لله، عدم اختصاص الصلاة بعضها وإنما المهم أن يسجد فيها لله دون سواه[١].

وهنا نلمس التوحيد الخالص إذ يتوارى كل ظل لكل أحد، ولكل قيمة، ولكل اعتبار، ويتفرد الجو، عبادة ووسيلة لها ومكاناً وزماناً وأعضاء للسجود: يتفرد ويتمحض لله الواحد القهار.

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾:

اللِّبَد هي لبد الشّعر، وهي طرائقه وقطَعه التي يركب بعضها بعضاً، جمع لبْدة من لبدة الأسد وهي الشعر المتراكب على مناكبه، وذلك أبلغ ما شبهت به الجموع المتعاضلة، والأحزاب المتآلفة الذين كادوا يكونون عليه لبداً - إذ قام عبد الله في عبادة الله - لبد الخير والشر.

﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾: الرسول الأقدس محمد بن عبد الله ﷺ، وما أحلاه وصفاً له بعبد الله وهو أول ما نشهد له من مكارمه ثم تتلوه الشهادة بالرسالة: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» فإنه لم يحمل الرسالة الإلهية إلا بعد أن استكمل شرف العبودية لله، فقد كان قيامه للتعريف بأنه وسواه من الخلق عباد الله، وأن عليهم أن يعبدوا الله.

﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾: قيام الرسالة منذ بزوغها، والقيام بما تتطلبه، والقيام بالصلاة التي هي خير موضوع منها، قيامات هامات وكأنها طامات، ومن شدة وطأتها وسموها وصمودها:

﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ واللبدة الأولى هم المشركون، جموعهم المتلبدة المتكاثرة المتظاهرة التي كانت تجتمع عليه متلبدة متألبة، راكبة

(١) المصدر أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: قالت الجن للنبي ﷺ: كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن ناؤون عنك أو كيف نشهد الصلاة ونحن ناؤون عنك؟ فنزلت: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ الآية.

مترادفة، متآلفة ضده كأنها لبد الأسد، فمهما كانوا لبداً فعبد الله كان أسداً ضرغاماً مغواراً لا تهمه لبده، ولا تمنعه مهمته، مهما حاولوا منعه!: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾[(١)] يتسمعون في دهش ولا يستجيبون، بل ويوقعون به الأذى ويعصمه الله منهم[(٢)].

ثم اللبدة الثانية هم المؤمنون الأوّلون الذين كادوا يراكبونه كاللبد تزاحماً عليه، وتدانياً إليه، واحتذاءً لمثاله، واستماعاً لمقاله[(٣)].

ثم الثالثة هم رسل الجن إذ سمعوا القرآن حيث قام بقراءته عليهم، فأخذوا ودهشوا وتجمعوا على عبد الله ورسوله، بعضهم لصق بعض، كلبد الأسد[(٤)].

فمهما كانت لبده فهو الأسد، على الكافرين إذ لا ينهزم من حشودهم، وللمؤمنين إذ يقوم لصالحهم، أسد في الخير والشر، لا يعرف الجبن والخوف طوال رسالته وهكذا يجب أن يكون المؤمنون به لكي يسودوا الأمم.

---

(١) سورة المعارج، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٢) الدر المنثور - أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن في الآية قال: لما قام رسول الله ﷺ يقول لا إله إلا الله ويدعو الناس إلى ربهم كادت العرب تلبد عليه جميعاً، وأخرج عبد الرزاق وغيره عن قتادة في الآية: تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله إلا أن ينصره ويظهره على من ناواه.

(٣) الدر المنثور ٦: ٢٧٥ أخرج عبد بن حميد والترمذي والحاكم وابن جرير وابن مردويه والضياء في المختار عن ابن عباس في الآية: لما أتى الجن على رسول الله ﷺ وهو يصلي بأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده فعجبوا من طواعية أصحابه فقالوا لقومهم: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].

(٤) الدر المنثور ٦: ٢٧٤ أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود قال: خرج علينا رسول الله ﷺ قبل الهجرة إلى نواحي مكة فخط لي خطاً وقال: لا تحدثن شيئاً حتى آتيك ثم لا يهولنك شيء تراه، فتقدم شيئاً ثم جلس فإذا رجال سود كأنهم رجال الزط وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]. وعن ابن عباس قال: لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن كادوا يركبونه من الحرص لما سمعوه يتلو القرآن ودنوا منه..

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾:

﴿قُلْ﴾ لمن كادوا يكونون عليك لبداً: إيماناً وكفراً: ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾: قيامي في الدعوة طوالها، إنما هو لربي وإلى ربي ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾: إشراكاً في دعوته أو ربوبيته، أو في عبادته أن أرائي فيها، وإنما أدعو ربي بقلبي ومقالي وحالي وأفعالي ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ حتى نفسي، فلست وكيلاً عنه ولا كفيلاً لكم، فهو الذي بيده ناصية كلّ شيء ويملك الضر والرشد ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾، لا ضراً في أرواحكم ولا في أجسادكم لا في دنياكم ولا في أخراكم، ولا في دينكم ولا في أيّ من أحوالكم، كذلك ﴿وَلَا رَشَدًا﴾: لا لنفسي ولا لكم، اللهم ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾:

لا فحسب ﴿إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ بل ولا لنفسي أيضاً، فـ ﴿لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ لو أراد بي ضراً ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ وإن كان لي مجير وملتحد فهو ليس إلا هو، وما أنا إلا رسول لا أملك وحتى رسالتي، فلا أملك فيما يملك إلا بلاغاً من الله ورسالاته، ملكاً منه وبإذنه، فلو شاء لذهب برسالتي وبلاغي وكما يميتني: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾[1].

هنا وهنالك نجد الرسول الأقدس ﷺ يؤمر أن يتجرد - نافضاً يديه -

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٦.

من كل ادعاء لشيء هو من خصائص الربوبية، ناقضاً جارفاً كافة الخصائص المزعومة لأنبياء الله وسواهم من قبل، حاصراً كيانه في ﴿بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ وبذلك يتجرد الجن - وأحرى - عما يتقول لهم من المقدرة على الخير والشر، وتتفرد الذات المقدسة الإلهية بهذه التصرفات، ويستقيم التصور الإيماني على هذا التجرد الصريح.

ثم يختم ﷺ تصريحاته تلك بتصريحة رهيبة مروعة جادة أنه لا يملك حتى البلاغ الإلهي سلباً وإيجاباً، فكما لا يملك لكم ضراً ولا رشداً، إلا بلاغاً من الله، كذلك: لن يجيره من الله أحداً ولن يجد من دونه ملتحداً ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ففيما يملك البلاغ، لا يملك سلبه ولا إيجابه إلا من الله، فإنها ليست تطوعاً يتقدم به صاحب الرسالة، وإنما تكليف صارم جازم لا محيد عنه ولا مفر من أدائه، فالله من ورائه.

فالبلاغ البالغ اللائق من الله، قلباً وقالباً، عقيدة وعملاً، تضحية وفداء: هذا البلاغ يجيره من الله، وهو ملتحده من الله، وهو الذي يملكه من الله بما ملكه إياه، فلو عصاه في بلاغ الرسالة لعذب في المعذبين:

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ عصى الله في محكم كتابه، وعصى رسوله في سنته الجامعة، فعاش حياة العصيان المزدوج ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

فمجير الرسول وملتحده هو بلاغه من الله، وملتحد غيره ومجيرهم طاعة الله ورسوله، وقد تلمح الآيات أن جماعة من لبد الكفر والشر طلبوا منه ترك البلاغ أو تخفيف وطأته فيضمنوا له الإجارة من الله وملتحده، فيبتدر بجوابه الحاسم: لا. وحقاً لا، ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾:

﴿بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾: بلاغ التعريف بتوحيده وربوبيته لمن جهله أو تجاهل عنه أو عانده - ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور وهديهم إلى

صراط العزيز الحميد، دون خشية ولا مسايرة ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾(١).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾: تنديد شديد وتهديد عتيد لمن يبلغه هذا الأمر ثم يعصي، فإذا يركن العاصون إلى عَدَد وعُدَد، ويستصغرون قوة صاحب الرسالة بجنب قوتهم، فسيعلمون غداً من أضعف ناصراً وأقل عدداً، وأي الفريقين أحق بالأمن، ولكن متى؟ إذا رأوا ما يوعدون، وذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب مهين؟

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾:

تلمح الآية أنهم سألوا الرسول متعنتين مستهزئين، عن زمن العذاب، كأنه يعلم من غيب الله شيئاً، فيؤمر أن يتجرد نافضاً يديه من غيبه أيضاً، كما تجرد عن كل اختصاصة من اختصاصات الربوبية،: قل إن أدري أقريب العذاب على الأبواب، أم يجعل له ربي أمداً في الأولى، أم الأمد العام لكل نفس لدى موته، - فمن مات فقد قامت قيامته - أم أمد القيامة، ولا علم لي لا بقربه ولا أمد من آماده الثلاثة، فإنه من الغيب:

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾:

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ من اختصاصات الألوهية علم الغيب، لا الغيب الذي يظهر بالتعلم أو التفكير أو الارتياضات النفسانية، فإن بابه مفتوح لكل من دقه حقّه، وإنما هو ما لا ينال بأية وسيلة غير إلهية، وهذا الغيب منه مكفوف عمن سوى الله، وحتى ملائكة الوحي ورجالاته، فهو الغيب المطلق الذي

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩.

لا يَظهر، ولا يُظهر الله عليه أحداً، ومنه مبذول لمن ارتضى من رسول، يبذله لهم بالوحي دون أن يبذّله لغير المرتضين ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾(١).

والإظهار على الغيب هو التغليب عليه، إما تعليماً كسائر الوحي في الكتب المنزلة على رجالات الوحي، وحي الأحكام ووحي الوقائع: الغابرة والحاضرة والمستقبلة، كلٌّ حسب منزلته الرسالية فإن الرسل درجات ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(٢) فمراحل الوحي هذه من إظهار الغيب علمياً.

وقد يكون تغليباً على الغيب عملياً، علمه الرسول أم لم يعلمه، كسائر المعجزات، فمنها ما يظهر الله عليه رسوله علماً بما فيه وعمل الواقع كمعجزة القرآن، تجري على لسانه، ويعيها قلبه، ويطبقها بأركانه، ومنها ما لا ينال الرسول إلا عمله، فلا يملك علمه وحقيقته، كإحياء الموتى وقلب العصا حية تسعى، فإنهما من الغيب الخاص بالله، يظهر عليه البعض من رسله عملاً للتدليل على رسالتهم الإلهية، فمعجزاتهم هي أفعال الله تجري بهم حجة لهم، فمنهم من يعلمها كما يفعلها كإبراهيم.. ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ...﴾(٣) إذ طلب من ربه أن يريه ويظهره على حقيقة إحياء الموتى، ومنهم من لا يعلمها كما نفصله في آيات المعجزات ومنها ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾(٤) تعني أن الآيات المعجزة هي من غيب الله، لا تعدوه

(١) نور الثقلين ٥: ٤٤٢ عن الباقر عليه السلام إن لله عز وجل علمين علم مبذول وعلم مكفوف فأما المبذول فإنه ليس من شيء تعلمه الملائكة والرسل إلا نحن نعلمه وأما المكفوف فهو الذي عند الله عز وجل في أم الكتاب إذا خرج نفذ.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

(٤) سورة يونس، الآية: ٢٠.

إلى سواه، والرسل لا يملكون إلا إظهارها بإذن الله، دون علمها إلا من أراه الله كإحياء الموتى لإبراهيم وكالقرآن لمحمد ﷺ.

فعلم الغيب مبدئياً خاص بالله، والآيات التي تحصره بالله تعني العلم الذاتي بالغيب فلا تنافي علم من ارتضى من رسول، فإنه أيضاً من علمه لا منهم كبشر، وآية الإظهار هذه تغنينا من القيل والقال، وتريحنا عن تفتيش الأقوال ونقدها، فالتي تختص علم الغيب بالله إطلاقاً، هي بين ما تعني العلم الذاتي ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[١] وقد يعلّم البعض منها من ارتضى من رسول ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[٢].

وبين ما تعني مطلق العلم بالغيب ذاتياً وعرضياً ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ... يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾[٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾[٤].

فالغيب الواجب إظهاره للرسل هو المعجزات والشريعة، وقد يخبرهم بمغيبات أخرى تؤيدهم في رسالاتهم، وأما التي لا تمت بصلة للرسالة الإلهية، وهي من شؤون الإلهية، فلا يجب إظهار الرسل عليها، وهي خاصة بالله تعالى، وهي المعنية بالآيات التي تختصها بالله: ﴿... وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٩.
(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ١٨٧، ١٨٨.
(٤) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

... ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾(١) والوحي كما نعلم من علم الغيب الواجب إظهاره للرسل، لأنه كيان الرسالة.

من هنا وهناك نستوحي أن ليس الغيب الإلهي مبذولاً للرسل دون حدّ، وإنما هو الغيب الكافل لحجة الرسالة وبلاغها، وكما تفيده آية الإظهار: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ...﴾ فهو يظهر الغيب الداخل في شؤون الرسالة، لا الخاص بشأن الألوهية، وكما كان غير المرسلين محرومين من غيب الوحي كذلك المرسلون محرومون من غيب الربوبية، وكما هم وسط بين الخلق والخالق في الرسالة، كذلك هم وسط في علم الغيب.

فالرسل الذين يرتضيهم الله لتبليغ دعوته، يطلعهم على جانب من غيبه، ما يتعلق بموضوع رسالتهم، دون المتعلق بشأن الربوبية، إنما ما هو حجة بالغة لرسالاتهم، وما هو المقصود منها من شرائعهم، وآيات الغيب ترمي إلى هذا الاختصاص المبدئي بالله، والتعميم العرضي للرسل في حدود رسالاتهم، ما يعاونهم على تبليغ دعوته، يكشفه لهم منذ الرسالة وطوال الدعوة، وهو مع ذلك يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً:

﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ۝٢٨﴾ فإن الله يسلك: يُنفذ - من بين يديه: يدي الغيب والمرسل إليه بالغيب، ومن خلفه، ينفذ من هنا وهناك: رصداً ليعلم:

هنا النص يوحي كيف يتنزل الغيب بالوحي على الرسل المرضيين، من البداية وحتى النهاية وهي إبلاغ الرسل غيب الوحي للمرسل إليهم:

فبما أن الرسل بشر وأن الشيطان يلقي في أمنياتهم، فهم بحاجة إلى

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.

حفظ وعصمة إلهية في تلقي الوحي وإلقائه وتنفيذه من عدة جهات ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾[1] كما وأن ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[2].

فالله تعالى ينفذ الوحي الغيب إلى من ارتضى من رسول، وينفذ من بين يديه - قبل وصوله إلى أن يوصل - رصداً: رقباء يحفظونه من خلط ودس الشياطين، وليبلغ إلى الرسل سليماً، وينفذ من خلفه: بعد البلوغ والبلاغ أيضاً، رصداً ليسدوا عن الرسول إلقاءات الشيطان، وليراقبوه في إبلاغ الرسالة وتنفيذها: ازدواجية العصمة للرسل المرضيين من جهتين: الرسل الرصد من بين يدي الرسول ومن خلفه، وروح العصمة التي ترصد الرسل في دواخل ذواتهم، إرصاداً من الداخل والخارج لكي يصل الوحي الغيب إلى الهدف الأخير: إقامة المرسل إليهم على الهدى، دون تدخل للشيطان، ودون تخبط وخلط وشبهة في هذه السبيل، وبذلك ليس للشيطان سبيل على الرسل على طول الخط في تلقي الوحي وإلقائه وتنفيذه، فتمني الرسل ليس إلا تنفيذ الرسالة الإلهية، وإلقاء الشيطان في أمنية الرسل - كما تقول الآية - ليس إلا في واقع التنفيذ، إن الشيطان يخلط الرسالة على المرسل إليهم، والله ينسخ هذه الإلقاءات ويحكم آياته واقعاً كما أحكمها في وحيها إلى حملة الرسالات: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾[3] ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[4] فالمرسلون المرتضون ليسوا من الغاوين حتى يلقي الشيطان في

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥٢.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٣) سورة ص، الآيتان: ٨٢، ٨٣.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

قلوبهم وأفكارهم ووحيهم، وهو أشرّ السلطان والغواية الكبرى! وهم من عباد الله المخلصين، فيلغى شمول آية الإلقاء عن ساحة المرسلين، إلى المرسل إليهم، والله ينسخ عنهم أيضاً إلقاءات الشيطان ثم يحكم آياته.

كل ذلك علامة لمن لا يعلم: أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾:

ليعلم الله، من العَلم بمعنى العلامة، لا العِلم، فإنه يعلم السر وأخفى!: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ فهو إذ يحيط بما لدي الرصد والرسل، وإذ يحصي كل شيء عدداً، إذاً كيف تكون الغاية من سلك الرصد أن يعلم الله سبحانه؟ أعن جهل وهو المحيط المحصي؟ كلا! إنه عَلم وليس عِلماً، إنه تعالى يجعل الرصد على طول الخط في بلاغ وتنفيذ الوحي، ويجعلهم علامة لهم ولملك الوحي، وللتبين ﴿أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾.

وكما ليس ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ من العِلم، كذلك لا يرجع ضميره إلى الرصد فإنهم جمع وهو مفرد، ولا إلى محمد ﷺ إذ لم يسبق له ذكر ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ وهو جمع يعم الرسل أجمع، ولأن وحدة السياق تحكم أن صاحب الضمير في الأحوال الثلاث «يعلم - أحاط - أحصى» واحد، وهو الله الذي أحاط بما لدى الرسل وأحصى كل شيء عدداً.

فهو الذي يسلك بين يدي الغيب والرسول ومن خلفه، رصداً مراقبين، ليجعل هذه الرقابة الشديدة على غيب الوحي علامة: إن قد أبلغوا رسالات ربهم: حال أنه أحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً، فليس هو بحاجة إلى علامة البلاغ، وإنما رسله الملائكة والبشر وكذلك المرسل إليهم.

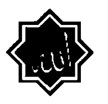
﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾: يعلم غاية لسلك الرصد، و﴿أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ يلمح لحدود الغيب الإلهي الذي يظهر عليه رسله، أنه ليس إلا

للبلاغ، بلاغ الرسالة بغيب المعجزات، وبلاغ الرسالات بغيب التشريعات، دون أن يصبح علمهم بغيب الله أو غلبَهم به عملياً، يصبح من الكمالات الذاتية والحظوظ العقلية والعلمية، فلا تعني الآية ظهور الرسل على كل غيب، ولا الغيوب التي لا تمت بصلة لرسالتهم ورسالاتهم، وإنما التي تهمهم كرسل مبلغين عن الله، لا كمرتاضين يخبرون عن الغيوب العادية لحظوظ نفسانية وغايات تجارية وسباقات في ميادين المفاخرات.

فلئن سئلنا - إذاً - لو كان الظهور على غيب الله خاصاً بمن ارتضى من رسول فكيف يعلمه المرتاضون غير المرسلين، مرضيين وغير مرضيين؟ وكيف يعلمه الأئمة المعصومون وهم ليسوا بمرسلين؟

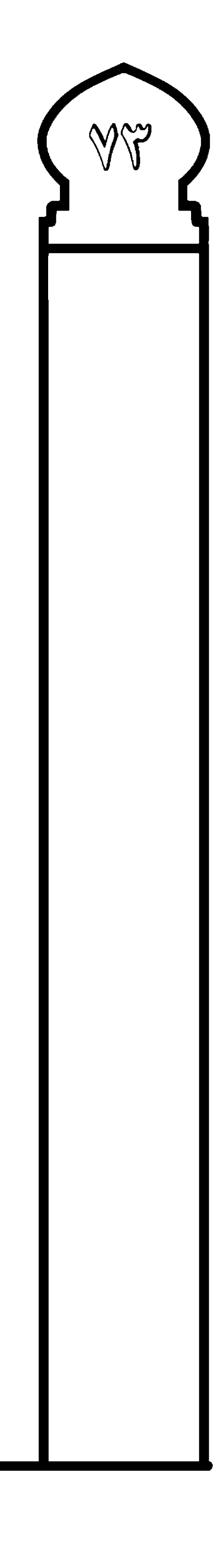
والجواب كما لمحنا إليه مسبقاً، أن المعني من غيب الله ما لا يحصل بأي سبب من تعلم وارتياض إلا بالوحي، وليس غيب المرتاضين من غيب الوحي، فهو يحصل بصناعة الارتياض للمؤمن والكافر سواء.

وأما الأئمة المعصومون فليس غيبهم بالوحي وإنما بما أودعهم الرسول ﷺ من غيب الوحي[1]. وهم أبواب علمه واستمرار لكيانه الرسالي.

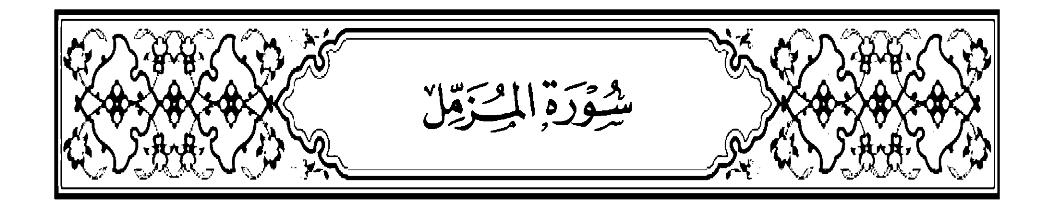


(١) نور الثقلين ٥ : ٤٤٢ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: إن لله عز وجل علمين: علماً عنده لم يطلع عليه أحداً من خلقه، وعلماً نبذه إلى ملائكته ورسله، فما نبذه إلى ملائكته ورسله فقد انتهى إلينا.

أقول: وهذا الحديث متواتر معنوياً عنهم عليهم السلام. راجع المصدر.



سُورَةُ المُزَّمِّل



مكية - وآياتها عشرون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ (١) قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا (٢) نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا (٣) أَوۡ
زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ
ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا (٧) وَٱذۡكُرِ
ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا (٨) رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ
وَكِيلٗا (٩) وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا (١٠) وَذَرۡنِي
وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا (١٢)
وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا (١٣) يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ
كَثِيبٗا مَّهِيلًا (١٤) إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ
رَسُولٗا (١٥) فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا (١٦) فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ
إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا (١٧) ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ
مَفۡعُولًا (١٨) إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا (١٩) إِنَّ
رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ
وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ
ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن

فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)﴾:

يؤمر نبي الله ﷺ - بعد أمره بقراءة الوحي: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾(١) وبعد حمله الرسالة الكبرى - يؤمر هنا بالقيام ليلاً وبالسبح الطويل نهاراً، ويؤمر في المدثر بقيام الإنذار وتكبير الرب، وعلّ القيام الثاني هو السبح الطويل نهاراً، والقيام الأول لتهيؤ الثاني: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧)﴾ فليعش الرسول الأقدس حياته قياماً دون فتور، وسبحاً في بحر المجتمع المتلاطم، لينجّي الغرقى فإنه سفينة النجاة.

يوحي النص ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ بأنه كان متزملاً حين الأمر، ولماذا؟ وفي رمضاء الحجاز! لا بد وأنه من وطأة وفجأة، أوَطأة الوحي الثقيل الذي بزغ له قبل قليل؟ كما قيل(٢) أم الحملة العنيفة السافرة في وجهه من صناديد قريش؟(٣) كما توحي له آيات من السورة: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ... وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾

---

(١) سورة العلق، الآية: ١.

(٢) أدركته رجفة الوحي حتى جثى وهوى إلى الأرض وانطلق إلى أهله يرجف يقول: (زملوني. دثروني) ففعلوا وظل يرتجف مما به من الروع وإذا جبرائيل يناديه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

(٣) الدر المنثور ٦: ٢٧٦ - أخرج البزار والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا: سموا هذا الرجل اسماً تصدر الناس عنه فقالوا: كاهن - قالوا ليس بكاهن، قالوا: مجنون - قالوا: ليس بمجنون - قالوا: ساحر - قالوا: ليس بساحر - قالوا: يفرق بين الحبيب وحبيبه فتفرق المشركون على ذلك فبلغ ذلك النبي ﷺ فتزمل في ثيابه وتدثر فيها فأتاه جبرائيل فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمّل: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدّثر: ١].

فتزمل من رعشة الوطأة، فأمر بالقيامين في المزمل والمدثر، قياماً لتنفيذ الرسالة ومجابهة عراقيلها، دون أن يتزمل ويتدثر.

قُم إنه لا يناسبك التزمل والتدثر، فليكن دثارك القيام وزميلك الإقدام ليلك ونهارك، ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قدر الضرورة الذي يساعدك في قيامك، فليكن مبدؤك القيام حتى في أوقات المنام رغم أن الناس نيام.

أنت تتلفف بثوب لتنام دفعاً لهمّ الإيذاء، وغم الاستهزاء، وتخفيفاً من وقعة الوحي؟ لا! بل عليك القيام، والاستعانة بالصبر والصلاة ومكافحة الكروب العظام، والنوائب الجسام.

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قم للأمر العظيم والقول الثقيل الذي سيلقى عليك، والعبء المهيأ لك، قم فقد مضى وقت النوم، قم فأنت لست لتعيش لنفسك، ولقد عرف الرسول ﷺ هذا الأمر مسبقاً من ملامح الوحي وقدّره، فقال لخديجة رضي الله عنها - وهي تدعوه أن يطمئن وينام -: «مضى عهد النوم يا خديجة»!.

أجل - إنه مضى وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الشاق والسبح الطويل في بحر المجتمع المتلاطم.

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾:

يخيّر نبي الله هنا في قيام الليل ونومه بين مقادير أربعة: ١ - قيام الليل إلا قليلاً: ثلثيه فما فوق، فأكثر القليل منه ثلثه ثم أقل وأقل[١] ٢ - نصفه، وهو ليس قليلاً من الليل، وإنما نصفه عدلاً بين قيامه ونومه إذا احتاج إليه، ٣ - أقل من النصف، أن ينقص من نصف القيام قليلاً ٤ - أكثر من النصف أن يزيد على نصف القيام، فأكثر الواجب في قيامه من ثلثي الليل وما فوقها، وأقله أقل من النصف قليلاً، وبينهما متوسطات ومنها نصفه.

---

(١) فما يروى أن القليل المستثنى من الليل هو نصفه خطأ أو جهل من الرواة لا المروي عنه كما رواه في المجمع عن الصادق عليه السلام قال: القليل النصف.

نرى التركيز هنا وهناك على قيام الليل - أياً كان - دون تصريح بنومه إلا إيحاء الضمائر: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ ابتداءً بقيام ثلثي الليل، ثم ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ أو قم نصفه ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾: انقص من نصف القيام قليلاً ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾: زد على نصف القيام، فنصيب النقص ليس إلا قليلاً، ونصيب الزيادة لا حد له إلا قدر المستطاع.

فطالما الليل سكن ونوم للناس لاستراحة البدن، ولكنه قيام لرسول الله إلى الناس ليشد وطأه ويقيم قيله، تأزيراً لقوة القلب والروح، وتقويماً لنطق اللسان.

فعلى رسول الله قيام الليل قدر المستطاع، كله أحياناً وأكثره أخرى ونصفه أحياناً وينقص منه قليلاً أخرى، ولكنما الزيادة على النصف قدر المستطاع هو المرغوب الأصل ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾.

فأكثر الواجب إذاً قيامه ثلثي الليل ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ كما ويؤيده ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ فليكن الواجب مخيراً بين ثلثيه ونصفه وثلثه فأقله ثلث الليل ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ فنقص القليل من النصف ثلث النصف، فيبقى ثلث الليل[(١)].

﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾:

ولماذا ثلثا الليل، ولماذا الزيادة على النصف والنصف أيضاً، ألصلاة الليل ولا تشغل إلا سويعات؟ كلا - وإنما الزيادة لترتيل القرآن، تخلقاً بأخلاق الله في تنزيله: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾[(٢)]

---

(١) نفرض أن الليل ١٢ ساعة فنصفه ٦ ساعات فإذا نقص منها ساعتان يبقى أربع ساعات وهي نصف الليل المفروض.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

وفي ترتيله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾(١).

وترتيل القرآن هو إرساله بسهولة واستقامة، سهل التعبير، مستقيم المعنى وكما يروى عن النبي ﷺ إذا قرأت القرآن فرتله ترتيلاً وبينه تبيينا، لا تنثره نثر الدقل ولا تهذّه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، ولا يكونن همَّ أحدكم آخر السورة(٢).

أقول: وهذا من مقربات الفهم ومجذبات الإتباع، فقد فرق الله القرآن طوال البعثة دون أن ينزله جملة واحدة، ليثبت به فؤاد الرسول وليقرأه على الناس على مكث، ورتله عليه بتسهيل التعبير والمعنى ليرتله هو أيضاً ترتيلاً، وهو يعم اللفظ والمعنى تعبيراً وأداءً وسبكاً وكيفية(٣)، كل ذلك لسهولة الإلقاء والتلقي متحللاً عن كافة الصعوبات هنا وهناك، وهذا هو معنى الإعجاز في فصاحة التعبير وبلاغة المعنى، فليس التشابه في بعض الآيات من قصور الدلالة، وإنما من قصور المستدل ونبوغ المعنى، وعلى حد تعبير الإمام الرضا عليه السلام: «المتشابه ما اشتبه علمه على جاهله».

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾:

فما هذا القول الثقيل الذي سيلقى عليه، ولكي يتلقاه عليه أن يقوم لياليه مصلياً مرتلاً للقرآن؟.

هل هو القرآن ولو بعضاً منه؟ وقد نزل عليه بعضه وأمر بترتيله! أم هو

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٧٧ أخرجه الديلمي عن ابن عباس مرفوعاً عنه ﷺ. وأخرجه العسكري في المواعظ عن علي عليه السلام عنه ﷺ.

(٣) وعن الإمام الصادق عليه السلام أن الترتيل هو أن تتمكث فيه وتحسن به صوتك، وفي الدر المنثور ٦: ٢٧٧ عن النبي ﷺ قال: يقال لصاحب القرآن يوم القيامة: اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها وفيه سئل ﷺ: أي الناس أحسن قراءة؟ قال: الذي إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله.

البعض الباقي: أكثره؟ فما هو الفرق بين قليله وكثيره، وكله ثقيل بأي معنى قيل! أم هو القرآن المحكم النازل عليه ليلة القدر، بين هذه السورة وبينها أقل من شهرين؟ علّه هو، إضافة إلى باقي القرآن المفصل، ففي القرآن المحكم النازل عليه دفعة واحدة، الملقى عليه ليلة القدر، أن فيه ثقلاً ليس في مفصله النازل عليه نجوماً طوال البعثة، ثم يتلوه ثقل الباقي من مفصله وهو أكثره، وفي وحدة القول هنا ﴿قَوْلًا﴾ وأنه يلقى ﴿سَنُلْقِي﴾ شاهدٌ لفظي على أنه القرآن المحكم، إضافة إلى القرينة المعنوية المسبقة.

إن القرآن قول ثقيل لعظم قدره، ورجاحة فضله، وخلوده، دون أن يمسه نسخ أو تحريف، وقد يثقل الأمةُ المتمسكة بحبله، المنفذة لأحكامه، ولذلك سماه الرسول ﷺ أكبر الثقلين وأعظمهما وأطولهما وأتمهما فيما تواتر عنه، وسمى عترته الثقل الأصغر.

ولقد كان القرآن ثقيلاً لدى الله في أم الكتاب ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[1] فعُلوّه هناك وحكمته: ثقله، ثم نزل ليلة القدر دفعة، ثم طوال البعثة نجوماً، نزل ثقيلاً على الرسول ﷺ حيث يقول: «فما من مرة يوحى إليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض»[2] «فإنه كان يتغير حاله عند نزوله ويعرق، وإذا كان راكباً تبرك راحلته ولا تستطيع المشي»[3] وهذا ثقله في القرآن المفصل، ثم القرآن المحكم المجمل النازل ليلة القدر يزداده ثقلين ١ - نزوله دفعة دون تفاصيل ٢ - إلقاؤه عليه دون وساطة ملك الوحي، إذ لم يكن بينه وبين الله أحد، إذاً فالقول الثقيل الذي سيلقى عليه هو القرآن المحكم، إضافة إلى باقي المفصل النازل عليه مفصلاً: ثقلاً على ثقل.

هذا ثقله في وحيه وقبله، ثم هو ثقيل في ميزان الحق - فإن موازينه

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤.

(٢) الدر المنثور (٦ : ٢٧٨) عن عائشة عنه ﷺ.

(٣) نور الثقلين (٥ : ٤٤٧) عن عبد الله بن عمر.

ثقيلة لا تخف أبداً - ثقيل في تطبيقه، ثقيل على الأخفّاء الناكرين له، فلا بد من ثقله في قلبه المنير لحدّ يفرغ قلبه عما سواه من مقال كما فرغ عمن سوى الله، ولقد أثر في قلبه هكذا ولحدّ كان يثقل على قالبه، فصاحب هذا القلب بحاجة في تلقي هذا الفيض الثقيل إلى مراس في تزكية قلبه بقيام لياليه بترتيله وذكر الله.

هذا هو القول الثقيل، فإن القرآن ليس في معناه ثقيلاً ولا في تفهمه وتذكره: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1] فقوله - إذاً - ثقيل من حيث المقول، وكيفية إلقائه، وعرقلات تنفيذه.

إنه لا بد للرسول إلى الناس كافة - وكثير منهم من النسناس - أن يحمل هذا القول الثقيل، لأن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى ثقيل، والاستقامة على هذه الرسالة الشاملة الأخيرة وراءَ الهواتف والجواذب والمعوقات والعراقيل، إنها لثقيل ثقيل، فلا بد له في ميادين الكفاح من حمل هذا القول الثقيل، فليتزود من قيام الليل لتلقي هذا الثقيل، ولكي يسبح في نهاره الطويل سبحاً طويلاً.

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ثقيل المصدر والصدور، ثقيل المحتد والدوام، ثقيل المنزل والنزول، ثقيل التنفيذ مستحيل الأفول، على سلاسة تعبيره، ونفاذ أمره وعبيره.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾:

فرض عليك - كرسول إلى الناس كافة - قيام الليل لدوافع ومنافع عدة:

١ - ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ فلا بد له من التهيؤ. ٢ - ﴿إِنَّ لَكَ فِى

(١) سورة القمر، الآية: ١٧.

﴿ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ لا يبقى لك معه مجال القيام بالصلاة وترتيل القرآن.

٣ - ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾: فناشئة الليل هي العبادة التي تنشأ بعد العشاء، نشوء النور في الظلام، فالعبادة التي هي وليدة الليل وناشئته، تفضل على عبادة النهار من حيث الوطء والقيل، ولقد كان قيام الرسول ﷺ بعد العشاء بسويعات منامه القليل، وهو إذ أمر بقيام الليل كان أمراً بقيامه: عن النوم، وبالعبادة، تهجداً في أثنائه، وترتيلاً للقرآن في آنائه.

هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً: مواطاة: يواطئ فيها السمعُ القلبَ، واللسانُ العمل، لقلة الشواغل العارضة، واللوافت الصارفة، ولأن البال فيه أجمع، والقلب أفرغ، فالقراءة فيه أقوم، والصلاة أسلم.

هي أشد مواطأة هكذا، ولأنها أشد وطأة: أوعث مقاماً وأصعب مراما، فإن مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش، بعد كدّ النهار وسبحه الطويل، لها وطأتها وشدتها التي لا يطيقها إلا المخلصون، فناشئة الليل ووطأته أشد.

﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ لأن قيله ثقيل إلا على الخاشعين، وأنه يصدر من لباب القلب وخالق القلب أعلم بمداخله وأوتاره، وما يتسرب إليه ويوقع عليه، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحاً واستعداداً، فللصلاة فيها خشوعاً، وللمناجاة شفافيتها ولترتيل القرآن نورانيتها: إذاً فوطأتها أشد، وقيلها أقوم، فإعدادها لسبح النهار - الطويل - أتم.

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧﴾:

ولا يناسب السبح إلا في غمرات المياه المضطربة الواسعة الفسيحة، فإن لك اضطراباً في غمرات المجتمع، وتقلباً في جهاته، ومتصرفاً ومتسعاً، ومذهباً منفسحاً، تقضي فيه أوطارك، وتبلغ مآربك، وتنجي الغرقى من ورطات الغمرات العميقة، وتحارب أمواجه الضاربة في الأعماق،

المضطربة، فهذا السبح الطويل في نهارك، بحاجة إلى تسبيح طويل في ليلك، تسبيح يعدك للسبح، ولكي تنجو من ورطاته، وتنجي الناس جميعاً من غمراته، فإنك سفينة النجاة!.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾:

فقيامه ﷺ يشمل ناشئة الليل، بصلاته وترتيل القرآن، وذكر اسم الرب، والتبتل إليه تبتيلاً، وليأخذها زاداً في سبحه الطويل.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾: ولأنك تحمل في رسالتك بلاغ الربوبية والتربية الإلهية، فعليك أن تذكر اسم ربك بقلبك، فهو مصدر الذكر ومورده أولاً ويقالبك: بلسانك وجوارحك وفي كافة تصرفاتك، ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر، وأكمله الصلاة فإنها كلها ذكر الله وتحميده وتمجيده وتعظيمه بالأقوال والأفعال والإشارات.

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا . . .﴾ هكذا ذكر شامل كامل يبتّلك إلى ربك، فالانقطاع إلى الله على قدر الواقع من ذكر الله، والتبتل إلى الرب هو الانقطاع الكلي عما سواه والاتجاه التام إليه، والانفلات من كل شاغل وخاطر، لكنما المرجو من تبتلك أن يحمل معه التبتيل ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ لا «تبتلاً» تبتلاً لك يحمل تبتيلاً لمن أرسلت إليهم، فكما كان قيامك بالليل تهيؤاً لتلقي القول الثقيل، ولتسبح نهارك الطويل، كذلك ليكن تبتلك للتبتيل.

فليس الإتيان بالتبتيل هنا لمجرد رعاية الوزن والتجميل «طويلاً. تبتيلاً» فالقرآن كتاب معنى قبل أن يحمل الوزن في التعبير، وقد يناسب وزنُ المعنى وزن التعبير كما هنا ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ تبتلاً ينحو في طياته منحى التبتيل لتنقطع إلى الله، لك كمحمد، وللمرسل إليهم كرسول، فكما على الرسول أن يتبنى شخصه ليصلح لحمل الرسالة ضمن صناعة نفسه كعبد شكور، فعليه - كرسول - أن يتبنّى المجتمع الذي أرسل إليهم.

ثم هناك نكتة أخرى هي أدق وأرقى: أن المنقطع إلى الله مشغول عما سواه والمنقطع إلى ما سوى الله مشغول عن الله، فالجمع بين التبتل - وهو الاشتغال التام بالله - وبين التبتيل، وهو الاشتغال بغير الله ليقطعهم عما سوى الله: إن هذا الجمع لصعب مستصعب، لكنما الرسول يؤمر في تبتله بالتبتيل، ففي حين أنه مشتغل بالله عما سواه، إنه يشتغل بما سواه لتوجيههم إلى الله، وهذا هو مقام الجمع في الوحدة والوحدة في الجمع، يسبح نهاره طويلاً في الدعوة إلى الله، ويلاقي الصعوبات والحرمانات في الله، وهو متبتل إلى الله ومبتِّل سواه عما سوى الله، فذكره ذكر واحد، وعمله واحد، طالما يختلف في صور الصلاة وترتيل القرآن وذكر الله، وفي الجهاد والدعوة إلى الله، فإنه ينحو في هذا السبح الطويل منحى الله، فتبتُّله تبتيل، وتبتيله تبتُّل!.

ولطيفة ثالثة: هي أن التبتل هو تقبل للبتْل، والتبتيل هو فعله، فقد يعنى بالأول قبوله العصمة الإلهية في انقطاعه إلى الله، وبالثاني محاولته لانقطاعه ومَن سواه إلى الله، والنتيجة أن انقطاعه الخاص إلى الله ليس من فعله هو فحسب، وليس تسييراً إلهياً فحسب، وإنما هو أمر بين أمرين، جذبة إلهية متممة لمحاولة الانجذاب والانقطاع إلى الله، وكما العصمة في كافة مراحلها ليست إلهية خالصة ولا بشرية خالصة، إنما هي سعي حسب المستطاع من المعصوم في البداية، ثم جذبة إلهية، ثم سعي ثانٍ يوافق ويساير تلك العصمة الخاصة الإلهية.

فحاصل المعنى من الآية أنه ﷺ أمر بتبتل التبتيل: ينقطع إلى الله على ضوءِ توفيق الله، وسعيه هو كما يناسب تبتل العصمة، وفي نفس الوقت يبتِّل غيره إلى الله، ثم لا يشغله الاشتغال بغير الله في رسالته، عن الله، معان ثلاثة هامة تعنى من كلمات ثلاث ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾.

وليكن كذلك ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾: أنه ذكره تعالى في نفسه وأعماله

وعلاقاته الشخصية مع الله ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾[1] وذكره في نفس الوقت لمن أرسل إليهم ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾[2] دون تفاوت بين الذكرين، فإنهما ذكر واحد لله، كما أن تبتله واحد لله.

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾:

لئن سئلت: لماذا التبتل إليه وحده لا سواه؟ فالجواب أنه «ربك» لا فقط بل و﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾: العالم كله بما أنه لا يخلو من شارق وغارب أياً كان، فالكون كله بين مشرق ومغرب، لا يخلو عنها أي كائن، ولأنه رب الكائنات أجمع. فـ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولربوبيته المطلقة وألوهيته الوحيدة ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ فالتوكل عليه هو التوكل على القوة الوحيدة في الكون كله، وهو وحده الثمرة المباشرة للاعتراف بوحدانيته، والرسول المنادى بالقيام وبالسبح الطويل نهار الدعوة، إنه في حاجة ماسة لعبئه الثقيل في طريقه الشاق الطويل، إلى تبتل إلى ربه وتوكل عليه، ولكي يكافح كافة العراقيل في سبيله.

بديهي أن الإنسان وكل كائن أياً كان، لا يستطيع أن يحيى حياة سعيدة ويُحيي غيره بها، بطاقاته الشخصية، فلا بد له من وكلاء واعون، وبما أن من سوى الله كيانهم الفقر إلى الله، لا يملكون إلا ما ملَّكهم الله، فلا غنى في توكيلهم مهما كانوا أقوياء، فهم بين قاصر ومقصر، فكيف يتوكل عليهم، وإنما الله وحده هو الذي يحق أن يُتخذ وكيلاً، ولا يَتخذ هو وكيلاً، وبينما نحن موكَّلون وموكِّلون، لم يكن الله إلا وكيلاً، فيما اتخذناه وكيلاً وما لم نتخذه وكيلاً، فالوكالة هي الاعتماد - فيما تقصر عنه القدرة والعلم والحياة - على من له هذه القدرات أكثر من الموكل، أو ما يقصر عنه الوقت لكثرة

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦٣.

الأشغال، والخلق كلهم قاصرون في هذه وتلك: مهما كان البعض أقوى من البعض، ولذلك يتوكل الضعيف على القوي، ولكنه لا غنى في هذه الوكالة القاصرة، وإنما الوكالة الإلهية هي الكافية الكافلة لما نبغيه، بعدما كلّت مساعينا عن الوصول إلى المأمول، ما لم يكن خلاف الحق والمصلحة: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾(١).

إن أسس الوكالة الناجحة غير الفاشلة، لا توجد إلا في الله لا سواه: من سعة العلم: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾(٢) والعزة والحكمة: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٣) والحكم في التكوين والتشريع: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾(٤) وأنه المرجع للأمر كله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾(٥) ولحياته السرمدية: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾(٦) وبصورة جامعة لأنه الله لا إله إلا هو كما في عشرات الآيات، وهو خالق كل شيء وبذلك هو الوكيل على كل شيء دون توكل، وعلى ما نبغيه مما له نسعى وإياه نطلب بالتوكل: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾(٧) فلولا وكالته تعالى على كل شيء لخرجت إلى اللاشيء، ولولا التوكل عليه لكلّت المساعي دون الوصول إلى ما نبغيه من شيء.

إنه ليست هناك وكالة إلهية لأحد على أحد ولا للرسول: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾(٨) اللهم إلا وكالات فاشلة جزئية لا غنى فيها عن الوكالة الإلهية، ولا تعني وكالةُ الله بطلان المساعي والأسباب، وإنما

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٩.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٦٧.
(٥) سورة هود، الآية: ١٢٣.
(٦) سورة الفرقان، الآية: ٥٨.
(٧) سورة الأنعام، الآية: ١٠٢.
(٨) سورة هود، الآية: ١٢.

نقصانها، ولذلك تتم الأسباب والمساعي بالتوكل على الله خالق الأسباب والساعين ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[1].

فالمسموح فيه هو السعي وتوكيل الغير بغية الوصول إلى المأمول، والمحظور هو التوكل على غير الله، على نفسه أم سواها، فالله يُوكِّلُ ويُتوكَّلُ عليه، ومَن سواه يوكل ولا يتوكل عليه، وعلينا وكلاء وموكلين جميعاً أن نتوكل على الله في إطارات ثلاث: نتوكل عليه فيما نعمل رجاء النجاح، ونتوكل عليه فيما نأمل من وكلائنا، ويتوكل وكلاؤنا على الله فيما توكلوا فيه من موكليهم، فإليه يرجع الأمر كله. وكفى بالله وكيلاً.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾:

إن الصبر على تقولات الكافرين، وهجرهم هجراً جميلاً، وعلى تكذيبهم لهذه الرسالة السامية، كل ذلك دليل أن المزمل نزلت بعد المدثر، نزلت بعد ظهور الدعوة ومجابهتها العراقيل ونعرات الفرية والتكذيب، كما وأن السبح الطويل نهاره، دليل على أن المزمل نازلة بعد تطبيقه القيام السافر العام في المأمور به في المدثر، وبذلك تؤيد الرواية الثانية أنه ﷺ تزمل ذعراً ساخطاً على تقولات قريش في ندوتهم الكافرة: إنه ساحر أو مجنون نتربص به ريب المنون.

فهنا يؤمر الرسول بالصبر والهجر الجميل والتمهيل القليل، بدل الجزع أو المقابلة بالمثل أو التنكيل، وإنه صبرٌ لصالح الدعوة، لا صبر المسايرة والاستسلام صبر يحمل كل جميل في الدعوة، للداعي والمدعوين.

فالأمر بالصبر هنا يعني عدم الجزع الدافع إلى الفرار عنهم: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ

(١) سورة النساء، الآية: ٨١.

رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ. . .﴾[(١)] ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾[(٢)] خروجاً عن الدعوة وفراراً عن المرسل إليهم، وكذلك عدم التزمل والوقوف عن الدعوة، أو النقص فيها والتمهل عنها: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾[(٣)] وعدم التحزن عليهم: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾[(٤)] وعدم الاستعجال لهم بالدعاء عليهم: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[(٥)] وأن يكون استقامة في الدعوة واتكالاً فيها على نصر من الله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[(٦)] لا صبر المسايرة والطاعة لهم والانفلات عن الدعوة: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[(٧)].

وأخيراً الصبر عليهم نظرة النقمة الإلهية على الصامدين منهم في الكفر: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝﴾[(٨)].

فالصبر منه جميل، كهذه، ومنه قبيح: كالصبر على هدر الأموال والنفوس وانتهاك الدين والناموس وجاه الظالمين، والصبر على نقص الدعوة وانتفاضها عن المدعوين والصبر على الظلم والضيم، والصبر على ما للإنسان أن يدافع عنه: وإنما عليه الصبر الجميل والهجر الجميل والكلام الجميل والسكوت الجميل والنصيحة الجميلة التي تضم كل جميل في الدعوة، وليس الهجر الجميل إلا هجراً عن الهجر والتنكيل حتى يحكم الله، والهجر في تقولاتهم اللاذعة، عن المقابلة بالمثل، ولا خروجاً عنهم وعن دعوتهم.

إن الرسول الأقدس ﷺ لم يكن ليحارب المكذبين بداية الدعوة، لقلة العدد والعدَّة، ولما تكمل الدعوة! ولذلك أمر بتأجيل الجهاد إلى زمن

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤٨.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٠٩.
(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٧.
(٥) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.
(٦) سورة الطور، الآية: ٤٨.
(٧) سورة الإنسان، الآية: ٢٤.
(٨) سورة المعارج، الآيات: ٥-٧.

الهجرة، حين تكمل العدة والعدة: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾[١] وقد حكم الله بالجهاد منذ الهجرة، وحكم على الكافرين بالنار منذ الموت وليوم القيامة، ولقد كانت أخلاقه ﷺ جميلة مع الناس كافة على طول الخط، لحد يعفو عن الكفار عند فتح مكة المكرمة وهم في قبضته علهم يؤمنون، أو يندمون على ما فعلوا وافتعلوا.

﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ الذين يزدادون تكذيباً لأنهم مترفون: والنَّعمة هي التنعم مرة، وهي هنا الحياة الدنيا، والنِّعمة هي الحالة الحسنة الشاملة للحياتين ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾[٢] ذلك لأنهم ﴿بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾[٣] وهذا هو تبديل النّعمة نعمة عليهم ونقمة ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾[٤] ذرني وإياهم، فأنا حسبهم.

﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ بينك وبين الهجرة الحاسمة جذورهم بالجهاد، وبينهم وبين قتلهم أو موتهم إلى عذاب النار وبئس القرار.

فلقد كان صبره جميلاً على طول الخط، وإمهاله القليل جميلاً، وكله بأخلاقه وتصرفاته جميلاً أينما كان، فحق له قول الله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾[٥].

فحمل الرسالة الإلهية وتنفيذها ببلاغها بحاجة إلى صبر جميل: صموداً واستقامة للوصول إلى المغزى في سبيلها الشاق الطويل، فالصبر للرسول - هكذا - زاد وعتاد، وجُنة وسلاح، وملجأ وملاذ، بجانب ما عنده من

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٠٩.
(٢) سورة الدخان، الآيات: ٢٥-٢٨.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٨.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٢٩.
(٥) سورة القلم، الآية: ٤.

وسائل الدعوة وتدابيرها، صبراً مع النفس وشهواتها وانحرافاتها وضعفها وشرودها وعجلتها وقنوطها، وصبراً مع أعداء الدعوة وكيدهم، وصبراً مع المؤمنين، على قلتهم، وقلة صبرهم، وكثرة استعجالهم، وصبراً مع عامة النفوس التي لا تخلو من تسرعات في حق أو باطل.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ ولو مهلتهم عمر الدنيا فهو قليل، فكيف بأعمارهم التي ليست إلا قليلاً في قليل، وكيف بإمهالهم إلى زمن الهجرة وهو أقل من القليل، فلتصبر هنا وهناك صبراً جميلاً، ولتمهلهم قليلاً:

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾:

فلدينا من أنكال ما ليس لديك مهما كان نكالك عليهم شديداً.

إن أنكال النار وقيودها وأغلالها هي هي التي قدموها لأنفسهم يوم الدنيا إذ كانوا أنكالاً في سبيل الله، وكانت عليهم أغلال الشهوات فاثّاقلوا إلى الأرض ورضوا بالحياة الدنيا من الآخرة، فأكملت شهواتهم يوم الدنيا، ثم ظهرت أنكالاً يوم الدين جزاءً وفاقاً.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾: الذي يمزق الحلوق ويحرق الحناجر، كما كانت حياتهم غصة وكان الحق شجى في حلوقهم، كما كانوا شجى في حلوق المؤمنين وقذى في أعينهم، وبصيغة شاملة كانت حياتهم عذاباً أليماً على الدعوة والداعين والمدعوين، فانتقلت إلى عذاب أليم عليهم يوم الدين:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾:

رجفة الأرض والجبال - هذه: هي الرجفة الأولى المدمرة لها، ثم تتلوها الرجفة الثانية الرادفة لها، المحيية لأمواتها: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ ومواصلة الرجفتين تجعل الأولى كأنها الثانية، ولأنها بداية القيامة، فتعتبر الأولى - وهي رجفة الإماتة - كأنها يوم النكال، والطعام ذو غصة والعذاب الأليم، وهي كلها بعد الرجفة الثانية: الإحياء!.

وعلى أثر هذه الرجفة المدمرة تصبح الجبال كأنها «كانت» منذ كانت ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾(١) والكثيب المهيل هي الرمل المتراكم المنقلب أسفله أعلاه، فكما تخرج أثقالها في زلزالها، كذلك الجبال تقلب في ترمّلها وتدمّرها، فتظهر قواعدها الأعماق رملاً متراكماً محترقاً.

فإذ تتفتت الأرض وتنهار، وتكثب الجبال وتحتار، فكيف إذاً تكون أحوال الناس المهازيل الضعاف في قبضة العزيز القهار؟

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾:

﴿رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾: تلقياً لما تقولون وتعملون وتفكرون يوم الدنيا وإلقاءً لهذه الشهادة يوم الدين، فكما أن لكل أمّة شهيد هو رسول لهم: كذلك - وبأحرى - رسولنا شاهد عليكم بأكمل معاني الشهادة، وشاهد كذلك على كافة الشهداء والمشهود عليهم يوم الدين: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾(٢) فهو يتحمل شهادتهم يوم الدنيا ويؤديها كما تحمّل، يوم الدين.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ فرسالة محمد ﷺ أشبه برسالة موسى ممن سواه، وكما تحكم بهذه المماثلة السامية آية توراتية تحمل بشارة مهمة للرسول الأقدس محمد ﷺ وها هي باللغة العبرانية:

نابيء آقيم لاهِم مِقِرِبْ احِيحِم كِمُوشه ونَاتتّي دِباري بِفِيُو وِيدَبِر إلو هيم إت كال أشِر أصَّونو (سفر التثنية ١٨ : ١٧).

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.
(٢) سورة النحل، الآية: ٨٩.

نبيٌّ أقيم لهم من أقرباء أخيهم كموسى وأضع كلامي في فمه لكي يبلغهم جميع ما آمره به»[(١)].

وهذه المماثلة هي في استقلال الشريعة، وأن كتابه من وحي الله لفظاً ومعنى وفيما أصيب محمد من كفار قومه كما أصيب موسى من آل فرعون، فأخذه الله أخذاً وبيلاً: ثقيلاً هو وابل العذاب كالمطر الجارف، وهنا الآية تتهدد العصاة الطغاة على الرسالة المحمدية بالأخذ الوبيل، يهزُّ قلوبهم هزّاً ساحقاً، ويخلعها بعد رجفة الأرض وكثب الجبال المهيل، علهم يتذكرون ويحذرون من أخذة الدنيا والآخرة، فليأخذوا حذرهم بين الأخذتين في هذه الحياة القصيرة، فليتقوا هنا بأس الله قبل أن يأتيهم:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾:

ولنفرض أنكم اتقيتم عذاب الله يوم الدنيا، أم لم يأتكم فيها ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[(٢)] ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ﴾ ومتم على الكفر ﴿يَوْمًا﴾ يوم الرجفة الطامة التامة، من وقعته وشدته: ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ فإنه الهول الذي تنشق منه السماء وتخر الجبال هدًّا، فكيف بالولدان الضعاف، فتراهم كأنهم شيب من بياض نواصيهم وانحداب ظهورهم، وانكماش جلودهم، لا لخطيئة اقترفوها فإنهم قاصرون، وإنما هذه طبيعة هذا اليوم التي ترتسم في الطبيعة الصامتة أيضاً، ففي الإنسانية الحية أولى! وإذ يصبح الولدان شيباً وهم قاصرون فكيف بالكفار المكذبين وهم مقصرون، فهناك وقعة تتقى هي عذاب الله، تتقى بالإيمان بالله، ووقعة لا تتقى، وليست هي عذاباً، وإنما توحي بشدة بالغة لا تبقي ولا تذر، وهي

(١) التفصيل إلى كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ص ٣٣.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

رجفة الإماتة والتدمير، فالولدان الذين هم أطفال، لو جاز أن يشيبوا لرائع خطب، أو طارق كرب، لشابوا في هذا اليوم لعظيم أهواله وفظاعة أحواله، وإنها وقعة هي كعذاب: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ﴾ تنفطر به السماء وتنشق وتكشط وترجع رجعاً، فكيف لا ينفطر هذا الإنسان الهزيل الذليل؟ ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ لا هوادة فيه ولا رجعة منه!:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾:

وإنها تذكرة بالغة لمن أراد أن يتذكر، فمن شاء الادّكار اتخذ إلى ربه سبيلاً قدره، ومن شاء أن يسلك سبيلاً إلى ربه فزادُه أن يتذكر، إن السبل إلى الله كثيرة وكذلك إلى الشيطان: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾(١) وأنجح السبل إلى الله هو صراطه المستقيم، ثم ما دونه من السبل من حق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين والظن، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

تلمح هذه الآية - وهي الأخيرة من السورة - أنها نزلت بالمدينة، وما قبلها مكية كلها، فإن حكم الجهاد والزكاة نزلا في المدينة، وقد صبر الرسول على ما يقولون طول مقامه بمكة، وهجرهم هجراً جميلاً كما أمر، حتى جاء حكم الله بالجهاد في المدينة، وبما أن المزمل من أوّليات ما نزلت

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

على الرسول ﷺ في مكة، ولا أقل بعد ثلاث سنين من بداية الدعوة، إذ أمر بالمجاهرة فيها، وأن الآية الأخيرة فيها تتضمن الجهاد والزكاة وهما في المدينة، من هنا وهناك نتأكد أو نرجح أنها نزلت بعد الآيات الأول بعشر سنين كما قيل، والقول بسنة أو ثمانية أشهر - إذن - لا يوافقه الدليل.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾:

لقد خيّر الرسول الأقدس في ظاهر الوحي الأوّل بين هذه الثلاث فرضاً واجباً ولمّح فيه إلى ثلثي الليل كأنه الرابعة والمفضلة على الثلاثة، وكأنه من أطراف الواجب وليس منه: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ...﴾ فلم يقل ونصفه وإنما ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ كأنه الليل إلا قليلاً ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾: ثلثه ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾: على النصف، بينه وبين الثلثين، ولقد استمر الرسول بين الآيتين عشر سنين بقيامه: ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ دون ثلثيه إلا قليلاً، فلم يترك واجبه التخييري، وإنما لم يستمر في ثلثيه ولم يكن من أطراف الواجب أو كان ولم يكن مؤكداً، بدليل عدم أداة التخيير بينه وبين الثلاثة الأخرى «أو».

ولأنه تعالى كان يعلم واقع اختياره ﷺ كما يسعه ﴿أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ لذلك لم يفرض عليه ثلثيه لكي لا يذنب بتركه، أو لا يكون تاركاً للأرجح من أطراف الواجب التخييري، ولقد كانت صلاة الليل فريضة عليه دون المؤمنين، أو أنها قيام الليل الشامل لصلاته، يدل على ذلك كونه نافلة له: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾(١) وليست النافلة هنا هي الزائدة على الفرض لكي تفسر بالمستحب المندوب، وإنما «نافلة لك»: فريضة لك زائدة على فرض الأمة، فقد أمر بالتهجد هنا أمراً خاصاً، ثم عدم إحصاء طائفة من الذين معه ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ دليل ثانٍ أن قيام الليل هكذا لم يكن واجباً على الأمّة، فكيف يفرض عليهم ما

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.

لن يحصوا أوقاته؟ ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾: تاب عليهم في فرضه فلم يفرضه عليهم، فلم تكن التوبة عليهم عن عصيان في ترك الواجب، وإنما عن فرضه عليهم، فقد ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا قصور ذاتي يمنع عن هكذا تكليف، ثم قصور أحياني:

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾:

لهذه الأعذار الذاتية والوقتية أبدل لهم قراءة ما تيسر من القرآن بقيام الليل.

من هنا وهناك نتأكد أن الآية تقتسم إلى خطابين: موجّه إلى الرسول حاملاً التخفيف له عن فرض القيام ثلثي الليل، لأنه تعالى كان يعلم واقع المستطاع له ﷺ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ...﴾ وإبقاء على التخيير الثلاثي المستطاع: ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ ولأن فعله هكذا وإحصاءه كان في إمكانه ولو لم يكن يحصي الأقسام الثلاث، لم يكن محصياً للّيل، ولو لم يلق إليه قول ثقيل، ولم يكلف نهاره بالسبح الطويل، لم يك قيام الليل واجباً عليه هذا الطويل الطويل، والثقيل الثقيل.

ثم خطاب ثانٍ يوجّه إلى طائفة من الذين معه، عفي لهم عن فرض قيام الليل وأبدل به قراءة ما تيسر من القرآن ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ وبما أن «طائفة» مرفوع، لا منصوب حتى يعطف على المنصوب في «إنك» نتبين أن قيام الأدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه لم يعطف لهم، فلم يكونوا قائمين مثل الرسول، وإنما ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ... عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ فالجملة الثانية خبر طائفة، تخبر عنهم أنهم لن يحصوا الليل، فلن يقدروا على تحقيق التخيير الثلاثي ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ توبة عليهم في فرضه، لا عن

عصيانهم بعد فرضه[١]، فكيف يفرض عليهم القيام الثلاثي ليلاً وهم لن يحصوه، إضافة إلى قصورهم الأحياني - مع القصور الذاتي العلمي -: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فكان قيام الليل صعباً عليهم لهذه الأعذار ولو عفي عن التقادير المعينة الثلاثة فيه، فأبدل لهم به قراءة ما تيسّر من القرآن.

وأما الرسول ﷺ فبما أنه كان يحصي الليل، ولذلك فرض عليه القيام المسبق، فهو لا يعفى له عن قيامه، وعليه تحمل العبء في قيامه، وفي هذه الأعذار التي تعفي سائر المؤمنين عن فرض القيام، ولأنه يحمل القول الثقيل والسبح الطويل، فعليه ما ليس على غيره من التكليف الثقيل، وليأخذ زاده وأهبته في هذا الطريق الشاق الطويل بعمره القليل القليل.

فقيام الليل - بصلاته وذكره ودعائه وإحيائه - من المندوب إليه للمسلمين كأنه فرض، وفرض على الرسول الأقدس ﷺ وإنما عفي له عن ثلثيه وما زاد، وعفي للذين معه عن فرضه إطلاقاً ولكنه يداني الفرض.

وبما أن قراءة ما تيسر من القرآن ليست خارجة عن المستطاع، ولا أن شيئاً من الأعذار المسبقة تنافيها، فلنا أن نثبت على ظاهر الأمرين فيها ونستوحي الوجوب، ليلاً قدر المستطاع - فـ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ ونهاراً قدر الميسور، فلنعش القرآن قراءة وتلاوة وتفهماً وتذكراً وتصديقاً وتطبيقاً ونشراً وسماعاً وإسماعاً، وهكذا يجب أن يكون الذين مع هذا الرسول، وليسبحوا معه نهار الدعوة سبحاً طويلاً في بحر المجتمع المتلاطم، فَيَنجوا ويُنجوا الغرقى الهلكى، فالقرآن بمن يحمله سفينة النجاة.

---

(١) فالتوبة وهي الرجوع قد تكون من العبد إلى الله، رجوعاً إلى طاعته بعد العصيان، وقد تكون من الله على العبد وهي إما قبول للتوبة عن العصيان، أو رجوع بالرحمة على العبد بعدما ضيق عليه أو كان بحيث يضيق عليه لولا مزيد رحمته، وهي المعنية بتوبته تعالى هنا.

لقد ذكرت قراءة ما تيسر من القرآن هنا مرتين، مرة بعد ذكرى القصور الذاتي عن القيام الثلاثي الليلي: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ فنيابة القراءة عن القيام ليلاً، لا تكون إلا ليلاً، وأخرى بعد ذكرى الأعذار المتعبة للقيام: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ... فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ وعلها تخص النهار أو تعمه والليل، فإن هذه الأعذار تمانع قيام الليل بصلاة أو قراءةَ، على الأكثر: فلا تكرار في الأمر بالقراءة هنا، ثم يتلو قيامَ الليل وقراءة القرآن ما ينتج عنهما: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وفي قرنها بقيام الليل المسموح عنه عن المؤمنين إيحاء أنها لا تخفيف فيها ولا تتحمله إلا شكلياً كالصلاة، أو كميّاً كالزكاة فإنها تتقدر بقدر المال المزكى، وأما أن تبدل الصلاة والزكاة بغيرهما فكلّا.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾:

فالأعمال كلها - من خير وشر - تقدم للعامل لا سواه، فليس لله فيها مضرة أو منفعة، ولا لمن سواه، وإنما هي للعامل أو عليه، فقدموا لأنفسكم مما يتقدم إليكم من صالح الأعمال، فأنتم سوف تجدونها هي بأنفسها عند الله بما سجلتها المسجلات الإلهية، من أعضائكم العاملة ومن الأرض بفضائها ﴿هُوَ خَيْرًا﴾ تجدونها خيراً مما كانت، إذ تظهر بحقائقها وألبابها دون قشور تسترها، وتظهر ليوم لا حاكم فيه إلا الله وأحسن أجراً فالله يزيد أعمالكم أجراً بفضله ورحمته ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] اطلبوا منه والتمسوا لكي يغفر ويستر ما قدمتموه من طالح الأعمال أو صالحها الناقصة، ما دام المبدأ الأصيل في حياتكم ابتغاء مرضاة الله.

---

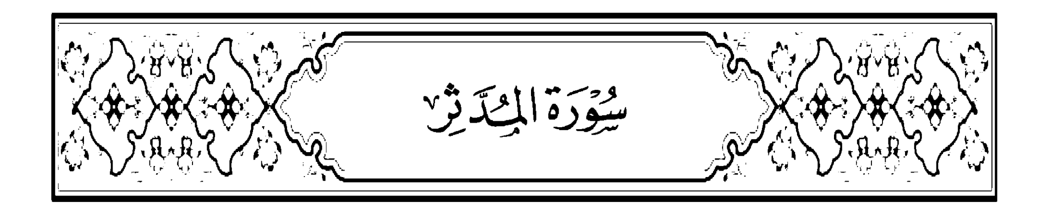
(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٩.

فالمؤمنون - إذاً - يلمسون التخفيف الندي يمسح على نصَبهم طوال سنين عشر من البعثة، وقد انتفخت أقدامهم وتورمت من القيام الطويل، مهما كانوا قاصرين عن قيام الرسول، الثلاثي، ولإحصائه الليل دونهم، ووجوبه الأصيل عليه دونهم ولحمله الثقيل وسبحه الطويل دونهم.



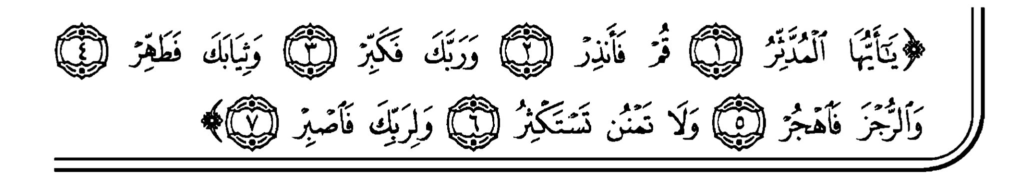
٧٤

سُورَةُ المُدَّثِّر



مكية - وآياتها ست وخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



إن المدثر من فواتح الوحي، فهي بعد الآيات الخمس الأولى من العلق، وعلها بعد الحمد أيضاً، وإذ تحتمل السورة - كالكثير من أمثالها - عدم نزولها دفعة واحدة، لذلك فآيات التوعيد والتنديد بالوعيد، الذي كان بآيات الله عنيداً، والتي تتحدث عن سائر الكافرين، بعد الآيات السبع الأولى من السورة، إنها لا تتنافى وكون هذه السبع هي النازلة بداية الوحي المفصل، بعد الخمس من علق والسبع المثاني من الحمد أيضاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾:

لقد تدثر الرسول الأقدس ﷺ إثر ما أوحيت إليه الخمس والسبع، تدثر من وقعة الوحي المفاجئ الثقيل، وعلى حدّ المروي عنه ﷺ قال: «جاورت بحراء فلما قضيت جواري فنوديت فنظرت عن يميني فلم أرَ شيئاً ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ونظرت خلفي فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت

منه رعباً فرجعت فقلت: دثروني فدثروني فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[1]». هذا وكما كان متدثراً عن قيام البلاغ منذ كان حتى زمن الرسالة، فكان عليه - إذاً - دثاراً فوق دثار، فأمر بالتحلل عنهما إلى الإنذار.

إن الدثار ما يلبس فوق الشعار وأصل المدثر المتدثر تدثراً بثيابه لينام أو ليستدفئ، وما تدّثره في الرمضاء، إلا لما أخذته من رعشة الوحي وهيبته، كأن زالت حرارته بغزارة الوحي ورعشته، فتدثر وكان حقه أن يتدثر، وبما أن مكوثه هكذا بداية الوحي ولو قليلاً، يخيل أنه مسموح له الدثار نوماً أو تدفؤاً، يؤمر آنذاك بالقيام عنه إلى الإنذار، فلا عليه ولا له وهو رسول أن يكون نائماً دثوراً مستتراً مستدفئاً، وإن كان من وقعة الوحي، فليتعود القيام والإقدام طالما العراقيل تحول بينه وبين القيام، وليعش القيام حياته: روحياً وجسدانياً وعقلياً وعلمياً، وبكل ما يملكه وما ملّكه ربّه من طاقات وإمكانيات، فالعمر قصير، والسير عسير، ودافع القعود كثير، فلا يسمح له إذاً - الدثار - أي دثار، دثار الجسم والروح، دثار الإنذار والتبشير، فليتجرد عن الدّثر كلها، إلى الإنذارات كلها.

وقد تتحمل السورة كلها أنها أنزلت بعدما شاعت دعوة الرسول وواجهته السفاسف والأقاويل السوء: أنه مجنون أو كاهن أو شاعر، وكل ذلك من طواغيت قريش: أبو جهل وأبو لهب وأبو سفيان والنضر بن الحرث وأمية بن خلف والعاص بن وائل والوليد بن مغيرة الذي تسميه الآيات الآتية وحيداً، وانتهى دور التكذيب إليه بما نقلته الآيات، فلما سمع رسول الله ﷺ ذلك اشتد عليه ورجع إلى بيته محزوناً فتدثر بثوبه فأنزل الله السورة.

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٨٠ عن جابر بن عبد الله الأنصاري، وفيه أن المدثر أول ما نزل من القرآن - أي: بعد الخمس من العلق ويلمح له قوله ﷺ هنا الذي جاءني بحراء إذاً فهذا مجيئه الثاني - وعلّ الأول كان يحمل سورة الحمد إضافة إلى الخمس كما تدل على البسملة بالبيان المسبق في سورة العلق.

فهذه دثر ثلاثة تتحملها الآيات: دثاره قبل البعثة، ودثاره بداية الوحي من رعشته، ودثاره إثر هذه الهجمات، والرسول يؤمر في هذه الدثر الثلاثة أن يقوم بالإنذار مهما كان الدثار، قياماً يستصغر فيه كل دوافع القعود وعراقيل الإنذار:

﴿قُمْ﴾:

فلقد مضى وقت القعود والدثار، وحان زمن القيام والإنذار ﴿قُمْ﴾ لله قانتاً بين الجموع المحتشدة الفالتة عن ذكر الله وطاعته ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾(١) وأقم الدين ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾(٢) وأقم الوزن أياً كان ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾(٣) ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾(٤) فإنها عمود الدين، قم وأقم واستقم ﴿فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾(٥).

﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾:

وليكن الإنذار بداية القيام، فإنه ينفع قوماً لدّاً، فإن التبشير هو بعد الإنذار، بعدما تلين القلوب للإيمان وتتقي: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾(٦) ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾(٧) فمن تأثر بالإنذار فهو المنذَر المبشر ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾(٨) ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾(٩).

فلئن أثر الإنذار كان بعده ومعه التبشير، وإلا فلماذا التبشير؟ والإنذار هو أظهر ما في الرسالات الإلهية، تنبيهاً للخطر القريب الذي يرصد الغافلين

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٣) سورة الرحمن، الآية: ٩.
(٤) سورة هود، الآية: ١١٤.
(٥) سورة الشورى، الآية: ١٥.
(٦) سورة مريم، الآية: ٩٧.
(٧) سورة القصص، الآية: ٤٦.
(٨) سورة فاطر، الآية: ١٨.
(٩) سورة يس، الآية: ١١.

الشاردين السادرين في الضلال، علهم يخافون العذاب الأليم، ومن ثم البشارة باللطف والعطف العميم.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ :

إن الفاء هنا توحي بشرطية مقدرة: إن كان هو ربك فكبره فلزام الإيمان بربوبيته تكبيره كما يلائمها، وليس تكبيره فقط قول: الله أكبر فكثير هؤلاء الذين يقولونه ولا يكبرون الرب في عقول مصغريه المشركين به ولا في أعمالهم أنفسهم، فتكبير الرب غير التكبير لفظياً للرب، وإن كان يشمله قول «الله أكبر» كما يروى عنه ﷺ[1].

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ ربك وحده، فهو وحده الكبير المتعال الذي يستحق التكبير دون سواه، يوحي بهذا الانحصار تقديم المفعول ﴿وَرَبَّكَ﴾ على فعله ﴿فَكَبِّرْ﴾ فكل شيء بجنب الله صغير، والله وحده هو الكبير، وكل صغير يكبر عرضياً بالتكبير، والله هو ذاته كبير، وإنما الأمر بالتكبير يعني تعظيمه عند الجاهلين به أو المعاندين والناكرين له، تكبيراً في عقولهم، بياناً للواقع، لا تكبيراً لواقعه، وليستعد الرسول خوضه في هذه المعركة تصغيراً لكل كيد وكل حول وقوة وكل معاكسة وكل عقبة وعرقلة، تكريساً لكافة الطاقات العقلية والمنطقية وسواها، وليعلم الجاهلون بالله والمتجاهلون، أن الله هو الكبير المتعال - فـ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾[2]: تكبيراً يليق بساحته، ويصغر كل من سواه بجنبه، تكبيراً في عقولهم وضمائرهم وفطَرهم وفكَرهم وواقع كيانهم في تفكيرهم وتصرفاتهم، ولكي يرى ويلمس

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٨١ - أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قلنا: يا رسول الله ﷺ كيف نقول إذا دخلنا في الصلاة، فأنزل الله ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ فأمرنا رسول الله ﷺ أن نفتتح الصلاة بالتكبير - أقول: هذا هو النزول الثاني لآلية، فإنها نزلت أولاً بداية الوحي قبل الصلاة وقبل أبي هريرة، وليس هذا إلا من تطبيق الآية على أدنى مراحل التكبير.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١١١.

أنه الكبير المتعال في خلقه فيعيشوا ذللاً بجنبه وفي طاعته: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾(١) المتعالي عن أن يكبر عن صغر، أو يتكبر عليه أحد ينازعه في ملكه، أو يستقل عنه أحد في كيانه - فـ ﴿هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾(٢) لا عن صغر مسبق - فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾(٣): كينونة أزلية كما في كونه، لا يشاركه فيه أحد، وكما لا يعني تكبير الله تعالى هنا أنه أكبر ممن سواه، فلا كبير سواه حتى يكون هو أكبر منه، وكذلك قول «الله أكبر» لا يعنيه، فإن كونه أكبر من غيره تصغير له، وإشراك لغيره معه في الكبر، وإنما يعني - على حد تعبير باقر العلوم عليه السلام - أنه أكبر من أن يوصف وإن كان بوصف أنه أكبر ممن سواه!

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾:

إن كانت هي ثيابك فطهرها: فالفطرة مجبولة على تطهيرها.

«ثياب - ك» و«ك» لا يختص البدن، وإنما يعمه والروح، والروح أحرى هنا، ولا سيما أن الخطاب وجّه إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والرسالة الإلهية هي روحانية المصدر والفعل والمفعول، طالما تشمل الناحية الجسدانية أيضاً.

فلكل إنسان ثلاثة أثواب ١ - ثوب الجسد المتصل به، شعاراً ودثاراً، ٢ - ثوبه المنفصل عنه: زوجته التي اعتبرت لباساً كالعكس ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾(٤) ٣ - وثوب الروح وهو لباس التقوى ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾(٥) وهذه الطهارة الثلاثية للإنسان تجعله في قمة الطهارة والنزاهة، فبإمكانه هجران الرجز كل رجز.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٩.
(٢) سورة الحج، الآية: ٦٢.
(٣) سورة النساء، الآية: ٣٤.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

فمن طهارة الثياب تنظيفها عن الدنس والنجس، وترتيبها بحيث لا تتعرض للأدناس، كالثياب الطوال التي تجر الأرض فتتقذر هي، وتقذر أيضاً خلق أصحابها إذ تخلق فيهم الخيلاء والكبرياء، وهذا من تفسير الظاهر لآلية وكما فسرها أئمة أهل البيت عليهم السلام «فطهر - أي فقصر» وكما أن من تطهيرها أيضاً لبسها بحيث لا تكون لباس الشهرة أو الهزء، تطهيراً لأصحابها عن التعرض للبهت والغيبة، وكذلك تطهيرها عن أن تكون من مصادر محرمة: سرقة أو خيانة أو بخساً أم أياً كان من وجوه الحرام.

ومنها تطهير الأزواج فإنهن لباس، أمره الله سبحانه أن يستطهر النساء، فيختارهن طاهرات من دنس الكفر ودرن العيب، لأنهن مظان الاستيلاد، ومضامُّ الأولاد، ثم إذا اختارهن هكذا يلازم تطهيرهن عمّا لا يجوز قدر المستطاع فإن فلتت منهن فالتة - إذاً - فهي هي المسؤولة لا هو، إذ أدى واجب الاختيار والتطهير.

ومنها تطهير النفس، أن يعيش تطهيرها عما يرجزها ويدنسها، فيزجرها عن الله، يقال: فلان طاهر الثياب. أي: طاهر النفس والأفعال، طاهر الضمير والأقوال ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[1].

فكما للجسم ثياب يجب تطهيرها تنزيهاً للظاهر، كذلك للروح ثياب تلبسها، فتدنسها أحياناً وتطهرها أخرى، فالفطرة السليمة والعقل السليم والقلب الواعي والعلم النافع، التي تجمعها التقوى، إنها لباس التقوى، تقوى بها الروح وتعرج إلى قمة الكمال، وكما أنها تقوى بالروح الصافية الضافية.

فهذه الطهارة هي الحالة المناسبة لتلقي الوحي، والضرورية لملابسة الإنذار والتبشير، ومزاولة الدعوة في أوساط التيارات الجارفة، والأهواء والمداخل والدروب، ولكي ينقد الملوثين دون أن يتلوث.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

ومن ثم وبعد المراس الشاملة لهذه الطهارة الثلاثية، التي تطمئنه إلى حياة الدعوة الدائبة، يؤمر بالهجر عن كافة الاضطرابات فيها ودوافعها:

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾:

إن تعلمه رجزاً فاهجره، فالفطرة مجبولة على هجر الرجز.

فأصل «الرجز» هو الاضطراب، وناقة رجزاء إذا تقارب خطْوُها واضطرب لضعف فيها، فهو - إذاً - يشمل كل اضطراب وخروج عن اعتدال سبباً ومسبباً، من العذاب وبواعثه، فالخروج من اعتدال الفطرة والعقل رجز كما أن خلافه طهارة واعتدال، وكما أن كافة المكارم داخلة في ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ كذلك التخلف عنها داخل في ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فالرسول الأقدس ﷺ أمر في بداية الوحي وبزوغ الرسالة بالإنذار وتكبير الرب بجناحي طهارة الثياب وهجر الرجز: تحلية بالمكارم، وتزكية عن المحارم، وليطمئن إلى الله متخلقاً بأخلاق الله، ويطمئن الناس إلى الله، هاجراً كل رجز واضطراب في عقيدة، أو عمل، في دعوة أو عبادة، ولذلك تسمى الأوثان رجزاً ورجساً، كما يسمى العذاب المهين - المسبب عن عبادتها - رجزاً: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾[1].

ذلك! وإن كان الرسول ﷺ عاش متطهراً هاجراً الرجز منذ ولادته إذ عافت فطرته السليمة كل انحراف وانجراف، بما كان يسلكه ملك عظيم من ملائكة الله سبيل المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره، على حدّ قول الإمام علي عليه السلام فكان يهجر المعتقدات الشوهاء والسبل الشائكة، ورجز الأخلاق والعادات، فلم يعرف عنه ولم ينسب إليه أنه شارك في شيء من خوض الجاهلية، ولكنما هذا التوجيه يعني - فيما يعنيه - إعلان المفاصلة

(١) سورة سبأ، الآية: ٥.

والتمييز الذي لا هوادة فيه ولا مسايرة، ويعني المداومة والمزيد من الطهارة وهجر الرجز منذ الدعوة بالعصمة الإلهية، إضافة إلى ما يسعاه قبلها وبعدها، لا أنه كان عليه رجز، فأمر بهجرها، فما أكثر الحالات التي هو لابسها ويأمره الله بها، إعلاناً عالمياً في إذاعة قرآنية أنه مؤمّر مطيع فلا يطمع فيه طامع للمهادنة والمسايرة، وما أكثر المزريات التي عافتها فطرته السليمة - منذ كان حتى قبض - فينهاه الله عنها بهذا الدافع وأشباهه، وليعلم العالمون أنه رسول مؤمر، لا يستقل في حسناته وعبقرياته عن ربه إلى نفسه وإن كانت نفيسة قديسة! فالقرآن - بجانب ما يذكره من مكارم الرسول - ينبهنا أنه رسول، لا يملك لنفسه بجنب ربه ضراً ولا نفعاً ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾[1].

من ثم وبعد نكران الرجز وهجره، يوجه إلى نكران ذاته، وعدم المن في معطياته، كأن لم يعط شيئاً، رغم تقديمه وبذله الكثير الكثير، وجهده وعنائه العسير العسير في هذه السبيل الشاقة الملتوية:

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾:

صحيح أن الله يمن بك على المؤمنين: لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً منهم.. ولكنك - وأنت رسول - ليس لك المن عليهم استكثاراً لما تبلغ من رسالات ربك، واستكثاراً لرفعة المحتد عند الناس، وإنما لك الاستكثار من فضل الله ورحمته، دون ابتغاء أجر منهم أو شكور، ولأن هذا التوفيق العظيم والفضل العميم يستحق الشكر لله وطلب المزيد من الله، لا من الناس الذين لا يملكون، ولا لأنفسهم شيئاً! وكما ليس له المن عليهم أن آمنهم بالله، كذلك ليس لهم المن عليه أن آمنوا بالله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾[2] فالمن

(١) سورة الجن، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٧.

لله أولاً وأخيراً دون سواه، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[١].

إن تحقيق الرسالة الإلهية نعمة من الله فلا يستحق المنّ عليه، وصدقة على المرسل إليهم وهي تبطل بالمن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[٢].

ولئن سئلنا: إذا كان المن من غير الله محظوراً، فكيف أصبح سليمان بينه وبين الإمساك مأموراً؟: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٣] والجواب أن المن هنا هو الإكثار من الإنعام كما يوحي به مقابله: الإمساك، من المن وهو الإكثار العملي، لا المنة وهي الإكثار الاستكثار القولي ومنّ الرسول الأقدس ﷺ كان أكثر المنن والعطايا بين الرسل، ولكنه منع عن المنة والاستكثار، اللهم إلا المن والإكثار.

وإن صور الاحتمال في المنّ كالتالي: بين مرغوب عنه ومطلوب، ممكن ومستحيل:

١ - المنّ العملي على الله، وهو محال ينافي ألوهيته تعالى، وينافي أقل الإيمان فضلاً عن إيمان الرسول، فلا يشمله النهي.

٢ - المنّ القولي على الله، وهو على إمكانيته مستحيل من الرسول البالغ في معرفة الله أقصاها الممكن، فلا يشمله النهي، اللهم إلا غيره.

٣ - المن العملي على الناس، وهو الإثقال بالنّعمة عليهم والإكثار منها، وهو من أوجب الواجبات الرسالية، أن يعيش الرسول حياته عطاءً للناس وهدى ورحمة لقوم يهتدون، فلا يشمله النهي أيضاً.

٤ - المنّ القولي للإيذاء، ولم يكن الرسول ممن يؤذي الناس، وإنما كان يتأذى في سبيل رفع الأذى عنهم، فلا يشمله النهي.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.
(٣) سورة ص، الآية: ٣٩.

٥ - المن القولي لتذكير النعمة، وليس إلا من الله فإنه ولي النعم، فقد يشمله النهي.

٦ - المن القولي حال الاستكثار، وكما أن «تستكثر» هنا حال، لمكان الرفع، لا جزاء الشرط المقدر، وقد يكون استكثاراً لمنّ الله عليه وعليهم فهو ممدوح لا يُنهى عنه.

٧ - وقد يكون استكثاراً لجهوده وجهاده في تبليغ رسالاته، فهو المشمول للنهي، فليستقل بلاغاتِهِ بجنب الله، وليعرف أنه ما عبده حق عبادته وما عرفه حق معرفته، ولذلك كان يستغفر ربه كل يوم سبعين مرة، لا لذنوب يقترفها، وإنما إعلاماً واعترافاً بالقصور عما يحق عليه لله، إذاً فكيف يستكثر؟ فهل يستكثر امتثاله لهذه الأوامر الإلهية من قيامه بالإنذار، وتكبيره ربه وتطهيره ثيابه وهجره الرجز، ودعوته إلى ربه؟ وهو عبد لا يملك إلا ما ملكه الله، فليستقل عمله بجنبه، وليستكثر نعمه عليه، دون أن يستكثر ما عمل من خير لله وكما عن الرسول ﷺ نفسه[(١)].

٨ - وقد يكون استكثاراً لتعظيم الناس له، ورفعة مقامه عندهم، فمن هم الناس حتى يرجو إكثارهم، وهم لا يملكون ولا لأنفسهم شيئاً، وهو المأمور ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾[(٢)] ولا ﴿جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[(٣)] فكيف يستكثر منهم وإنما عليه العطاء، دون ابتغاء أجر ولا شكور ولا جزاء، لا قليلاً ولا كثيراً، إلا من الله العلي القدير.

٩ - وقد يكون استكثاراً من الله، فما هي الصلة بين المنّ على الناس

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٥٤ عن الصادق عليه السلام قال رسول الله ﷺ في الآية: (تستكثر ما علمت من خير لله).

(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

(٣) سورة الإنسان، الآية: ٩.

والاستكثار من الله، إلا في المنّ العملي كما سبق، فعليه أن يثقلهم بنعمة البلاغ وله أن يستكثر ربه الجزاء الوفاق.

١٠ - وقد يمن عليهم عملياً يستكثر اهتداءهم، فبقدر ما يجاهد في سبيل الدعوة له أن يرجو انعطافهم إلى الحق، وهذا أمر مرغوب فيه.

فتلك عشرة كاملة في صور المن بين مستحيل ومأمور به، ومنهي عنه.

فالله تعالى يريد من رسوله الكريم ألا يظل يستعظم ما يقدمه ويستكثره مهما كان بجنب الله أو الناس أم في نفسه، فإن هذه الدعوة لا تستقيم وتدوم في نفس تحس بما تبذل في سبيلها، فعلى الرسول أن يتناسى ما يقدمه لكي يستجدّ العطاء دوماً كأنه أول العطاء، فلا يمل من كثرة العطاء ومعاكسة المعطى لهم بالتخلف والغباء، ولا يمن على المهتدين فيقطع عنهم العطاء، وإنما عليه أن يعيش عناء في عطاء وابل دون انقطاع.

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾:

تقديم الظرف يوحي بأن الصبر يجب أن يختص بدافع رضى الرب فلا يصبر لنفسه لأنها تستحليه، ولا لغيره فيسترضيه، إنما لربه فيرضيه لأنه ربه، ثم الفاء توحي بسبب هذا الاختصاص، أنه ربوبيته تعالى، جزاءً لشرط مطوي «إن كان هو ربك فله اصبر» فالصبر في سبيل الله وانحصاره بالله يتسببان من ربوبيته تعالى، فإن معركة الرسالة طويلة ضيقة، والصبر هو زادها الأصيل، وقد شرحنا مدى الصبر الجميل مسبقاً فلا نطيل.



﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾:

آية عديمة النظير من حيث التعبير، فما نرى الناقور إلا هنا، وليس هو إلا عبارة أخرى عن الصور[١] ويزيد الناقور أنه قرع يفضي إلى النقر والثقب، قارعة تقرع الكائنات لحد النقر، قرع ينتهي لمداه، فلا يبقي شيئاً ولا يذر في قيامة الإماتة، ثم قرعة الإحياء حيث تنقر الميتات وتنقلها إلى الحياة، ذلك لأنه ناقور: فاعول - مبالغة في النقر، فليس إذاً بوقاً ينفخ فيه، إنما نفخة وصرخة في الكائنات كل الكائنات، فهي ناقور لهذا النقر، وصور لهذا النفخ، نفخ في الصور هو نقرٌ في الناقور، وليس الصورُ الناقورُ إلا الكائنات بذواتها، تدمّر بصيحة واحدة، فإذا هم بالساهرة، صيحة هي زجرة

(١) راجع ج ١ من الجزء ٣٠، ففيه إيضاح عن النفخ في الصور.

تنقر أعماق الذوات، لحد تبدّل إلى غير ذواتها: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[(١)].

﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾:

هل إنها هنا نقرة الإحياء، إذ يدركون عسره بالجزاء الوفاق؟ ففي نقرة الإماتة يموت المؤمن والكافر سواء، فالعسر يومئذٍ لهما سواء! أم إنه النقرتان؟ فطالما الموت بالنقرة لهما سواء، ولكنما المؤمن يستحليه بما تعقبه من رحمات الله ونعمائه، فهو له - إذاً - يوم عسير يسير ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[(٢)] يجعله يسراً، ولكنما الكافر يستعسره بما تعقبه من نقماته عسراً على عسر، فهو له - إذاً - عسير غير يسير.

فمن طبع يوم النقرة الصعقة أنه عسير على المؤمن والكافر سواء، ولكنه رغم طبعه العسير، على المؤمن يسير، وعلى الكافر غير يسير، لما يخلفه من نقرة الإحياء، ومن ثم الحساب، فما أجدر الكافرين أن يسمعوا للبشير النذير، قبل أن يفاجئهم هذا اليوم العسير العسير.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾:

تقول الأحاديث أن المندّد به في هذه الآيات هو الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان شيخاً كبيراً مجرباً من دهاة العرب، وكان من المستهزئين برسول الله ﷺ حملته قريش على أن يفكر ويقدر لكي يعارض القرآن بما عارض إنْ هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾. و﴿وَحِيدًا﴾ هنا يتحمل كونه حالاً من مفعول ﴿ذَرْنِي﴾ ومن فاعل ﴿خَلَقْتُ﴾ وهما الله وحده، أم من مفعول «خلقت» المحذوف «ه» أو مفعولاً له ثانياً، فالمعني على الترتيب:

ذرني أنا وحيداً مع من خلقته، فالخالق وحده كاف لخلقه أجمع، في

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨. (٢) سورة الشرح، الآية: ٥.

خيرهم وشرهم، فلا تحاول لمجابهة كيد الوليد الوحيد وغيره، إلا حول الله وقوته.

ذرني ومن خلقته أنا وحيداً، لم يشاركني في خلقه غيري، فلا يكفي شره غيري.

ذرني ومن خلقته حال وحدته، بلا مال ولا بنين، ثم جعلت له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً، فأنا المعطي وأنا الآخذ، فأنا الكافي شره ويأسه.

ذرني ومن خلقته وحيداً عن مُثُل الإنسانية كلها، وعن الأب أيضاً، فقد ولد من زنا ولم يعرف له أب، وكما عن الإمام الصادق عليه السلام «الوحيد ولد الزنا».

ومن ألطف ما هنا في «وحيداً» أنه على الأخيرين يلمح إلى اسمه المستعار «وحيد قريش» إذ كان يسمى وحيدهم الفريد، وكما ادعاه هو أيضاً[1] فهذا التلميح عما كان يفتخر به هو وقومه، يعكس الأمر إلى التقبيح، أنه الوحيد عن المثل وعن أب يعرف، لا في الفضائل، وإن كان وحيداً في المال الممدود والبنين الشهود، فهو من خلق الله لا منه، فبماذا يفتخر وفيم يغتر؟ هل بما جعل الله له من مال وبنين إملاءً وابتلاءً؟ أم بما تجرد في أصله عن أب يُعرف، أو في حاله الجرداء عن كل معروف؟.

وعلى الأولين يلمح إلى صغره وضعفه وجاه خالقه العظيم، فـ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾.

هذه المعاني الأربعة متضامنة، قد لا تصلح واحدة دون أخرى، فخلق الوليد وحيداً عن المال والبنين، خلق يعم كل مخلوق، وفيما إذا انضم إليه وحدته عن الأب، فهو صفة ذم، وبانضمام وحدة الخالق في خلقه، يصبح

---

(١) نور الثقلين ٥: ٤٥٧ عن زرارة قال: ذكر لأبي جعفر عليه السلام عن أحد بني هشام أنه قال في خطبته: أنا الوليد الوحيد، فقال: ويله! لو علم ما الوحيد ما فخر بها، فقلنا له: وما هو؟ قال: من لا يعرف له أب.

الوليد هزيلاً ضعيفاً على ماله الممدود وبنيه الشهود، وبالنظرة إلى وحدة الخالق في كفايته بأس الوليد، يرتعش الحسّ من بأس الله ارتعاشة الفزع المزلزل، إذ يتصور انطلاق القوة التي لا حدّ لها، ففي هذه الوحدات الأربع، ينسحق المخلوق أيّاً كانت قدرته وجبروته، فماذا يصنع إذا الوحيد الضعيف المسكين الهزيل الضئيل!.

ففيما يخيّل إلى الرسول ﷺ أن لكيد الوحيد وأضرابه، تأخيراً للدعوة وتأثيراً سيئاً على المدعوين، نرى المهيمن الجبار الواحد القهار، كيف يُطمئِنه ﷺ ويريحه: أن الوحيد في خلق الوليد هو الوحيد الكافي عنه بأسه، كيف لا! وقد خلق وحيداً عن كل حول وقوة، مما يدل أنه لا يملك لنفسه شيئاً، فما له مع من يملكه ويملك كل شيء!.

وفيما إذا سئلنا عن رابع المعاني المسبقة، هل أن خلق الإنسان من زنا، هو من الله؟ أو أن تجرده عن المثل الأخلاقية من الله؟.

فالجواب: أن الله هو الذي يخلق الجنين، من نكاح كان أو من سفاح، فولد الزنا من خلق الله كغيره سواء، وليست عملية الزنا أو النكاح إلا من الإنسان، و﴿خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾: عن زنا دون أب يعرف، ليس إلا تنديداً بأصله المتخلف عن شريعة الله، وإن لم يكن له هو دخل في هذا الأصل، ولكنه مشى حياته التخلف، واستمر على ولادة الزنا خُلقاً، دون أن يرجع إلى فطرته، فاستحق الذم بكيانه ككل.

ثم الإنسان - أيّاً كان - يولد على فطرة سليمة طاهرة، فإذا انطلق منها انطلاقة الخير فهو السعيد بما سعى وهداه الله، وإذا تخلف عنها حجبت فطرته بالشهوات والتخلفات، وتصبح في الترذل إلى أسفل سافلين، يرده الله إليه بعدما خلقه في أحسن تقويم، فكأنما خُلق هكذا أجرد، عن المثل العليا بمبادئها، إذ لا يُلمس فيه شيء منها ولا ندى، فكأنه - إذاً - خلق وحيداً عنها ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ طالما كانت الوحدة عن تلكم المثل والتجرد

عنها، كل ذلك بما سعى وغوى، ولكن الله هو الذي يزيغ القلوب بعدما زاغت جزاءً وفاقاً: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾[1].

﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾:

إن المال الممدود والبنين الشهود هما الأساسان الأصيلان في الحياة الدنيا، وليس الإمداد بهما من الله مسارعة في الخيرات، فقد يكون إملاءً وابـــتـــلاءً: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[2].

والمال الممدود ما يمدّ الإنسان في الحياة ويجره إلى بغيته فيها كما يهواه، وهذا الممدود يقتضي مدّاً زمنياً طول الحياة دون انقطاع، ومدّاً من حيث المكان، ولكي يستطيع تجوالاً واسعاً في ماله وكما يروى: «كان ماله ممدوداً ما بين مكة إلى الطائف، من ضرع وزرع وتجارات وبساتين وأشجار وأنهار، وكان له بستان لا ينقطع صيف شتاء» ثم يقتضي مدّاً فيها بالزيادة دون نقصان، ولقد كان له كل ذلك، لكنه لم يمدّه إلا في طغيان يعْمه وبغي وتُرح ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[3].

والبنون الشهود هم الشاهدون مصالح الأب مادياً ومعنوياً ليل نهار، فالبنون الغيّب عن الأب، المستقلون في مصالحهم، ليسوا قوة وأزراً للأب، وقد يكونون عليه وزراً، كالشهود في مصالحهم أنفسهم، والغيّب عن مصالح الأب، فعدمهم خير من وجودهم، وغيابهم خير من شهودهم.

فالوليد الوحيد أعطي بنين شهوداً: شهوداً لأمواله استزادة لها دون

---

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٥٥، ٥٦.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

نقصان وشهوداً لأحواله في الأتراح والأفراح، وشهوداً له لا عليه، فيما يتطلب الشهادة، وشهوداً في تلقيهم عن والدهم، وأداء له، يمثلونه كأنهم هو وكأنه هم، لا يفارقهم ولا يفارقونه، وقد كانوا - كما يروى - ثلاثة عشر، أقوياء جبارين عقلاء.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝١٥﴾:

تمهيداً وحيداً في الحياة وجاه قومه وأقرانه، وسهلت له سبل الحياة تسهيلاً ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾: تمهيداً له بالمال الممدود والبنين الشهود، كأنه أعطي ما أعطي استحقاقاً أو دونه، ولذلك يطمع أن أزيد!.

﴿كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ۝١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾:

﴿كَلَّآۖ﴾ ليس كما يطمع فلن أزيده شيئاً، وليس كما يزعم، فلم يعط استحقاقاً وإنما ابتلاءً واستخفافاً: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾ آيات النبوة والوحي من القرآن العظيم، وآيات الله من ملائكة الوحي والرسل، وآياته الكونية الدالة على ألوهيته إذ لم يكن ليعتبر بها، إنه كان عنيداً: كثير العناد والعتاد لهذه وتلك، لذلك انتخبته قريش لكي يفكر وينظر في أمر هذه الآيات، فإنه كان ضليعاً في اللغة العربية فاختاروه، محاولة للقضاء على وحي القرآن، وليخيّل إلى الناس أنه قول البشر وسحر يؤثر، لذلك حق عليه أن يرهق صعوداً يضطر إلى عذاب صعد، يغشاه بقهرٍ غليظُ العذاب، في دنياه إذ لم يأت بشيء ضد القرآن، إلا حكماً ضد العقل ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾ ومن شأن السحر الزوال دون البقاء! وفي عقباه صلْيه سقر، وإنما العذاب الصعود هنا جزاء الكيد الصعود ضد القرآن كما كاد: بما أرهق نفسه بعناء طويل.

فالذي ينحرف عن سبيل الإيمان الميسر الودود، ويقطع حياته ضد الحق في شدة واضطراب وقلق، فحياته النفسية والفكرية هنا صَعود، فكذلك هي في الأخرى صعود جزاءً وفاقاً.

فإن كانت الأكثرية الساحقة من أصحاب الجحيم إنما يستحقونها بما انجرفوا في تيارات التخلف دون تفكير، فهذا الوليد الوحيد سوف يصلى النار بما اعتمله بتقدير وتفكير، فقد حاول أن يعكس أمر الحقيقة بعدما تجلت له من وحي القرآن، فحق له إذاً عذاب السعير:

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)﴾:

لقد اجتمعت إليه قريش - بما عرفوا من عناده لرسول الله ﷺ وأنه أعقلهم وأقدرهم على معارضه القرآن - فقالوا: يا أبا عبد شمس، ما هذا الذي يقول محمد؟ أشعر أم كهانة؟ أم خطب؟ فقال: دعوني أسمع كلامه، فدنا من رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أنشدني من شعرك، قال: ما هو شعر، ولكنه كلام الله الذي ارتضاه لملائكته وأنبيائه ورسله، فقال: اتل عليّ منه شيئاً، فقرأ عليه رسول الله ﷺ: «حم السجدة» فلما بلغ قوله ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[1] اقشعر الوليد وقامت كل شعرة في رأسه ولحيته ومرّ إلى بيته ولم يرجع إلى قريش من ذلك، فمشوا إلى أبي جهل فقالوا: يا أبا الحكم إن أبا عبد شمس صبأ إلى دين محمد، والله ليصبأن قريش، أما ترى لم يرجع إلينا، فغدا أبو جهل إلى الوليد فقال: يا عم نكست رؤوسنا وفضحتنا وأشمتّ بنا عدونا وصبوت إلى دين محمد، فقال: ما صبوت إلى دينه ولكني سمعت كلاماً صعباً منه تقشعر الجلود، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى! فقال له أبو جهل: أخطب هو؟ قال: لا، إن الخطب كلام متصل وهذا كلام منثور لا يشبه

(١) سورة فصلت، الآية: ١٣.

بعضه بعضاً، قال: أفشعر هو؟ قال: لا، أما إني لقد سمعت أشعار العرب بسيطها ومديدها، ورملها ورجزها وما هو بشعر، وهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط.

ثم قال: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يحنق؟ وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يحدث بما يتحدث به الكهنة؟ وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا في كل ذلك: اللهم لا، قالوا له: فما هو؟.

ففكر فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه...».

إن آخر ما وصل إليه الوليد في تفكيره وتقديره وقياسه القرآن على غيره: أنه سحر لا كسائر السحر، إنما سحر يؤثر، سحر لأنه يفرق بين الأحبة ويؤثر لأن الفراق الناتج عنه لا يزول كسائر السحر، وإنما يؤثر ويبقى. ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ في أمر القرآن ليعتبره من كلام الخلق ﴿وَقَدَّرَ﴾ بكافة المقادير التي يمكن أن يقدر ويقاس بها كلام، فلم ير فيه شبهاً من شعر ولا خطب، ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾: قدّره وقاسه بسائر السحر فما قدر أن يقول: هو سحر، لأن السحر لا يبقى ولا يؤثر، فأثر السحر - أيّ سحر - دائر يزول بمثله أم بنفسه أم بمعجزة إلهية، ولكن أثر القرآن باقٍ، لا يزداد على طول المكوث إلا ازدهاراً، والسحر لا يوافقه العقل والفطرة والذوق السليم، ويمكن إبطاله بالبراهين العقلية، والقرآن يأخذ بأزمة العقول ويجعل الإنسان مختاراً بين الرد والقبول، لا محتاراً لا حول له ولا قوة، فلا يمكن القول إنه سحر كسائر السحر. ثم «نظر» في الأمرين: أنه سحر؟ لا! أنه معجزة إلهية؟ لا يوافقها هواي، فخلط بين الأمرين فقال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ ففرّع على دعوى السحر ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ ولم يفرع على قوله ﴿يُؤْثَرُ﴾ شيئاً، لأنه يحمله على مصارحة التناقض إذا قال «معجزة» إذ من شأن البقاء والأثر في

مثل هذا الكلام ألا يكون من كلام البشر، فخلط حقاً بباطل، ثم استنتج من باطله باطلاً وتغمض عن حقه ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ قطب حاجبيه عابساً، يقبض ملامح وجهه باسراً ليستجمع فكره، وعرف بعد ذلك كله أنه وحي، ولكنه ﴿أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ وعبر عن رأيه بعد هذا المخاض كله، وهذا الحذق كله، وقال: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

فهناك تفكير وتقدير ونظر وعبس وبسر وإدبار واستكبار، أبواب جهنمية سبع فتحها الوليد ليحرق بنيرانها وحي القرآن، ولكن هذه التقولة الجهنمية لم تفضح إلا إياه لمن فكر وقدر ونظر حقه دون إدبار واستكبار.

فكر في القرآن الذي سمعه واحتار في أمره واقشعر، وقدره وقايسه بسائر الكلام من نظم ونثر، ثم نظر فيما قدر فلم يقدر على شيء يبطل به وحي القرآن حالات ثلاث كلها فكرية قلبية، فلما لم يجد حيلة عبس في وجهه وبسر، تدليلاً على أنه يواصل في عمق التفكير والتقدير، وإن كان كذلك، ولكنه عبس القلب وبسره بعجزه، ظهر على وجهه وملامحه، ثم أدبر عما حصل بتفكيره وتقديره ونظره، واستكبر عن إظهار الحق، فلم يجد بدّاً أن يخلطه بالباطل ليستره على الجاهلين وقد ستر.

إن العَبْس هو قُطوب ما بين العينين، والبَسر الاستعجال بالشيء قبل أوانه، فقد عبس حيث احتار بين أمرين ١ - نصوع وحى القرآن فكيف يكذبه ٢ - عناده لنبي القرآن فكيف يصدقه، ولذلك «بسر»: استعجل في حكمه دون أن يتأمل في مغزاه، أنه سوف يفضحه، فآثر عاجل دنياه على آجل عقباه، واستعجل عذابه النفسي هنا بما أبداه من تناقض ﴿سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ قبل أن يأخذه عذابه الشامل يوم الطامة الكبرى.

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾: إنه قتل نفسه بتقديره مرتين: في الدنيا إذ فضح نفسه بما أنتجه من تناقض: «سحر يؤثر» وفي الآخرة إذ

يصلى سقر، وكل ذلك بما قتل ضميره في حكمه الباطل، رغم معرفته بحق الوحي القرآني ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1].

ف «قتل» هنا وهناك إخبار لا دعاء، وحاشَ ربنا عن الدعاء، فإنه ليس إلا لمن يعجز عن الوصول إلى بغيته، فيدعو غيره ليوصله، فهل لربنا رب يدعوه؟.. وإنما كيفية تقديره بما فكره قبله ونظره بعده، إنها قتلته وفضحته وعذبته، بما قتل حينذاك ضميره المدرك، تأمل.

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾

فما هو السحر؟ وما الذي يؤثر؟

إن السحر هو إصابة السَّحَر: طرف الحلقوم، ما يؤثر في الإنسان دون اختياره ومن حيث يعمى، وهو يبطل بسحر مثله أو أقوى، فأحرى أن يبطل بمعجزة إلهيه، ومن ميزاته أنه يرهب ويأخذ العين على غِرَّة: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[2] وإن الله يبطله:

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾[3] وإنه لا يتخطى الخيال إلى العقل ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[4] وجماع القول في السحر أنه لا يفلح فاعله حيث أتى فلا يبقى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[5] ومن آثار السحر التفريق بين الأحبة ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾[6] ولكنه أيضاً غير مفلح

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١١٦.
(٣) سورة يونس، الآيتان: ٨١، ٨٢.
(٤) سورة طه، الآية: ٦٦.
(٥) سورة طه، الآية: ٦٩.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

إذ يبطل بسحر مثله أو معجزة، فلا يؤثر ويبقى، وآخر ما توصل إليه الوليد في قولته الباردة «إنه سحر»: ما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه وهنا استفاد من جهل الجهال بمجرد تشابه التعبيرين: «إن الساحر يفرق. وترون هذا أيضاً يفرق» ويا له من فرق شاسع بين التفريقين، ما يفرق بما يعمى سببه ولا يبقى ولا يعرف لماذا؟ وهو السحر وأشباهه من الباطل، وما يفرق مبصراً بسناد البينات الفطرية والفكرية والعقلية، فإن كان كل مفرق سحراً فليكن العلم والعقل وسائر الكمالات المفرقة بين الناس، ليكن كل ذلك سحراً، ولتكن كافة المبادئ والأديان الحقة المفرقة بين المحقين والمبطلين سحراً.

إن القرآن ورسول القرآن يفرقان بين المتحدين في الحيرة والضلال، ففريق يؤمن وفريق يكفر، كلّ على بيّنة مبصرة، إيماناً لبيناته، وكفراً لشهواته، دون أن يعمى لهما المصدر والمورد والدليل، فهل هذا سحر؟ كلا! وكما اضطر الوحيد أن يتبعه بـ﴿يُؤْثَرُ﴾ يبقى، ولكنما السحر لا يبقى!.

فمن الفوارق بين السحر والآيات المعجزة أنها مبصرة بينة لا تخفى على العقول ومفلحة تأخذ بأزمه القلوب دون زوال، فهل القرآن إذاً سحر؟.

﴿يُؤْثَرُ﴾ قد تكون ﴿يُؤْثَرُ﴾ من الإيثار، أي - على كونه سحراً - يقدم على غيره، من السحر ومن الآيات المعجزة، فلا تتغلب عليها أية محاولة لمعارضته، إنما ﴿يُؤْثَرُ﴾.

وقد تكون من الأثر بمعنى البقاء: سحر يبقى! فهو بالمعنيين ليس سحراً، إذ هو يبقى والسحر لا يبقى، ويقدم على غيره من سحر ومعجزة، والسحر يبطل بسحر مثله وبالمعجزة، إذاً فلم ينتج تفكير الوحيد وتدبيره ونظره إلا حكماً متناقضاً في نفسه.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ وهذا صحيح إذا كان سحراً، ولكنه يؤثر، فكيف يكون قول البشر، فهل يوجد من قول البشر ما يؤثر؟!.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾:

فكما أن الوليد الوحيد أصلي ناراً ليحرق بها وحي القرآن، ما يزعم أنه يجعله بين الحياة والموت، موتاً بالسحر وحياتاً بأنه يؤثر، كذلك هو سيصلى سقر، ناراً لا تبقي ولا نذر.

وبما أن السقر من سقرته الشمس: لوّحته وأذابته، فهي أصل النار وأشده في الجحيم، يصلاها: يوقدها - أمثال الوليد من الألداء الأشداء، رؤوس الكفر والضلالة.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾؟ إنك دريت ما هي، لكنه بالوحي، فهي من الشدة لحدّ لا مثيل لها يوم الدنيا حتى يقاس بها، فهذا تهويل بتجهيل سقر، ثم يفسرها بمفعولها وبعض ملازماتها:

﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾: فهي تكنس أهلها كنساً وتمحوهم محواً، فلا يقف لها شيء على حاله، فلا تبقيهم أحياء ولا تتركهم يموتون: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾(١) حالة وسطى بينهما هي أشد من الموت، وكما لا تبقي لهم أرواحاً ولا أجساداً إلا أحرقتها، ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾﴾(٢) دون النار الدنيا الخاصة بالأجساد، وكما لا تبقي لهم جلوداً ولا تذر: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾(٣) ناراً ساحقة ماحقة فيها أشد العذاب وأبقاه، ومن آثارها:

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ البشر جمع البشرة، الظاهر من الجلد، لأي صاحب جلد

(١) سورة الأعلى، الآيتان: ١٢، ١٣.
(٢) سورة الهمزة، الآيتان: ٦، ٧.
(٣) سورة النساء، الآية: ٥٦.

واختص الإنسان باسم البشر بين سائر ذوي البشر، لظهور جلده دونها، فإنها مستورة بالشعر والوبر: فهي أيضاً بشر في أصل المعنى، والبشر هنا في وجه عام يعم كل ذي بشرة ممن تلوّحه النار من جن وإنسان وحيوان، وإن كان يلمح للبشر الإنسان بوجه خاص، فالبشر هنا عام لكل بشرة وبشر.

واللواحة مبالغة من «لاح»: ظهر - فهي لواحة: كثيرة الظهور والبروز، ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾[1] ولائحة كاللوحة، تلوح فيها أعمالهم الشريرة، فإن النار ليست إلا ظهوراً للتخلف عن الهدى والنور بقدره. وتلوّح البشرة أيضاً من «لاحه» العطش ولوّحه إذا غيره، فهي تسوّد البشرة وتنضجها تغييراً للونها وهيئتها ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ فهذه النار هي عذاب مثلث لأهلها، تثير الفزع في النفوس بنظرها المخيف رؤية لها، وللأعمال الناتجة هي عنها، وبأثرها الساحق نضجاً وتسويداً للبشرة، فهل أن لأهلها من خلاص؟ ولات حين مناص! فإنها تحت الحراس، بملائكة غلاظ شداد:

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ تسعة عشر ملكاً، لا طائفة أو جماعة من الملك، فإن معدود المؤنث هنا غير مؤنث، فليست امرأة كذلك، ثم ولا رجلاً، ولأن النار تحرق الإنس والجن، فليس أصحاب النار منهم بل ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ والملك ليس مؤنثاً، ولا لفظياً، فليكن هو المعدود لهذا العدد المؤنث، دون المؤنثات اللفظية والمعنوية.

وهؤلاء التسعة عشر ملكاً ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2] ويرأسهم واحد منهم «مالك» فإنه يملك النار ويحرسها ببقية الزبانية: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[3] وهو ومن معه

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٣٦.
(٢) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٧٧.

هم الزبانية: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾[1] من الزبْن وهو الدفع، فهم شُرَط النار الدافعون أهل النار إلى النار، وهم خزنتها: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[2].



(١) سورة العلق، الآيتان: ١٧، ١٨.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٧١.

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾

أصحاب النار هنا من يصحبونها حراسة وحفاظاً لها وزبانية لأهلها، فليكونوا ممن لا تحرقهم النار، ولذلك جعلوا ملائكة فإنهم نور والنور لا تحرقها النار.

ثم إنهم، ذواتهم، وعدتهم العددية القليلة، والناقصة عن كمال العدد، هم فتنة للكافرين والذين في قلوبهم مرض، واستيقان وازدياد لإيمان أهل الكتاب والمؤمنين.

إن هذا العدد بالذات، وكسائر العدد في سائر المواضيع، مما يثير رغبة الجدال للجاهل المتعنت في قلوب مقلوبة ونفوس مريضة، لماذا الزبانية تسعة عشر؟.

لماذا هذه القلة القليلة؟ فبإمكاننا نحن الأشداء الأقوياء أن ندفعهم، وعلى حدّ تعبير قائلهم أبو جهل: «ثكلتكم أمهاتكم اسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة وأنتم الدّهم، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم»؟[1] فهذا الوغد النكد خيل إليه أن التسعة عشر

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٨٤ - أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: لما سمع أبو جهل عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ قال:

رجال، وهم ملائكة وعلى قلة عددهم أقوياءُ عدداً! على حدّ قول الرسول الأقدس ﷺ: «كأن أعينهم البرق، وكأن أفواههم الصياصي، يجرون أشفارهم، لهم مثل قوة الثقلين، يقبل أحدهم بالأمّة من الناس يسوقهم، على رقبته جبل، حتى يرمي بهم في النار، فيرمي بالجبل عليهم»(١).

إنما هنا وهناك العُدد الإلهية تعمل كما يريد الله، وليست العدة ذات أهمية، بل ولا أصل الجنود ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ فالعدد أياً كان إنه فتنة لهؤلاء الأوغاد المناكيد، تسعة عشر أو عشرين، أو زد عليها ما شئت، فإن المجادل الجاهل لا يقف لحدّ في الجدال، فالعاقل إنما يجادل من يجوز عليه الجهل، مع علم مسبق له نفسه، وبرهان قاطع يتنافى والخبر الجديد، وأما الناكرون للجحيم وزبانيتها، والنار وحدودها، فكيف لهم الجدال مع نسّاق الوجود، العالم بالعدد والمعدود والحد والمحدود؟ كأن لهم العلم بحد العدد وهو الجاهل، أو هم القادرون على هذا العدد، القليل في زعمهم، وهو العاجز عن أن يزيدهم بعَدد أو يقويهم بعُدد!

كلا - إن هذا العدد كسائر الأعداد في سائر المواضيع، يتمكن الجاهل الغبي أن يعترض على أي منها يشاء، دون برهان على خلافه قائلاً: لماذا السماوات سبع؟ لماذا حمل الجنين بين ستة أشهر وتسعة، لماذا الصلوات اليومية سبع عشر ركعة ولماذا؟

والجواب: أن خالق الخلق ومدبره يريد ويفعل ما يريد ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾(٢) ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾(٣).

فلو جعل عدد الزبانية تسعة عشر ألفاً أو مليوناً أو ملياراً أو ما زاد،

---

(١) المصدر أخرج ابن مردوية عن ابن عباس قال: حدثت أن النبي ﷺ قال:
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.

لقالوا: لماذا لم يجعل عشرين ألفاً أو ما زاد: ولو جعلهم عشرين ألفاً أو ما زاد لقالوا: لماذا لم يجعلهم أكثر أو أقل.

ولو لم يجعل للجحيم زبانية لقالوا: إله عاجز بلا جنود، فهم ------- أينما وجهوا، فالله تعالى إنما يجعل الزبانية تسعة عشر فتنة للضالين ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين، وإيقاناً لأهل الكتاب بما لهم من خبر مسبق عن هذا العدد في كتبهم وازدياداً لإيمان المؤمنين، كما يزدادون بغيرها من آيات الله البينات ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1] فكل مقالة من ربهم يزيدهم إيماناً، لتفتّح قلوبهم وانشراح صدورهم، ولأن كتب الوحي المسبقة تصدق هذا العدد، وأنه لو لم يكن وحياً من الله لما اختاره محمد ﷺ وهو أعقل العقلاء، فهل ليثير الهزء والهُراء من الكافرين والذين في قلوبهم مرض؟.. ولأن قلة الزبانية تدل على كثرة القدرة الإلهية، وما الجنود إلا ذكرى للبشر، دون حاجة من الله إليها، وكما تصدقه سائر الجنود من الطير الأبابيل التي رمت أصحاب الفيل، ومن القمل والجراد والضفادع التي قضت على آل فرعون، وأمثال هذه وتلك مما لا يحسب لها حساب في كيانها، وإنما تتغلب بحساب الله لكي يدركوا جانباً من القدرة الإلهية ومن ضعفهم وجاهها.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾:

يضل الكافر المعاند بما يهدي به المؤمن المحايد، دون فرق في الحجة بين الفريقين إلا بما يسعى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2]: ضلالاً ثانياً ناتجاً عن ضلال أول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[3] كما الهداية الثانية ناتجة عن هداية أولى وإيمان: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[4].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦.
(٣) سورة الصف، الآية: ٥.
(٤) سورة الكهف، الآية: ١٣.

فقد كشف الله لعباده عن طريقي الهدى والضلال ونجديهما كالشمس في رابعة النهار ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[(١)] فحدد لنا نهوجاً نسلكها فنهتدي بها، وأخرى ننحرف إليها فنضل ونشقى، اختياراً دون إجبار: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[(٢)] ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[(٣)] دون تسيير على الشكر أو الكفران، إلا أنه تعالى فطر الناس على طلب الهدى، فمن فسق عن فطرته التي فطره الله عليها ضلّ، ومن تبناها في الحياة، مستوحياً في استقامتها وحي السماء فقد نجى وزاده الله هدى.

إن الذين في قلوبهم مرض لم يكونوا ليعقلوا أن هذا العدد تعبير عن واقع الزبانية، إذ حسبوه مثلاً، ثم اعترضوا عليه كمثل ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ من شاء الضلالة وزاغ عن الحق أزاغ الله قلبه وختم عليه، ضلالة ثانية بالاختيار، ومن شاء الهداية وتحراها هداه الله، هداية ثانية بالاختيار ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[(٤)].

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾:

فإنها غيب كلها في كيانها، وفي عَددها وعُددها، إلا ما كشف الله لنا عنها، سواء أكانت جنود إنسية أو جنية أو ملكية أم سواها من حيوان وسواه، فلا يعلمها إلا هو، إلا ما كشف لنا عنها كما كشف عن عدد جنود سقر، الزبانية التسعة عشر، عن عددهم دون عُددهم، فما عرَّفناه عرفناه وآمنّا، وما جهلناه سكتنا عنه وآمنا، كسائر الجنود الربانيين وكما يحدث الرسول ﷺ عن بعضهم إذ شاهدهم ليلة المعراج[(٥)].

---

(١) سورة البلد، الآية: ١٠.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٩.
(٣) سورة الإنسان، الآية: ٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨٢.
(٥) الدر المنثور ٦: ٢٨٤ - أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد الخدري أن رسول =

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾:

فكما الله باينٌ عنا في ذاته وأفعاله وصفاته، كذلك في جنوده، فالجنود لمن سوى الله ناصرة لأصحابها، بما أن أصحابها قاصرة بدونها، فكلما كثرت الجنود ازدادت أصحابها قوة وشوكة، وكلما قلت ضعفت وانهارت، وتُعاكسها جنود الله، فإن كيانها بعَددها وعُددها ليس نصرة لله، وإنما ذكرى للبشر بما يأنسها البشر، فإن البشر لا يتذكر في الأكثر إلا بما يباشره حسّه، فالجنود ذكرى لهم بعذاب ملموس بما تعودوها في حياتهم، فواقع الجنود بذكراها أدخل في النفوس، وأرهب للقلوب من قدرة تجردية إلهية غير ملموسة بنفسها.

إذاً فلا التسعة عشر تنبئ عن عجزه تعالى عن تكميلها، ولا أصل الجنود تنبئ عن حاجته إليها، وإنما هي بعَددها وعُددها لحكم شتى عرّفنا الله تعالى طرفاً منها وليذكّر أولوا الألباب.



= الله ﷺ حدثهم عن ليلة الإسراء قال: فصعدت أنا وجبريل إلى السماء الدنيا فإذا بملك يقال له: إسماعيل وهو صاحب سماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك منهم جنده مائة ألف - وتلا هذه الآية ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدّثر: ٣١].

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾:

﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وتنديد شديد بما تقدم من أوهام خابطة وأقاويل حابطة، إن القرآن سحر يؤثر وهو قول البشر، وأن الزبانية التسعة عشر هراء أسطورية وإن سقر خيال يؤثر عن أساطير الأولين.

﴿كَلَّا﴾ ليس كما يزعمه الزاعمون ويتقوله القوالون، ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾...: -

قسماً بالقمر الزاهر في قلب السماء، بمشاهده وجلواته، وقسماً بالليل حين يدبر، إدباراً من ظلامه بالقمر، وعن كيانه بانصرام ساعاته، وقسماً بالصبح إذا أسفر عن وجهه بإدبار الليل، ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾: إن الآيات

القرآنية لإحدى الآيات الكبرى الإلهية وكبراها - إن سقر لإحدى الآيات المنذرة هنا بذكراها، وبعد الموت بواقعها - إن التسعة عشر لإحدى الطوائف من جنود ربك الكبر!

فكما القمر حينما يظهر يزهر ويخفف عن وطأة الظلام، ثم يساعده تصرم الليل وانحداره فيدبر الليل تماماً إذ يهاجم بعسكر الشمس والقمر، القمر في قلبه والشمس تمده حين انحداره، فإذا الصبح يسفر.

كذلك الأقمار الزاهرة والآيات الباهرة القرآنية، إنها حقائق نورانية ثابتة تتقدم، تزيل الظلام عن أجواء القلوب المقلوبة والأفكار المظلمة، ثم هي في تقدم وانبهار، كما الظلام في تأخر وانصهار، يدبر الليلة الظلماء شيئاً فشيئاً، إلى أن تصل نور القمر بضياء الشمس في الصبح إذا أسفر، صبح العدالة الإنسانية على ضوء شمس الهداية المهدوية، إذ تزول كافة الغيوم عن وجه الآيات المنيرة القرآنية في دولة القائم المهدي عليه السلام فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً.

فكما أن مشاهد القمر والليل إذا أدبر والصبح إذا أسفر، أنها ظاهرة للبصر كذلك مشاهد الآيات القرآنية ظاهرة للبصائر، للأفكار الصافية والقلوب الضافية، تغسل القلوب كما لو كانت تستحم بالنور، فهي هي بذواتها تشهد لذوي البصائر أنها إلهية وليست سحراً يؤثر، وإنما معجزة تؤثر وتبقى حتى تشمل العالم كله في الصبح إذا أسفر: صبح الدولة الإسلامية زمن قيام القائم المهدي عليه السلام.

قسماً بهذه الشواهد الكونية، إن الآيات القرآنية لإحدى الكبر، هي الوحيدة بين آيات الله الكبرى، فإن الآيات المعجزات لمن سبق من الرسل كانت وقتية بصرية وقد زالت، على كونها كبيرة في وقتها ومغزاها، ولكنما القرآن آية خالدة تجري كجري الشمس، ويشرق على قلوب وأفكار المكلفين

ما طلعت الشمس وغربت، فهو شمس لا تغرب، بل وتزداد نوراً وبهوراً على مرّ الدهور، وإنها تفك النفوس عن رهانة الأعمال الأغلال التي تسوقها إلى سقر.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾:

فالقرآن نذير بشير، والسقر نذير، والتسعة عشر نذير للبشر:

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾:

فهذه النذارة الإلهية من القرآن ومن سقر وتسعة عشر، إنها للبشر كل البشر، مخيراً دون مسير: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ اختياراً للتقدم فنعمّا، أو للتأخر فبئسما: ﴿أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1].

لقد هيّأ الله دوافع تقدم الإنسان إلى المثل العليا بالفطرة التي فطر الناس عليها، وبالعقول المتصلة وأخرى منفصلة هم رجالات الوحي، فمن شاءَ تقدماً في فطرته وعقله على ضوء السنن الإلهية، الكونية والتشريعية، فحسبه القرآن هادياً له وسراجاً منيراً، ومن تخلف عن ذلك كله وانحاز إلى الشهوات والمغريات فهو المتأخر عما هيأ الله له فلا يلومن إلّا نفسه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[2].

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾:

إن رهانة النفوس بأعمالها ضابطة عامة تعم المكلفين أجمع، وإن كانوا مؤمنين بعضاً، إلا أصحاب اليمين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[3] رهانة معتدلة

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٣) سورة الطور، الآية: ٢١.

قابلة للتخفيف لمن آمن مهما أخطأ وعصى، ورهانة مؤكدة لغير المؤمن وكما يوحيها ﴿رَهِينَةٌ﴾ فإنها ليست هنا للتأنيث، لاستواء المذكر والمؤنث في الفعيل، بل للمبالغة، فمن النفوس رهين ومنها رهينة ومنها غير رهين كأصحاب اليمين ومن فوقهم، فإن لهم نفوساً قدسية، فلا ترهن بأعمالها، ولا يسأل عنها، لأنها ما كسبت في إيمانها وأيمانها إلا خيراً فأصبحت خيراً في ذواتها، لا يقدر ثوابها بأعمالها.

والنفس هنا تعني كِلا الروح والجسم، وكذلك ما كسبت، تعم مكاسبها الروحانية والجسدانية، وإن كان الجسد لا يعمل إلا على ضوء الروح، ولكنما الروح قد تكسب مكاسب مجردة بلا وسائط، كالعقيدة والإيمان والنيّة وأضرابها، فهي تثاب بها أو تعاقب كما سعت، وقد تكسب بواسطة الجسد كسائر الأعمال الجسدانية، فهي تثاب أو تعاقب بواسطة الجسد، والمدرك في كلا الحالين هو الروح، والرهن يعم الكسبين، ولا سيما أن الكاسب هو الروح في الحالين.

فالنفوس كلها، إلا أصحاب اليمين والسابقين، إنها رهينة بمكاسبها، خيرة وشريرة: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾(١) تجد خيرها وشرها سواء، فتجزى بهما على سواء، إلا أصحاب اليمين وأحرى منهم السابقين المقربين:

﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ فِى جَنَّٰتٍ. . .﴾:

صحيح أن من أصحاب اليمين من لا يخلو عن سيئات، ولكنهم متحللون عن رهانتها برجاحة الحسنات: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(٢) فسيئاتهم مكفرة بكبائر الحسنات وبترك كبائر السيئات: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٤.

عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[1] بل ومنهم من يبدل الله سيئاتهم حسنات: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[2].

فهؤلاء سوف لا يرون ولا يجدون سيئاتهم يوم العرض في الميزان لأنها كُفرت أو بدلت حسنات، فلا ترهن نفوسم بالسيئات، والحسنات لا ترهن وتقيد نفوس أصحابها، وإنما تحرّرها عن السؤال، وعن حدود مقررة لها، فلهم جزاءٌ بلا حساب وفوق الحساب.

إن التقسيم الثلاثي الذي تحمله آيات عدة، يجعل المؤمنين غير التائبين، ومن لم تكفر سيئاته، يجعلهم في أصحاب الشمال، فليس أصحاب الشمال هنا على سواء، وإنما هم المرهنون بأعمالهم، سواء المخلدون في النار، أو الناجون عنها بعد أمد قريب أم بعيد: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾[3] ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾[4] فالفريق الأخير من أضل أصحاب الشمال ولا يشملهم كلهم فإن منهم: آخرون ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[5] وإذا رجحت سيئاتهم أم لم تكفر بحسناتهم فسبيلهم الأخيرة هي النجاة من النار.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.
(٣) سورة الواقعة، الآيات: ٨-١٤.
(٤) سورة الواقعة، الآيات: ٨٨-٩٤.
(٥) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

ثم أصحاب اليمين. وأحرى منهم السابقون المقربون. هم ليسوا رهائن مكاسبهم، فهم - ولا سيما الآخرون - ليسوا من المحضرين للحساب، فإنهم فوق الحساب: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾[1] فقد استقروا في مستقر العبودية فبماذا يحاسبون؟ وأصحاب اليمين منهم كفّرت سيئاتهم بحسناتهم أو بدّلت حسنات، فعلامَ يحاسبون؟:

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾:

﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ جميعاً ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ تساؤل صاحب الشأن المفوض في الموقف، سؤال تبكيت وتجهيل وتخجيل، وليسمع الجواب من في الموقف، ويتذكره هنا من يقرأ القرآن ويسمعه.

﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ وهم من المرهونين بما كسبوا، فالإجرام قطع الثمرة عن الشجرة، فهم الذين قطعوا ثمرات الحياة ولم ينتفعوا منها، قطعاً بعد إيناعها كمن آمن ثم كفر، أو قطعاً عن نموها وإيناعها كالذين تخلفوا عن هداية الفطرة والشريعة، فإذا قطع الإنسان عن نفسه: عن شجرته الإنسانية - ثمرات حياتها، فقطع نفسه عن الصلة المعرفية بالله، فهذا مقطوع عن الخير كله وكان مصيره سقر:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾: ما أنفذكم في سقر فلم تنجوا عنها بتوبة ولا شفاعة، ولم تكفر عنكم سيئاتكم فأنفذتكم في سقر؟

هنا نجد الجواب شرحاً لمدى الإجرام السالك صاحبه في سقر:

﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾:

هذه هي جماع الأسباب لسلوك سقر لجماع المجرمين، مهما اختلفوا

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٢٧، ١٢٨.

في جمعها كما في أتعس المجرمين، أو بعضها، واحدة أو أكثر، فإن الجواب للجميع وليسوا على نسق واحد في الإجرام، فالمجرمون دركات، كما أن أصحاب اليمين درجات والسؤال لأصحاب اليمين أجمع عن المجرمين أجمع، فليس العطف هنا بين الأربع يوحي لاشتراط الجمع بينها في سلوك سقر:

﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ فالصلاة - في نظرة عميقة - هي الإيمان كله، فالخارج عن زمرة المصلين خارج عن زمرة المؤمنين، مهما كان مقراً بالشهادتين، ولذلك نجدها مع إيتاء الزكاة من شروط قبول توبة المشركين: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ...﴾[1] ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[2] فالخروج عن الشرك والكفر، والدخول في الأخوة الدينية هما مربوطان بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾: من زكاة أو صدقات أخرى: ضرائب مستقيمة وسواها، فالزكاة، في العلاقات البشرية إسلامياً، هي أخ الصلاة في العلاقات العبودية، قد لا يعتبر تاركها مسلماً: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٧﴾﴾[3].

صحيح أن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة هما من فروع الدين، ولكنهما كالأصول، لأنهما أول ما يبرز وأبرزه ممن يعتنق الإسلام، فليحكم على تاركها بالكفر واقعياً وإن كان مسلماً عقائدياً.

إن الزكاة هي عبادة الله في خلقه بعد عبادته في ذاته، فتركها مع ترك الصلاة ترك لعبادة الله من جهتين، وهو يدفع بالإنسان - لا محالة - إلى

(١) سورة التوبة، الآية: ٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١١.
(٣) سورة فصلت، الآيتان: ٦، ٧.

نكران أصول الدين، بالخوض مع الخائضين المستهزئين برب العالمين ورسله، والتكذيب بيوم الدين:

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾: الخوض لغوياً هو الشروع في الماء والمرور فيه واستعير للغور في الباطل، تصدياً له ونكراناً للحق، وهذه هي حالة الاستهتار بأمر العقيدة وأخذها مأخذ الهزل واللعبة دون مبالاة.

فمن الخائضين من يخوض قصداً وعناداً وعتاداً على الحق وهم أصول الضلالة، الذين يعيشونها حياتهم، ويضللون من سواهم: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[١] فالذين يخوضون مع الخائضين هم هوامش الضلالة، وحالهم كالأصول ومصيرهم إلى جهنم جميعاً، فالخائض في آيات الله هنا يخوضها كفراً واستهزاءً ولعباً بها، بدل أن يغورها تعمقاً وتأنقاً وتدبراً: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾﴾[٢] ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾[٣]، فمنع الخائضين في آيات الله فرض، والقعود معهم سكوتاً دون نكير حرام، ومسايرتهم والتأثر بفعلتهم كفر: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤].

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وهو من نتائج الخوض، وهو من أخطر الاستهتار، إذ يحرر أصحابه من عبء التكاليف الإلهية، وهو مبدأ الإباحية المطلقة فهو من أشر وأخطر الكفر، مهما اعتنق صاحبه عقيدة الإله فإنه أمّ

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٠.
(٢) سورة الطور، الآيتان: ١١، ١٢.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٨٣.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٦٨.

البلاء، إذ تختل جميع الموازين في يدي صاحبه، وتضطرب كافة القيم والمثل في تقديره لمجاله القصير الصغير إذ لا يدين بيوم الدين، فتفسد مقائسه ليوم الدنيا والدين، خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

فهم لا يزالون شاكين في الدين ويوم الدين، يعيشون الشك والنكران والحياة المنكرة والمعيشة الضنك حتى الموت الذي ينقلهم من الشك إلى اليقين:

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾: الموت الذي لا محيد عنه وهو يقين للمؤمن والكافر سواء، والذي يقطع كل شك وريبة فيجعل الكافر الناكر للدين ويوم الدين على يقين، والذي يقطع الآمال الكاذبة والشكوك الحائلة دون التصديق بما في يوم الدين، فاليقين هنا يعم علم اليقين وعين اليقين الحاصلين بالموت، وواقع اليقين بالموت قبل الموت، فطوبى لمن مات قبل موته: «موتوا قبل أن تموتوا» فحصل على اليقين الدافع إلى الصالحات قبل الموت، قبل أن يضطر إلى اليقين بواقعه بعد الموت، فيسمع نداء التنديد التجهيل: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1].

فليس اليقين هو الموت، وإنما يحصل بالموت لمن لم يحصله قبل الموت، والموت نفسه أيضاً من مصاديق اليقين إذ لا ينكره نفسه أحداً، وإنما النكران لما بعده من حياة برزخية وحياة خالدة بحساب وجزاء وفاق.

ومما يحصّل اليقين ويزداده، مواصلة العبادة: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[2] ونهاية المطاف لليقين الحاصل والمتكامل بالعبادة، هي الموت، فليس الموت هنا أيضاً هو اليقين، وإنما هو نهاية اليقين بالعبادة، ومن ثم بداية لليقين دون عبادة إذ يكشف الغطاء فيزداد الموقف يقيناً ويدخل العابد في نفس اليقين.

---

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩٩.

ومن كانت تلك النكرانات سيرته العقلية والعقائدية والعملية في الحياة، لا تصله شفاعة الشافعين ولا تجديه، إذ إن الشفاعة مبدئياً تكميل الناقص بشفع الكامل إن أذن الله، فهي للمتوسطين في الإيمان عقيدة وعملاً، لا المتحللين عنه كهؤلاء المذكورين:

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

فطالما هناك شافعون، ولكنهم ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[1] ه - الله: من ساءَته سيئته وحسَّنته حسنته، من يعيش بين الخوف والرجاء، فحياته مبدئياً إيمانية، طالما يقصُر أو يقصّر أحياناً، دون من يبدؤون بمبدإ اللاإيمان، وينتهون إلى الموت مجرمين:

تاركين الصلاة مع التاركين، وتاركين إطعام المسكين، وخائضين في النكران مع الخائضين، مكذبين بيوم الدين.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾:؟!

ما لهم؟ ما داؤُهم وما دواؤُهم، في حالتهم البئيسة التعيسة، إنهم فقط[2] ﴿عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾: عما يذكرهم الله ونعم الله وأيام الله، من نبي الله وكتاب الله وسائر آيات الله التي هي ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فهم حالهم: ﴿عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ وإلى سواها: التلهية عن الذكرى - مقبلين، فقلوبهم منكوسة، وأبصارهم مطموسة، وحياتهم مركوسة، أجسادهم أجساد الآدميين وأرواحهم أرواح الحمر المستنفرة الشياطين:

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٢) فتقديم الظرف (عن التذكرة) يوحي بحصر المظروف (معرضين) فيه، فلا يعرضون إلا عن التذكرة الإلهية.

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾:

فالحمر المستنفرة هي حمر الوحش، التي هي طبعها الوحشة والاستنفار من كل متحرك أو ساكن، فكيف بقسورة: من أسد أو صائد، تأخذ في الاستنفار في كل اتجاه حين تسمع زئير الأسد أو حين تراه وإن لم يأسد، تنبثّ هنا وهناك كالفراش المبثوث، ما يثير الضحك ويفكه من هذه الحركة الجنونية، وكما تستنفر حين يرصدها الصائد.

فمشهد هؤلاء الحمر الإنسية في الاستنفار مشهد الحمر الوحشية وأضل سبيلاً، إذ يعرضون عن الصائد التذكرة، الذي يحاول صيدهم عن حياة التباب إلى حياة الصواب، فالنبي صياد يرصد الضالين ليصيدهم بالتذكرة.

ولماذا يعرضون مستنفرين عن قسورة الوحي، الأسد الضرغام الذي يأسد في صيده، لا ليأكل صيده، وإنما لينجيه، فالأنبياء قساورة صيادون، يصيدون البهم الضلال بقوة الذكرى والبرهان، بكل مناعة وأمان.

فإذا الحمر المستنفرة، تفر من قسورة، خوف الصيد الفاتك والافتراس المهلك، فهي لا تلام في استنفارها، وإن كانت زائدة النفرة عن حدها، فهؤلاء الحمر الإنسية يفرون معرضين عن قسورة التذكرة، الناصحة، التي تذكرهم بربهم ومصيرهم، فأين حمر من حمر، وأين قسورة من قسورة؟؟

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾:

«بل»: أم - ذلك الشماس والنفار عن تذكرة محمد الرسول وقرآنه - ليس فراراً عن التذكرة كتذكرة، وإنما استكباراً على حامل التذكرة، إنه بشر مثلنا، فلماذا يفضل علينا بوحي التذكرة: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا...﴾[1] فليوحَ إلى كلٍّ منّا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[2].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٠. (٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

فمن استكبارهم ﴿يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا﴾ من الوحي تختصّه ﴿مُّنَشَّرَةً﴾ معلنة لهم ولمن سواهم: رسالات مستقلة فردية مستغَلة، فيها ما يهوون، طبعاً وشرائع متفاوتة متهافتة تفاوت الأهواء وتهافت الآراء.

فلو أن كلًّا يحوي ما يحويه الكل لوحدة الشرعة في الكل كما القرآن، فلا كثرة هنا كما ليست هناك، فليكتب كلٌّ نسخةً من القرآن ككتاب إليه، ولكنهم لا يريدون وحدة الرسالة والشريعة.

ولو أن كلًّا يناحر الآخر في محتواه، فليست هكذا الشرعة الإلهية، ولأمّة واحدة، وبل وللأمم أجمع، حيث الدين واحد، والشرايع إلى الدين في جذورها واحدة، مهما اختلفت في بعض الصور وفي البعض من الصور.

فالشرعة الإلهية تعني توحيد الحياة بسلوكها إلى مرضاة الله وصالح الناس، حيث تزيل خلافات الناس، لا لتزيد خلافات على خلافات، ظلمات بعضها فوق بعض وكما يريدها هؤلاء الناس!

وليكن حاملو الشريعة من أصفى الأصفياء بين الناس، وليتلقوا، ويلقوا شريعة الله إلى الناس، ويطبقوها كما يريده إله الناس، فكيف يتحمل شريعةَ الله كرسل، أناسٌ هم أشر من نسناس، يستكبرون على رسل الله، ويتحكمون على رسالات الله، ويقتسمون فيما بينهم رسالة الله، كأنها مال يغنم.

﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾...

كلا: ليس الأمر كهذه وتلك وإن تفوهوا بها وادعوها، فلا فرارهم عن التذكرة لخوفهم عنها، ولا أن كل امرئ منهم يريد أن يؤتى صحفاً منشرة، حتى يعمّروا على ضوئها الحياة الدنيا والآخرة: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ هذا داؤُهم وبلاؤُهم مهما تلونوا وجاه الرسالات بألوان الاعتذارات، فالذي لا يخاف الآخرة إذ لا يؤمن بالله، إنه لا يريد خطاب الله وشرعة الله كيفما كانت وحيثما نزلت.

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ٥٤﴾ . . .

كلا: ليس كما تهوون، كردع ثانٍ لما يهوون: أن يؤتى كل امرئ منهم صحفاً منشرة، فالقرآن تذكرة وليست لعبة مقسمة بين اللاعبين، تذكرة جماعية يحملها أول العابدين، وليست فردية انقسامية يحملها الفوضى ناس ونسناس، ليزيدوا في خلافاتهم ورعوناتهم وفخفخاتهم.

تذكرة تمشي مع المتذكرين باختيار، ولا تمشّيهم بتسيير واضطرار:

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ٥٥﴾:

من شاء التذكرة ذكره: القرآن ونبي القرآن. فمن يذكر التذكرة دون أن ينفر عنها كالحمر المستنفرة، فإنها له تذكرة وتهديه إلى الله.

وترى أنهم يذكرون تذكرة الله دون مشيئة الله، وبمشيئتهم أنفسهم فحسب، كما قد يوحي به ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أم أنه فقط بمشيئة الله؟:

﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ٥٦﴾:

فهنا مشيئتان، من الناس أن يذكروا ذكرى الله، ومن الله أن يؤيدهم في ذكراهم، «فلا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين» دون تدافع أو صدام بين أمرين: مشيئة الله ومشيئة الناس، وإنما تلاؤم ووئام، ولكنما المشيئات كلها مشدودة إلى مشيئة الله، يمضي في اتجاهها وفي داخل مجالها، وكما يناسب عدله وفضله، دونما تسيير وإجبار، وإنما في يسر واختيار، اللهم إلا فيما لا يعاقب عليه أو يثاب، مما هو خارج إطلاقاً عن نطاق الاختيار.

كما ولا يشاء الله الذكرى إذا لا يشاؤون، لا أنهم لا يشاؤون ويشاء الله فهم يغلبون - إذاً - مشيئة الله!

فمن يعلم الله منه أنه يشاء أن يذكر ذكر الله، فهو يذكره بمشيئة الله، فإن الله يسبقنا في حسناتنا، ومن يعلم أنه لا يشاء فلا يشاء الله ذكراه، ويذره في

غيّه يمرح، وفي طغيانه يعمه، فإننا سابقون الله في سيئاتنا، وهو سابق في حسناتنا إذ يشاء حسناتنا فيؤيدنا، ولا يشاء سيئاتنا حتى يدفعنا لها.

فهنالك الأصل مشيئة الله تحوّل مشيئة الصالحات إلى تأكدها فواقعها، ثم لا تحوّل مشيئة السيئات لشيء منها إلا تركاً وإعراضاً، طالما السيئة أيضاً لا تتحقق أخيراً إلا بمشيئة الله، ولكنها مشيئة أخيرة ضرورية للواقع، لولاها لم تحصل أية سيئة، لوحدة الألوهية، ولكنما المشيئة للحسنات تصاحب أصحابها على طول الخط، وللبحث الفصل عنها مواضيع أخرى نأتي عليها في طيات آياتها.

﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾: فإذا اتقي يغفر كما اتقي، «يقول الله: أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي شريك، فإذا اتُّقيت ولم يُجعل معي شريك فأنا أهل أن أغفر ما سوى ذلك»[١] وطبعاً لمن يشاء دون فوضى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٢]:

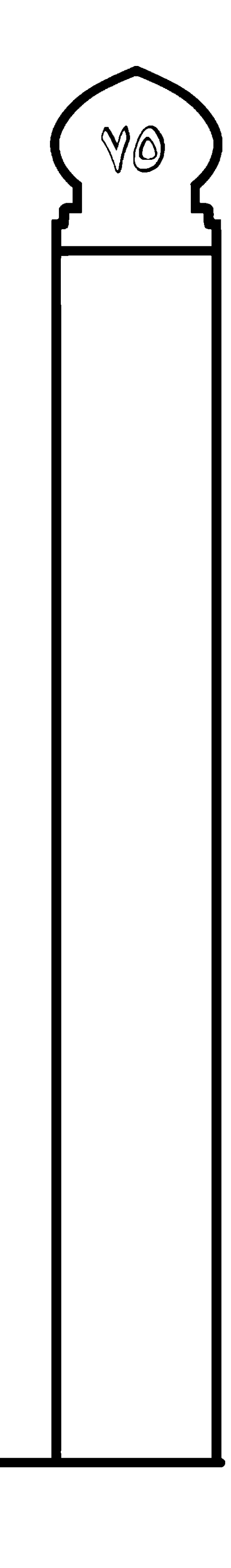
فليُتقَى الله في ألوهيته فلا تنكر، وفي وحدته فلا يؤخذ له شريك، وفي طاعته فلا يُعصى، ثم ولكل تقوّى مغفرة عن كل طغوى قد تخالطها، وتوحيد الله هو الأم في درجات التقوى، كما الشرك هو الأم في دركات الطغوى، ثم بعدهما درجات ودركات.

فمن يذكر ذكر الله، فإنه في سبيل تقوى الله، ومهما يكن قاصراً أو مقصراً في تحقيق ذكر الله وذكراه، تفهماً وتطبيقاً، فإن الله كما هو أهل التقوى، كذلك هو أهل المغفرة، يغفر للمتقين، فيغفر قصورهم وتقصيرهم ما داموا هم على الطريقة، أهلية المغفرة تلو أهلية التقوى، جزاءً وفاقاً وعطاءً حساباً.

---

(١) الدر المنثور.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨.



سُورَةُ القِيَامَةِ



مكية - وآياتها أربعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾:

إنه تصريحة باللّاقسم وتلويحة بالقسم كسائر اللّاقسم في القرآن[١] إن يوم القيامة والنفس اللوامة يصلحان أن يقسم بهما للصالحين المؤمنين بالقيامة، الحاملين النفس اللوامة، فهما يدلان أصحابهما إلى إمكانية وضرورة جمع العظام وتسوية البنان ليوم الحساب.

فلا معنى للقيامة الحقة، حسب الأدلة الواقعية والعقلية ونصوص

---

(١) راجع الجزء الثلاثين: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥].

الوحي، إلا قيام الأجساد من الأجداث وعود الأرواح إليها للحساب والجزاء الوفاق، وقيام الأشهاد وقيام الناس لرب العالمين، فالقيامة المجردة عن حشر الأجساد قيامة جرداء عن أهم معانيها ومغازيها.

وناكروا حشر الأجساد والحساب لا يصدقون بقيامة الحساب حتى يقسم لهم بها تصديقاً إلزامياً، وإن كانوا يلهجون بها تعنتاً ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾[1] لكنها كلمة جوفاء عن أهم معانيها: «جمع العظام والحياة الحساب»، إذاً فـ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لمن ينكر حقه مهما لهج بلفظه.

والنفس اللوامة - كذلك - كيوم القيامة، تشهد للحياة الحساب، فالنفوس على ضروب شتى: منها قدسية مطمئنة بالله، راضية عن الله، فمرضية عند الله، فهي لا تلوّم أصحابها إذ لا تقصّر عامدة معاندة، مهما قصرت عما يحق لساحة الربوبية، فقد تلوم لقصورها دون تلوّم، فهي دائبة في طاعة الله، مستزيدة لمرضاة الله كالسابقين والرعيل الأعلى من أصحاب اليمين، وهؤلاء حياتهم الذكر، ليسوا بحاجة إلى القسم بيوم القيامة والنفس اللوامة، فإنها لهم مطمئنة.

ومنها بهيمية مطمئنة إلى دركات الهوى، معرضة عن الهدى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾[2] وقد تبلغ من الشراسة والشماس لحدّ تلوّم أنفسها وسواها لو فعلت خيراً أو اهتمت بخير، فهؤلاء لا ينفعهم القسم بالنفس اللوّامة إذ فقدوها إلى خلافها.

ومنها لوّامة غير مطمئنة لا إلى الله ولا إلى اللهو، عوان بين ذلك، قد تطيع ربها فتطمئن، وقد تعصي وتشرد فتلوّم نفسها، فهي إلى خير ما دامت لوّامة تندم وتندّم أصحابها، تلوّم العقل لو ارتاب في الحساب العدل، وتلوّم

(١) سورة القيامة، الآية: ٦.

(٢) سورة يونس، الآية: ٧.

نفسها في جوارحها لو عصت أمر ربها، فهي ضابطة لعقيدة الإيمان، رابطة به عمل الإيمان، ولذلك يحق أن يقسم بها كبرهان على قيام الأجساد يوم الحساب للجزاء العدل.

فليُقسم بيوم القيامة لمن يعتقده ما لم يصل إلى علم اليقين وما فوقه، وليقسم بالنفس اللوّامة لمن يحملها حتى تذكرة وتحمله إلى ذكرى جمع العظام وتسوية البنان.

وأما الناكر ليوم القيامة الحقة، والفاقد للنفس اللوّامة، الضاربة إلى أعماق ذاته النفس الأمارة بالسوء، فكيف يقسم له بيوم القيامة والنفس اللوامة؟ وقد ظل مرتكساً في الشهوات وغارقاً في اللذات.

وإذا كان اللّاقسم هنا يعنى به القسم خلاف الصحيح والفصيح، فأين جواب القسم؟ لا نجد جواباً إلا أنه لا قسمٌ يلمح بالقسم، ويا له جمعاً ما ألطفه!.

هنا - لإثبات حشر الأجساد وقيامها من الأجداث يكتفى بسؤال لائح الجواب عند فاقدي الدليلين، ما لم يفقدوا التمييز تماماً:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾:

أفهذا الإنسان الهزيل الذليل يُحيل لنا جمع العظام: ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ﴾ إحالة التجهيل: أنها ضلت في الأرض فكيف تجمع: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾[1] أم إحالة التعجيز: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[2] أم لا ذا ولا ذاك وإنما يفتري علينا الظلم، أننا لا نحشر شيئاً رغم الظلامات القاتلة يوم الدنيا، غير المجازى عليها فيها! أم نحشر الأرواح دون الأجساد، رغم أنهما كانا شريكي الأعمال خيرة

(١) سورة السجدة، الآية: ١٠.
(٢) سورة يس، الآية: ٧٨.

وشريرة، فكيف تحرم الأجساد من ملاذها، أو تعفى عن عذابها؟ كل ذلك خيالات شرسة وليست محالات.

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ (٤)﴾:

نرى عشرات الآيات يتمسك فيها بشأن إثبات إمكانية حشر الأجساد ببرهان الأولوية: من عدة جهات، كأولوية الإعادة من الخلق أول مرة، بأنها أهون، وإن كان الكل عند الله هيناً، وهنا بأولوية جمع العظام من تسوية البنان وهو مسوّيها أولاً وأخيراً، فهؤلاء المشركون في عبادة الله، المختصمون الخلقَ بالله، عليهم أن يصدقوا بإمكانية حشر الأجساد وهو خلقُها ثانياً، بعد إذ هم مصدقون بخلقها أولاً: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1]، وعليهم تصديق جمع العظام بعدما يرون من تسوية البنان وهي أدق الخلق وأرقّه في الإنسان، وهي كناية عن إعادة التكوين الانساني بأدق ما فيه دون عزوب عنه من شيء: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ. . .﴾[2]: توفياً عند الموت لكِلا الجسم والروح وإيفاءً لهما بأمر الله عند الحشر.

﴿نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ فالبنان هي الأصابع من البَنّ: الإقامة، فإن بها صلاح الأحوال التي تمكّن الإنسان أن يبنّ بها ويقيم حياته، «بلى» نجمع عظامه حال أننا ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أيضاً، فإن بها معظم أفعال الإنسان، وهي آخر وأدق ما يخلق من عظام الإنسان، وهي من أصغرها وأكثرها نسبياً بين العظام[3] ومن أهم ما في البنان، الذي كشف عنه العلم، خطوط رؤوس

(١) سورة ق، الآية: ١٥.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١١.

(٣) فإن عظام أصابع اليدين ٥٨، وللرجلين ثمانية وعشرون المجموع ٨٦ عظاماً دقيقة وضعت لمنافع لولاها ما تمت تلك المنافع كالقبض والبسط واستعمال اليدين في الجذب والدفع، وهي بين عظام الإنسان (٢٤٨) تصبح ثلث العظام كلها، على أن الأصابع العشرين ليست إلا زهاء ١/ ٥٠ من الإنسان. (تفسير الفرقان - ج ٢٩ - م ١٨).

البنان التي يستفاد منها كأضبط التواقيع التي لا تشتبه ببعض، ويستحيل فيها الاحتيال والتزوير، وهي من أهم ما يكشف بها الجرائم، فقد يعرف الجاني بالآثار الباقية على يديه في عملية الجناية، يعرف بسلاحه الذي استعمله وإن لم يكن فيه أثر الدم، وإنما المسكة يبين فيها بالعيون المسلحة، فللبنان بالغ الأهمية في الكشف عن أصحابها، ولأن الخطوط المهندسة في كل يد تختلف عن سائر الأيدي، فمهما تشابه الأشخاص واشتبه بعضهم ببعض، لا يوجد تشابه بين البنان في هندستها بخطوطها.

فالقادر على تسوية البنان قادر بأحرى على جمع سائر العظام لمهمة الحشر للحساب والجزاء العدل، وكافة البراهين الواقعية والفطرية والعقلية والتحولات الكونية، كلها مسرودة لإثبات إمكانية وضرورة حشر الأجساد، فلا يستطيع الإنسان - أياً كان - أن يثبت على حسبان: ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾:

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾:

الفجر هو الشق الواسع، والإنسان يريد بنكرانه يوم القيامة - غير المسنود إلى برهان - ليشق أمامه من الزمان ليرى ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ خرقاً لستر الساعة التي لا يجليها لوقتها إلا الله، وإذ لا يجد جواباً عن هذا السؤال، يتذرعه إلى نكران الحساب، وهل يا ترى أية صلة بين عرفان وقت الحساب وواقع الحساب حتى إذا جهل الوقت أنكر الأصل؟.

وإنه يريد ليفجر أمامه من زمن الساعة، ليتوسع في فجوره أمامه إلى الساعة لا يصده شبح الحشر الحساب، فخوف الحساب لجام عن الفجور ومصدّ له، وهو يحاول إزالة هذا الصد ليتحرر ويمضي قدماً في الفجور أمامه بلا حساب، إذ لا يحسب له أي حساب.

يتذرع سؤاله المتعنت: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ليخلق ثالوث الفجر والفجور، الموحد في نكران الساعة، من فجر الزمن بينه وبين الساعة ليعرف متى هي

الساعة، فإذ لا جواب فلا ساعة! ومن فجور مستمر بينه وبين ساعته إذ يحسب أن لا حساب، ومن فجور ونكران بنفس الساعة، ثالوث الفجر المندفع من الفجور والدافع إليه، والأصل واحد هو التحرر في الفجور، أقانيم ثلاثة تتناصر في تحكيم صرح الفجور.

فليس السؤال ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ سؤال تفهم، وإنما يجرس بـ«أيان» مديداً لاستبعاده يوم القيامة، أحياناً بسناد استحالة جمع العظام، وأخرى أن لا جواب لسؤاله «أيان» فليفجر حياته كل ستر وناموس إذ لا حساب! وإنهم لا برهان لهم على نكران الحساب أو المرية فيه إلا ثورة الشهوة، فليفجروا ويشقوا واسعاً كل ما يسدها ويصد عنها.

ومهما كان لسؤال ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ جواب الأولوية: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ فليس لسؤال ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إلا عرض مشهد من مشاهد القيامة تشترك فيه المشاعر الإنسانية والمشاهد الكونية، فسوف يرون أنفسهم في نفس الجواب، وأما هنا فلا جواب عن زمن الحساب إلا أن الله عنده علم الساعة:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾:

كجواب سريع خاطف حاسم دون تريُّث وحتى في موسيقى اللفظ، إيحاء أنه لا جواب عن زمن القيامة إلا عرضاً لمشهده.

وبرقُ البصر اضطرابه وتجوُّله من خوف وتخطُّفه وتقلُّبه، سواء بصر القلب أو القالب: ﴿يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1] وشخوصه من وطأة الطامة: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[2] برقاً يبرز في البصر

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٧.

ويضرب إلى أعماق ذات البشر: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾(١) برقاً في قيامة الإماتة والتدمير إذ ترجف الراجفة، ثم برقاً في قيامة الإحياء والتعمير، إذ تتبعها الرادفة: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾(٢).

﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ خسوفاً بنوره وخسفاً بكيانه، ومن أسباب خسفه أن تدركه الشمس وتقضي عليه حين تكويرها:

﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾: جمع كلٌّ في نفسه، وجمعت الشمس إلى القمر لتحيط به بعد الفراق المديد(٣)، فلم تكن الشمس ما دامت شمساً لتدرك القمر ولا القمر ما دام قمراً ليدرك: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٤) ولكنهما إذا قامت القيامة يخرجان مِن لا ينبغي إلى ينبغي ويجب، فإذ يخسف القمر خسوفاً في نوره، تدركه الشمس لإنهاء كيانه وخسفه، فمن معاني كور الشمس جمعها إلى القمر لتجمعه عن قمريته، كما جمعت هي عن كونها شمساً، فجمع الشمس هنا يشير إلى تكويرها في نفسها وكورها إلى القمر وعلى القمر(٥) وحقيق لهذا الخسف والجمع أن يبرق البصر ويذهل البشر، فمن معاني برق البصر أن ينظر إلى برق:

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ فمهما اختلق الإنسان هنا لنفسه مفراً عن الحساب وتكاليف يوم الحساب، فما يصنع يومئذٍ وهو في واقع الحساب

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٣.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١٠.
(٣) لم يقل: وجمعت الشمس والقمر، ليدل بتذكير الضمير أن المجموع هنا هو كل منهما في نفسه، وكل مع زميله، جمعاً من جهتين.
(٤) سورة يس، الآية: ٤٠.
(٥) راجع الجزء الأول من الثلاثين على ضوء ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١].

يوم الحساب، إلا أن يقول متحسراً متحيراً ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؟ متسائلاً نفسه وأهل الحشر، بكل فزع وارتياع - إذ لا يجد مفراً من قهر الله ونكاله - أين المفر الذي كنا نحسبه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾، . . ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فهذا هو يوم القيامة، وقد جمعت عظامك وسويت بنانك فـ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؟ زمانه ومكانه:

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾﴾:

وهو الملجأ الذي يلتجىءُ إليه من الجبل، فلا ملجأ حينئذٍ إلا الله، ولا مستقر إلا إليه:

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾:

مستقر رحمة لك ولمن معك: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾[1] ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[2] ومستقر لعنة وعذاب لغير المؤمنين: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[3].

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾:

تنبُّؤاً بالبصر ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ﴾[4] وتنبؤاً بالبصيرة إذ ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾[5] وبما أن النبأ خبر ذو فائدة عظيمة، فعائدة تنبؤ الإنسان هي واقع الحجة له وعليه سراً وعلانية، وليعرفها أهل الموقف أيضاً ويشهدوا مع الشاهدين: بما قدمه من عمل قبل فوته، وما أخره بعده من آثاره خيراً وشراً: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[6] ورغم أن الأعمال تحضر كلها، فبعضها منقطع الأثر فهو مما قدم، وبعضها باقٍ

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٦.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٦٦.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٤٩.
(٥) سورة النازعات، الآية: ٣٥.
(٦) سورة يس، الآية: ١٢.

بآثاره فهو مما أخّر وعلى حد المروي عن باقر العلوم عليه السلام [(١)] وكلٌّ داخل فيما قدم بمعنى آخر هو حضور العمل منقطعَ الأثر أو ثابته: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [(٢)].

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾:

فما هذه البصيرة؟ هل هي الإنسان نفسه: بالغ في الإبصار على نفسه قلباً وقالباً، لمكان تاء المبالغة، ومختص بهذه البصارة عليه، لمكان تقدم الظرف ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فهو هو، لا سواه من أمثاله، يعلم من نفسه سرها وعلانيتها، يحيط بها حيطة العلم الجامع الجامح، لا يعزب عن نفسه شيء من مداخلها ومخارجها، بصيرة يوم الدنيا بما له وعليه ومعه وفيه ومنه: من خير وشر، وبصيرة يوم الدين: حجة عليه وشاهد بما اقترفت من ذنب واحتملت من وزر ويبصر كذلك ما عمله من أعمال وما قاله من أقوال، فهو بصيرة على نفسه على طول الخط ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ وإن لفق الأقاويل وتعلق بالمعاذير: آلات العذر وأداته الملقاة يوم الدنيا ويوم الدين، علّه ينجو من الحساب والعقاب، ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾: ألقى ستوره مستخفياً، وأغلق أبوابه متوارياً، فإنه هو رقيب على نفسه، عالم بمستسر غيبه، فيما يقارفه من معصية، أو يفارقه من طاعة، أو يقاربه من ريبة.

هذا؟ أم هذه البصيرة هي الشهود عليه من خارج ذاته، إضافة إليه، فعلى نفس الإنسان شهود وحفاظ هي بصيرة عليه، لا يفلت منهم فالت ولا

---

(١) البرهان ٤: ٤٠٦ القمي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في الآية: بما قدم من خير وشر وما أخر من سنة ليستن بها من بعده فإن كان شراً كان عليه مثل وزرهم ولا ينقص من وزرهم شيئاً وإن كان خيراً كان له مثل أجورهم ولا ينقص من أجورهم شيئاً.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

يعزب عنهم عازب، مهما تستر وألقى معاذيره: ستوره، ومهما اعتذر بأسباب يختلقها ويلقيها علّه ينجو، فإنه محاط بذاته وأفعاله بـ«بصيرة» إلهية وملائكية وبشرية ورسالية فالله على ما تعملون بصير و﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(١) ورسل الله وأنبيائه كذلك شهداء بصيرة، فهو غريق في يمّ البصيرة من دواخل ذاته، فإنه على نفسه بصيرة، ومِن سواها، فإن الله قرر على الإنسان عيوناً بصيرة ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾(٢) وحتى أعضائه بصيرة عليه تتلقى أعماله يوم الدنيا، وتشهد عليه يوم الدين.

هذا أم ذاك؟ كلٌّ محتمل، والجمع أتم وأجمل، وإن كان الثاني يشمل الأول: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ حفاظ وشهود «بصيرة» من دواخل ذاته وخوارجها وإن كان الأفضل أدبياً هو الجمع بالدلالتين.

وقد استدل الراسخون في العلم بآية البصيرة على أن الإنسان أعلم بنفسه من غيره فيما ينويه أو يفعله، وهو حجة على نفسه يحتج الله بها عليه في الدارين(٣).

---

(١) سورة ق، الآية: ١٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

(٣) من لا يحضره الفقيه عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام ما حد المرض الذي يفطر فيه الرجل ويدع الصلاة من قيام؟ فقال: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤] هو أعلم بما يطيقه، والكافي عنه عليه السلام قال: ما يصنع أحدكم أن يظهر حسناً ويستر سيئاً أليس يرجع إلى نفسه فيعلم أن ذلك ليس كذلك، والله عز وجل يقول: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ أن السريرة إذا صحت قويت العلانية، وفيه قيل له عليه السلام: إنا ندخل على أخ لنا في بيت أيتام ومعهم خادم فنقعد على بساطهم ونشرب من مائهم ويخدمنا خادمهم وربما طعمنا فيه الطعام من عند صاحبنا وفيه من طعامهم فما ترى في ذلك؟ فقال: إن كان في دخولكم عليه منفعة لهم فلا بأس، وإن كان فيه ضرر فلا، وقال: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ فأنتم لا يخفى عليكم وقد قال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ (٣٥) أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ (١٦)﴾:

- إلى - بيانه: آيات أربع اعترضت بين آيات القيامة، ناهية رسول الهدى عن عجلة اللسان وحركته بالقرآن قبل قضاء وحيه وقرآنه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾(١) فقد أمر باتباع قراءته دون استعجال بها قبلها، ولا تحريك لسانه بها، مما يوحي أنه ﷺ استعجل في قراءة آيات أو حرَّك لسانه بها قبل قضاء وحيها وقراءتها ولماذا وكيف؟.

فهل بالإمكان قراءة القرآن قبل قرآنه: نزوله مقروؤاً؟ وإذ لا! وطبعاً لا!

(١) سورة طه، الآية: ١١٤.

فكيف ينهى عنها؟ تجد الجواب في آيات القدر وحم، الدالة على نزول القرآن المحكم في ليلة القدر، فلقد كان للرسول ﷺ خبرة واطلاع بالقرآن المحكم قبل وحيه المفصل: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(١) ويريد الله أن يكون القرآن وحياً مزدوجاً: لفظاً إلى معنى، ولا يكفي العلم بوحي المعنى ولا سيما المحكم منه، عن الوحي المفصل، الذي فيه وحي اللفظ وتفصيل المعنى، ففيه زيادة العلم ورجاحة الإعجاز: ﴿... وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾(٢).

فلم تكن العجلة بالقرآن استعجالاً في ترداده بعد قراءته لحفظه(٣)، لمكان النص ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾: و﴿... قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾(٤) وقد ضمن الله له بداية الوحي المفصل ألا ينساه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ وإنما هي لشغفه البالغ في تحلية لسانه بالقرآن المفصل بعدما تحلى قلبه بالقرآن المجمل، واعتماداً على هذا العلم المسبق، ولكن ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ...﴾(٥) ﴿لَا تُحَرِّكۡ...﴾ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾(٦) فقد كان قرآناً غير مفروق في الوحي المجمل، ثم فرقه الله بالمفصل.

وآيتا النهي عن الاستعجال والتحريك توحيان أنه ﷺ إنما حرك لسانه ليعجل خلال آيات «القيامة» وأنه استعجل بين الآيات من «طه» وهما مكيتان، والنهي هنا وهناك نهي تنزيه وإنباء، لا نهي تحريم، وليجمع الله وحي اللفظ المفصل إلى وحي معناه، لا فحسب، فقد كتب على نفسه جمع المفصل أيضاً وقرآنه.

فمن ثم توحي الآيات أنه ليس على الرسول شيء من الأمر بشأن

---

(١) سورة هود، الآية: ١.
(٢) راجع ٣٠: ٢ من سورة القدر.
(٣) خلاف ما نراه في بعض الروايات.
(٤) سورة طه، الآية: ١١٤.
(٥) سورة مريم، الآية: ٨٤.
(٦) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

القرآن، في نزوله عليه نجوماً حسب الحاجات والمناسبات، وفي جمعه وتأليفه كما هو الآن،

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾﴾:

وليتبع قرآنه على الناس بعد جمعه وقرآنه من الله:

﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴿١٨﴾﴾:

وفي بيان ما أجمل فيه، بعضه ببعض أو بوحي السنَّة: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، فلا عليه أن يحرك به لسانه ليعجل به سناداً إلى نزوله عليه محكماً مسبقاً ليلة القدر، فهو الذي يفصله هنا كما أجمله وحياً إلى قلبك هناك ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ﴾ ولا موقع لجمع الآيات إلا بعد نزولها المفصل، إذاً فجمع القرآن كنزوله إنما هو من الله، لا من النبي ﷺ فضلاً عن خلفائه وأصحابه! فهنا قرآن قبل الجمع هي الآيات النازلة نجوماً متفرقة خلواً عن الروابط، وقرآن بعد الجمع هو المقروؤ على الرسول سوراً منسقة بآيات مرتبة مرتبطة، وكلاهما من اختصاصات الله، كان يأمر الرسول أصحابه وكتّاب الوحي أن يرتبوها كما يوحى إليه، ترتيباً وتأليفاً بالوحي، كما النزول غير المؤلف كان بالوحي، وقد يوحي هكذا جمع إلهي بنزول القرآن المفصل مرتين، ولو تدريجياً حتى نزلت المائدة آخر ما نزلت من القرآن، فأصبح القرآن مؤلفاً مجموعاً كما هو الآن، وقد كان يدرس ويحفظ جميعه كجمعه الآن، فجماعة من الصحابة ختموه على النبي ﷺ عدة ختامات وكان ﷺ - حين جمْعه - يأمر الكتّاب أن يسجلوا الآيات المتفرقات في مواضيع خاصة من السور التي رتبها بالوحي، وسماها جميعاً كما تواتر عنه ﷺ وتصرح آيات عدة أن القرآن كان سوراً زمن الرسول ﷺ [1] كما يروى

(١) ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣] ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] فالسورة =

عنه ﷺ أيضاً، أسماء السور وأعدادها وآياتها وحروفها[١].

وهل يا ترى بالإمكان أن ينزل القرآن نجوماً ثم يجعل الله أمر الجمع والتأليف فوضى بعد الرسول ﷺ وفي مختلف التأليف مختلف المعاني المسرودة فرادى، المقصودة جملاً! ولو صدقنا هذه الفوضى! فمن هذا الذي ألفه بعد الرسول ﷺ وكيف أجمع المسلمون في جميع القرون على ما جمعه غير الرسول، والمسلمون شتى والآراء شتى، لحدّ لم يجمعوا على جميع ما أتى به الرسول، فضلاً عن سواه!.

وهل يا ترى أن الله ينهى رسوله عن أن يعجل بلفظه وعنده معناه وعن أن يجمعه وهو مهبط تنزيله بآياته، وعن بيانه وهو الرسول! فيختصها الله بنفسه دون رسوله، ثم يسمح لخلفائه غير المعصومين أو المعصومين، أن يجمعوه ويؤلفوه؟ ثالوث الاستحالة بعيداً عن العقل والدين[٢].

ومن ثم فآية الجمع والبيان يغنينا عن القيل والقال في «مَن جمع القرآن وكيف جمع»؟ وما قيمة الأحاديث المتناقضة في كيفية الجمع وشخصية

= جماعة من الآيات مرتبة، سواء نزلت سورة أم رتبت بعد النزول سورة، والتحدي لا يخص بعض القرآن، حتى يقال: على المعني بسورة وعشر سور هي التي أنزلت سوراً، فإنما يتحدى القرآن بكله ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

(١) كما عن سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: سألت النبي ﷺ عن ثواب القرآن فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء فأول ما نزل عليه بمكة (فاتحة الكتاب) ثم ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] ثم (ن) إلى أن قال: وأول ما نزل بالمدينة سورة البقرة ثم الأنفال ثم - إلى قوله - ثم هل أتى، ثم قال النبي ﷺ: جميع سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة وجميع آيات القرآن ستة آلاف آية ومائتا آية وست وثلاثون آية وجميع حروف القرآن ثلاثمائة ألف حرف واحد وعشرون ألف ومائتان وخمسون حرفاً لا يرغب في تعلم القرآن إلا السعداء ولا يتعهد قراءته إلا أولياء الرحمن. (كتاب الإيضاح للأستاذ أحمد الزاهد بإسناده عن سعيد بن المسيب عنه عليه السلام).

(٢) وهو: ١ - عدم إمكانية هكذا جمع منسق بغير الوحي ٢ - واستحالة إجماع المسلمين على ما جمعه أحدهم ٣ - واستحالة إحالة الجمع إلى غير الرسول مع ما نهى الرسول عنه.

الجامع[1] المعارضة - لو دلت - لآية الجمع وبرهان العقل؟ وللأحاديث المتواترة أنه كان مجموعاً زمن الرسول ﷺ[2].

وما مصحف الإمام علي عليه السلام الذي جمعه بعد النبي ﷺ إلا نفس هذا القرآن في متنه، وإنما رفضوه للتفسيرات والتأويلات التي أوردها عن النبي ﷺ في هوامشه، مما فضحت جموع المنافقين، ولذلك رفضوه.

وما قصة جمع القرآن بعد النبي ﷺ زمن الخلفاء، إلا جمع المجموع زمن النبي، المكتوب مفرقاً، فجمعوه في مصحف واحد، لكي لا يضيع جمع النبي كما جمع، وأجمعوا على قراءة واحدة هي المتواترة عن النبي ﷺ فرضيها المسلمون أجمع، ولكي يبقى القرآن وحياً خالصاً حتى في قراءته، فلا يبقى مجال للاختلاف فيه، لذلك فنحن المسلمين لا نعتمد على سائر القراءات المخالفة للمتواتر المسجل في القرآن، لا سيما إذا خلفت اختلاف المعنى.

وما اختلاق نسبة أصل التأليف والجمع إلى غير النبي ﷺ إلا توهيناً للرسالة المحمدية، ووهناً لكيان القرآن، وترفيعاً لشأن من نسبوا إليه هكذا أجمع!.

---

(١) فإنها متناقضة في: زمن جمع القرآن، زمن أبي بكر؟ أو عمر؟ أو عثمان؟ وفي من تصدى لجمعه: زيد بن ثابت؟ أم أبو بكر نفسه؟ أم زيد وعمر؟ وفي: هل بقي من الآيات ما لم يدون إلى زمن عثمان: بين نفي وإثبات! وفي: هل محى عثمان شيئاً مما كان قبله؟ بين نافية ومثبتة! وفي: من أي مصدر جمع عثمان؟ اعتمد على مصحف أبي بكر؟ أم هو جمعه بشهادة شاهدين؟ أو بإخبار كل من سمع عن رسول الله؟ وفي: من الذي طلب من أبي بكر جمع القرآن؟ هل هو عمر؟ أم زيد؟ وفي: من جمع المصحف الإمام ونشره في البلاد؟ هل هو عثمان؟ أم عمر؟ وفي: من عيّنه عثمان لكتابة القرآن؟ هل هو زيد وابن الزبير وسعيد وعبد الرحمن؟
أم زيد للكتابة وسعيد للإملاء؟ أم ثقيف للكتابة وهذيل للإملاء؟ أو المملي أبيّ بن كعب وسعيد كان يعرب ما كتبه زيد؟

(٢) رواها جماعة كثيرة من محدثي الفريقين وأئمة الحديث.

كلا! إن القرآن كما هو الآن، كله إلهي: من معانيه وألفاظه وترتيب آياته وقراءته، وسوره وأسمائها: ازدواجية الوحي، دون تدخل لغير الله في أيٍّ من هذه، ولا من الرسول نفسه إلا بالوحي.

وإن قصة الجمع المزيفة، غير الإلهي، مما تذرّعها المتقولون عن التحريف، ضعف الطالب والمطلوب!.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾:

بيان للقرآن المحكم بالقرآن المفصل، وبيان بجمع الآيات كما الآن، فإن الجمع يساعد على تفهم المفردات، وبيان لكل آية بنظيراتها وإن كانت في غير جمعها، وبيان بوحي السنّة المفسرة للقرآن، ازدواجية البيان بازدواجية وحي السنة والقرآن وكما تجدها في تفسيرنا «الفرقان»، فقد تكفل الله تكفلاً مطلقاً بشأن القرآن، مجملاً وتفصيلاً وجمعاً وحفظاً وبياناً، ثم ليس للرسول ولا عليه إلا تلاوته للناس وبيانه كما بين له، وتطبيقه كذلك، وإن لتسجيل هذه المهمة الكبرى في وحي القرآن، قيمته في تعميق إيحاءاته للناس أجمعين.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾:

هنا رجعة - بعد تحكيم وحي القرآن بهذه الجمل المعترضة - رجعة إلى التنديد بالإنسان الناكر لرجعته حياً بعد الموت: إن من بواعثه حب الحياة العاجلة، ولا يتجمع حبها والآجلة: فحب كلٍّ منهما ينسي الثانية على قدره.

﴿كَلَّا﴾ إنه لا برهان على استحالة جمع العظام إلا حب العاجلة، فتذرون الآخرة، و«حب الدنيا رأس كل خطيئة» وطول الأمل في الأولى، كذلك ينسي الآخرة.

إن حب العاجلة يخلف وجوهاً باسرة، وحب الآجلة وجوهاً ناضرة، إلى ربها ناظرة:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾:

تقسيم ثنائي لأهل الموقف إلى وجوه ناضرة ناظرة، وأخرى باسرة فاقرة: فما هذه الوجوه؟ وما هو النظر إلى الرب؟.

الوجه ما يواجِه به صاحبه ويواجَه به، فهو من الإنسان لمثله وجهه الظاهر، فنظره نظر البصر، وهو من الكائنات كلها - ومنها الإنسان لله تعالى: ذواتُها، ما ظهر منها وما بطن، إذ لا يعزب عنه شيء.

وهنا، نسبة الظن إلى الوجوه الباسرة، والنظر إلى الرب للوجوه الناضرة، هذه النسبة وتلك تصرفها عن وجوه الأبصار إلى وجوه البصائر، فالوجه الظاهر لا يظن، وإنما يبصر، والبصر الظاهر لا ينظر إلى الرب ذاته إذ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾[1] وإنما البصيرة الباطنة هي التي تراه رؤية المعرفة، دون كيفية ولا إحاطة، وكما عن الرسول الأقدس ﷺ في تفسير الآية: «ينظرون إلى ربهم بلا كيفية ولا حدود ولا صفة معلومة»[2] ونظر البصر إلى أي مبصَر، له كيفيات وحدود وصفات معلومة، إضافة إلى أن النظر لا يستلزم الإبصار: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[3] وأحرى بعدم الإبصار إذا كان المنظور إليه غير مبصر!.

ثم النص - بعد ذلك كله - «إلى ربها» لا «إلى الله» والربوبية هي الرحمة والثواب والنعمة، وأهمها المعرفة الناتجة عن غاية الربوبية، وكما

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.
(٢) الدر المنثور ٦: ٢٩٠ - أخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٩٨.

عن علي عليه السلام: «يعني بالنظر إليه النظر إلى ثوابه تبارك وتعالى»[١] ومن أعظم الثواب كمال المعرفة المعبر عنها بالنظر والرؤية، تنظر إلى ربها فتتنضَّر بنوره، وكما عن الصادق عليه السلام «يعني إلى نور ربها»[٢].

ثم تقديم الظرف ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ الموحي بالحصر، تصريحة أحرى أنه ليس نظر البصر، إذ لا يختص - إذاً - بالرب، فهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر!

هذا! فرؤيته تعالى بالبصر، وحتى إدراكه والحيطة به بالبصيرة، إنها مستحيلة في كافة العوالم لكافة العالمين، فقد «احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار وعمن في السماء احتجابه عمن في الأرض»[٣] وقد «خلق الله الخلق حجاب بينه وبينهم... فالحجاب بينه وبين خلقه لامتناعه مما يمكن في ذواتهم، ولإمكان ذواتهم مما يمتنع منه ذاته، ولافتراق الصانع والمصنوع والرب والمربوب»[٤] فلا يمكن رؤيته بالبصر إلا إذا صار مبصراً كخلقه، ولا إدراكه بالبصيرة إلا إذا صار خلقه مثله في الألوهية، استحالة مزدوجة في خرافة الرؤية والإدراك الإحاطة.

إذاً فالمعني من نظر الوجوه هو نظر المعرفة، وانتظار الثواب والرحمة فالنظر يأتي بمعنى الانتظار أيضاً: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[٥] ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾[٦] [٧].

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٦٤ عن كتاب التوحيد، وقد بحثنا عن الرؤية في ج ١ من الجزء الثلاثين في ضوء الآية: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، وفصلنا البحث عن استحالة الرؤية في كتابنا (حوار بين الإلهيين والماديين).

(٢) البرهان ٤ : ٤٠٨ عن كتاب تحفة الأخوان عن هاشم الصيداوي عنه عليه السلام.

(٣) بحار الأنوار ج ٣ ص ٢٢٣ - ٢٢٤ عن الإمام الحسين عليه السلام في خطبة توحيدية.

(٤) التوحيد للصدوق عن الإمام الرضا عليه السلام في خطبة توحيدية.

(٥) سورة النمل، الآية: ٣٥. (٦) سورة يس، الآية: ٤٩.

(٧) وجوه ناظرات يوم بدر - إلى الرحمن تنتظر الخلاص، فالنظر يعم الأبصار بالبصر، والمعرفة بالبصيرة، والانتظار للرحمة.

ومن نضارتها طراوة المعرفة واللقاء يوم الجزاء، فلتكن الوجوه هي الباطنة، الظاهرة نضارتها في الوجوه الظاهرة: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾[(١)] النعيم الشامل كيانه ككل سراً وعلانية: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[(٢)] «هم» لا «وجوههم» فالوجوه هنا وهناك تعم وجه العقل والصدر والقلب والسر والخفي والأخفى، أصالة ثم الوجه الظاهر إذ تلوح عليه نضارتها، فالوجوه الستة الباطنة قد تشترك كلها في هذا النظر المجرد «بلا كيف ولا حدود ولا صفة» فتضرب معرفة الله ومحبته إلى أعماق الذوات المؤمنة، ثم تتحقق في نظر البصر أيضاً، لحدّ يتحقق صاحبه بما قاله الإمام الصادق عليه السلام: «ما رأيت شيئاً إلا وقد رأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه» قبله بأزليته، وبعده بأبديته، ومعه بقيوميته وعلمه، وفيه بآيات حكمته وقدرته، فتصبح ذاته كلها عيناً لا تنظر إلا إلى الرب، كلّ حسب ما قدمته نفسه وسعى، فـ «الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق».

فكل حجاب من الخلق والخالق ممكن الزوال، إلا حجاب الإمكان عنه، وحجاب الألوهية عنه تعالى، فبقدر ما أزيلت حجب العصيان هنا، تزال حجب المعرفة والرحمة هناك، ثم حجب النور كذلك تزال لمن أنكر ذاته، وأصبح كله نظراً ومعرفة لربه كالرسول الأقدس محمد صلى الله عليه وآله وسلم فـ ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[(٣)].

فيا للنضارة والنظر إلى الرب هكذا، من نعمة يعجز الإدراك عن تصورها، إذ تتضاءل إلى جوارها الجنة بما فيها، وما لها لا تتنضّر؟ وهي إلى ربها تنظر! نظر البصيرة بنور اليقين، ونضارة المعرفة والرحمة بلقاء الرب الكريم.

---

(١) سورة المطففين، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الإنسان، الآية: ١١.
(٣) سورة النجم، الآية: ٩.

وإن ارتقاء الكينونة الإنسانية وانطلاقها من قيود الهوى، ومن هذه الكينونة الأرضية، هو فقط محط الرجاء في التقائها بهذه النضارة والنظرة.

ثم الوجوه الباسرة هي البنية التعيسة، المتقبضة الكالحة القاطبة، المحرومة عن كل نضارة ونظرة ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[1] بما ارتكست في حيوانية الحياة، وانطمست وانغمرت في الشهوات، فانحجبت عن ربها بما حجبت نفسها.

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾: الكارثة القاصمة الظهر، المحطِّمة الفقار، تظن ظن اليقين بما قدمت لأنفسها ولات حين مناص!.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿كَلَّآ﴾ ليست العاجلة المحّببة هي الباقية، إنما هي الآجلة المرفوضة، فيا لها من حياة مرتكسة منكوسة، فليتذكر متذكر:

﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾: حين تبلغ الروح مبلغها الأخير من الجسم: ﴿ٱلتَّرَاقِىَ﴾ العظام الواصلة بين ثغرة النحر والعاتق، وهي الحلقوم: تترقى إليه النفس عند الموت، وإليه يتراقى البخار من الجوف، وهناك يقع تردد النفس ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾[2]: سكرات مذهلة وكروب تزيغ الأبصار، كأنما القلوب تبلغ الحناجر، ويا لها من عبرات لمن لم يغرب عقله!

﴿وَقِيلَ مَنْۜ﴾ راق؟ قيلٌ من أعماق المحتضر: «هل من طبيب»[3] يرقى بي

---

(١) سورة المطففين، الآية: ١٥.

(٢) سورة الواقعة، الآيتان: ٨٣، ٨٤.

(٣) نور الثقلين ٥: ٤٦٥ عن الكافي بإسناده إلى جابر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ قال: فإن ذلك ابن آدم إذا حل به الموت قال: هل من طبيب؟

مما أنا فيه من خفض الاحتضار، أو لعلّ رقية تفيدني فتلوّي من سكرة وتشفين، أو علّ توبة ترقى بي من دركات تُنتظر، أو - وفي آخر المطاف - من يرقى بي إلى البرزخ؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟

وقيلٌ من أخصّائه الحضور: من يرقى به إلى طبيب يشفيه؟ أو يخلصَه مما هو فيه، أو مَن هذا الطبيب الذي يرقى به، أو من يرقى به من وطأة الآخرة إلى رحمتها؟

وقيلٌ من الملائكة: من يرقى بروحه، ملائكة الرحمة أو العذاب، حتى يصدر الأمر من رب الأرباب(١).

قيلات هي ويلات للمحتضر إلا من رحم الله ويومئذٍ يفرح المؤمنون، بلا قيل ولا ويل.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾: رغم أشراط الموت وعلاماته، ولكنه لا يرضى أخيراً إلا الظن بالموت، ولا يحن إلى يقين الموت، إذ لا يحب الفراق، حباً للعاجلة وفراراً عن الآجلة.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ إذ بطلت كل حيلة ووسيلة تصدّ عن الفراق، وعلّ الساقين هما الشدّتان المجتمعتان على المرء، من فراق الدنيا العاجلة المحبَّبة، ولقاء أسباب الآجلة المنسية(٢)، وأين ساق من ساق؟: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾(٣).

والكشف عن الساق - وهو التشمير عنه - كناية عن صعوبة الأمر، فمن التفاف الساق بالساق، التفاف الدنيا بالآخرة، إذ كشف عن ساق الآخرة لتأخذ بساق الدنيا فتنهيها وتقضي عليها(٤).

---

(١) راق إما من الرقية وهي العوذة، أو من الرقاء وهي العلو، وقد جمعنا هنا بين المعنيين.

(٢) نور الثقلين ٥ : ٤٦٥ في آية الساقين عن الباقر عليه السلام : (التفت الدنيا بالآخرة).

(٣) سورة القلم، الآية: ٤٢.

(٤) راجع سورة (ن) حول الآية ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القَلَم: ٤٢].

ويلتف بهذا الالتفاف بين ساقي الآخرة والأولى، التفاف ساقي المحتضر في اضطراب النزع، إذ يضرب بإحدى رجليه على الأخرى، كذلك والتصاقهما ببعض بعد الموت، والتفافهما في شدّ الكفن، ثم التفاف سوق أهليه ومشيّعيه، يلتف بعضهم من شديد الحفز وعنيف السير والسّوق(١).

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾: الرجوع: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾(٢) فلا يُساق الميت بعد التفاف الساق بالساق، إلا إلى ربك، إلى نشأة البرزخ ثم القيامة، ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ . . . لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾(٣) ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾(٤) فلا سوق بالموت إلا إلى الرب ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾(٥).

فمهما كان انسياق الإنسان يوم الدنيا بخيرَته، فهو مُساق مسيَّر في سَوق الآخرة إلى سُوقها، فلا سائق هناك إلا الله، فلا مساق إلا إليه، سوقاً إلى ربوبيته، لا إلى ذاته، فإنما إلى حسابه وجزائه، بثوابه أو عقابه.

ومن ثم يسدل الستار على سكرات الموت، ويُنتقل إلى عرض مشهد اللاهين المكذبين.

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾:

عرضٌ موجز عن أردأ حالات الكفر لألعن حماقي الطغيان، فرعون هذه الأمّة أبي جهل على حدّ المروي عن الرسول ﷺ: «إن لكل أمّة فرعوناً وإن فرعون هذه الأمّة أبو جهل»(٦) كان يأتي الرسول أحياناً يسمع منه

---

(١) هذا الأخير بناء على كون الساق جمعاً للساقة: فهم الذين يكونون في أعقاب الناس يحفزونهم على السير.
(٢) سورة العلق، الآية: ٨.
(٣) سورة غافر، الآية: ١٦
(٤) سورة الانفطار، الآية: ١٩.
(٥) سورة طه، الآية: ١٥.
(٦) الدر المنثور ٧: ١٢٩٦ أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن منذر عن قتادة عنه ﷺ.

القرآن، ثم يذهب إلى أهله متفكهاً متمطياً كالمُطي: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ بما يجب تصديقه، رغم توفر آيات الصدق، البينات ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾: مهانة ونكراناً لله، وللرسالة الإلهية، دون أن يتأدب أو يخشى ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾ كأنه فقط رزقه من الحياة: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(١) كذب بقلبه وقوله وفعله ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ بركنه، مدبراً عن الحق ورسوله ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ﴾ كأن جاء لهم بما يتفكهون ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾: يمدّ مَطاه: ظهره، كالمُطي، فالمطيّة ما يُركب مطاه من حمار وسواه، فأبو جهل يمدّ مَطاه ليركبه الشيطان، وهو يحمل إلى أهله تفكّه الهزء والطغيان، مختالاً فخوراً بما فعل، كأنه يرفع من شأنه، وما هو إلا حماراً، يقرب من خُطاه ويمدّ مَطاه.

وكم من آباء جهالات في تاريخ الرسالات الإلهية، يعيشون مطايا، ويحملون خطايا، يتبهجون تفنناً في الصدّ عن سبيل الله ﴿مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾(٢) وهم يفخرون ويتمطون حياتهم بما بغوا ومكروا ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله» فأولى لهم ثم أولى:

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾:

كلمة تسفيه وتقبيح، وتوعيد بأشد وعيد، تشمل الأولى والأخرى، توجّه إلى الذين في قلوبهم مرض، مادّين مَطاهم فاخرين: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾(٣).

وقد أمسك رسول الله ﷺ بخناق أبي جهل مرة وهزّه قائلاً: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ فقال: أتوعّدني يا محمد! والله لا تستطيع أنت

(١) سورة الواقعة، الآية: ٨٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٩.
(٣) سورة محمد، الآية: ٢٠.

ولا ربك شيئاً، وإني لأعز مَن مشي بين جبليها.. ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾(١).

فالآية الأولى تلمح لنكالين في الأولى تلوَ بعض، ذاق الأول حياته الكافرة وهو كفره وتكذيبه بما طبع الله على قلبه ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(٢) والثاني يوم بدر إذ قتله المؤمنون، والآية الثانية توحي لنكاليه بعد قتله: يوم البرزخ ويوم القيامة، نكالٌ مضاعف في الأولى، وآخر كذلك في الأخرى، أولويّات أربع بويلات له في الدارين، وبُعداً له من خيرات النشأتين، وعلى حد المروي عن الإمام الجواد عليه السلام (٣).

﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾: حالُك الحاضرة الخاسرة، إذ تمتطى منحيّاً مَطاك ليركبك الشيطان، فما أنت إلا حماراً ﴿فَأَوْلَىٰ﴾: لك أن تُقتل في سبيل الطاغوت، كما قتل يور بدر ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ﴾: حالك المستقبلة بعد الموت يوم البرزخ إذ تحمل خطاياك مع خطايا مَن سواك من المضلّلين بك ولا ينقص من أوزارهم شيء ﴿أَوْلَىٰ﴾: بخلود النار يوم القيامة الكبرى: فأنت حمار في الدارين فيهما تتمطى، وإن كنت هنا بثوب الإنسان وصورته تتغطى! ويلات أربع كلها لك أولى، فإنك فرعون هذه الأمّة، فليأخذك الله نكال الآخرة والأولى.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾:

عود على بدء في التنديد بالإنسان في حسبانه: ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ وهذا هو تركه سدًى وهُمَلاً، وأنه بعيد عن عدل الله وحكمته: ألا يجازيه بما فعل

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٥.
(٢) سورة الصف، الآية: ٥.
(٣) نور الثقلين ٥: ٤٦٦ في عيون الأخبار عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني قال: سألت محمد ابن علي الرضا عليه السلام عن هذه الآيات، قال: يقول الله عز وجل: «بعداً لك من خير الدنيا وبعداً لك من خير الآخرة».

وافتعل، خيراً أو شراً، أو يختص جزاؤه بروحه دون جسمه، وهما شريكان في الأعمال كلها إلا الروحانيات المحضة، كالنيات والاعتقادات.

فكأنما الإنسان يحسب الحياة أرحاماً تدفع وقبوراً تبلع، فوضّى وسدًى، وقد «خُلِقنا للبقاء وكيف يفنى جنة لا تبيد ونار لا تخمد.. إنما نتحول من دار إلى دار»[1]، فما خُلقنا دون هدف وحكمة، لهواً ولعباً وزينة وتفاخراً وتكاثراً في الأموال والأولاد!: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[2] لم يخلق خلقه عبثاً ولم يتركهم سدًى، بل خلقهم لإظهار قدرته وليكلفهم طاعته، فيستوجبوا بذلك رضوانه، وما خلقهم ليجلب منهم منفعة ولا ليدفع بهم مضرة، بل خلقهم لينفعهم ويوصلهم إلى نعيم[3]. وما الحياة العَبَث السدى إلا لهواً تعالى الله عنه: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[4] ولماذا يعبث بنا ربنا ويلهو؟ هل لنقصان في علم أو حكمة؟ أم بغية ظلم لعباده؟ أم لعجز عن إحيائهم كما بدأ؟ وهو الذي خلق أول مرة:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾:

فالأكثرية الساحقة من ناكري إحياء الموتى يسندون إلى استحالته، وواقع الخلق من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام وإلى إنشاء الخلق الآخر: «الروح» برهان لا مرد له على إمكانية الإحياء مرة أخرى وهو أهون

(١) في العلل قال رجل للصادق عليه السلام: إنا خلقنا للعجب؟ قال: وما ذلك الله أنت؟ قال: خلقنا للفناء؟ فقال: يا بن أخ! خلقنا للبقاء...
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.
(٣) علل الشرائع عن عمارة: سألت الصادق عليه السلام فقلت: لم خلق الله الخلق؟ فقال:...
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٧.

وأحرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[١] ثم علمه بالمحسن والمسيء والظالم والمظلوم، وحكمته العالية وعدله تعالى: تفرض الإحياء الممكّن للحساب والجزاء الوفاق!.

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾: خليّة واحدة حية صغيرة لم تكن تبين بالمكبرات، ممّاذا؟ ﴿مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ عن شهوة دون اختيار ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ تعلقت بجدار الرحم لتأخذ سيرها حثيثاً إلى خلقه إنساناً مؤلفاً من مليارات الخلايا الحية، وقد بدأت من خلية واحدة مع بويضة[٢]، وهذه الرحلة القصيرة المدة، البعيدة المدى، هي أبعد بكثير من مولده إلى مماته، والقائد في كلتا الحركتين واحد هو الله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟ سبحانك اللهم وبلى[٣] وأنا على ذلك من الشاهدين[٤] بلى، إنه على ذلك لقدير، وإنه بالتصديق والإيمان به لجدير، فسبحانه سبحانه تعالى من حسبان هذا الإنسان الصغير الصغير، فماذا يملك أمام هذه الحقائق التي تفرض نفسها دون تكلف؟ إلا أن يؤمن بالخبير القدير!

---

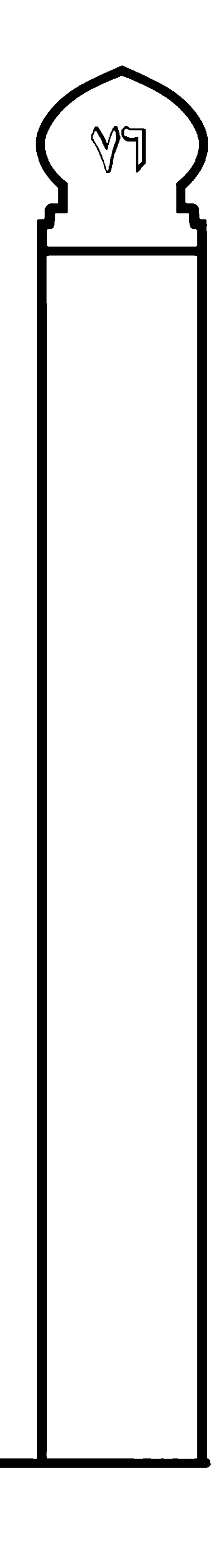
(١) سورة الروم، الآية: ٢.

(٢) راجع سورة العلق ٣٠.

(٣) الدر المنثور ٦: ٢٩٦ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠] قال: . . .

وفي نور الثقلين ٥: ٤٦٧ في أخلاق الرضا عليه السلام: «و كان إذا قرأ هذه الآية (قال عند الفراغ» سبحانك اللهم وبلى.

(٤) الدر المنثور ٦: ٢٩٦ - أخرج البخاري في تاريخه عن أبي أمامة قال: صليت مع رسول الله ﷺ بعد حجته فكان يكثر من قراءة ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فإذا قال: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ (سمعته يقول: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين).



سُورَةُ الإِنسَانِ



مدنية - وآياتها إحدى وثلاثون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ٢٠ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن

﴿فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢)﴾

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا (١)﴾:

هل الإنسان هنا الإنسان الأول؟ ولم يُخلق من نطفة أمشاج وغير أمشاج! أم جنس الإنسان بما فيه الأول؟ فكذلك الأمر! أم ولده المتناسلون عنه؟ فكيف يخرج الأول عن أنه عليه السلام: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾!

الجواب: أنه جنس الإنسان هنا، وغير الأبوين الأوّلين هناك في استعراضٍ مِن خلقه: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ وقد عرض خلقهما في محالّ أخرى: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[(١)] كما استعرضت بقية المشاهد لخلقهم كذلك.

وهل الاستفهام تقريب وتقرير: أن أتى عليه حين: قطعة محدودة - من الدهر: مجموعة الزمان غير المحدودة، ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾: كان شيئاً ولم يكن مذكوراً[(٢)] حيث النفي هنا يوجّه إلى الوصف، دون الموصوف كما في: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾[(٣)] إلا في علم الله، أما في الخلق والتقدير فلا، وإن في مبادئه تراباً أم نطفة أم ماذا؟

أم الاستفهام إنكاري يعني نفي مدخوله: أنه كان شيئاً مذكوراً طوال الدهر: قبل خلقه في علم الله، وبعده في رحمة الله وعنايته، وعلى حدّ المروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «هل أتى عليك يا إنسان وقت لم يكن

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٦.

(٢) تفسير العياشي عن زرارة سأل الباقر عليه السلام عن الآية فقال: . . وفيه عن عبد الأعلى مولى آل سام عن الصادق عليه السلام مثله.

(٣) سورة مريم، الآية: ٦٧.

الله ذاكراً لك فيه؟»[١]، كلٌّ محتمل، والجمع أجمل، حيث الاستفهام هنا يتحملهما فقد كان شيئاً معلوماً عند الله، مذكوراً عنده في عداد ما أراد خلقه، ثم الله ذاكرٌ له على طول الخط إذ خلق أصله: التراب، ثم منيّه من سلالة التراب، ثم نطفته من سلالة المني، ثم درج به في خلقه وتصويره وتسويته إلى درجة الإنسان، ثم هو ذاكره طول الحياة إلى الممات وبعده «فهل أتى عليه وقت لم يكن الله ذاكراً له؟» اللهم لا.

وقد كان شيئاً في علم الله كسائر الأشياء ولم يكن مذكوراً في الخلق: «كان مذكوراً في العلم ولم يكن مذكوراً في الخلق»[٢]: «كان شيئاً مقدراً لا مكوّناً»[٣] وبعدما خلق تراباً كان شيئاً في أصله التراب بشيئية التراب، ولم يكن مذكوراً في عداد الإنسان، ولا بمبدئه الجرثومي: نطفة وسواها، ثم إذ خلقت نطفته كان شيئاً هو أصله الجرثومي ولم يكن مذكوراً كإنسان، ولا مذكوراً باسم النطفة والمني أيضاً - تأدباً، إذ كان قذراً لحدّ لم يك يذكر إلا لمن اضطر، بحثاً عن أصله فيزيولوجيّاً، أو خناءً لمن يستحقة، أو تذكيراً بأصله: لقد كنت نطفة قذرة.. فهذه أولى النعم التي أبلانا الله عز وجل بها أن خلقنا ولم نكن شيئاً مذكوراً «وعلى حدّ تعبير علي عليه السلام وتقرير الرسول صلى الله عليه وآله وسلم»[٤].

---

(١) ج ١٠ ص ٢٥٩ تفسير روح البيان لإسماعيل حقي.

(٢) تفسير العياشي عن سعيد الحذاء عن الباقر عليه السلام: . . .

(٣) الكافي بإسناده عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني بإسناده عن الإمام الصادق عليه السلام: سئل عن قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧] فقال: (لا مقدراً ولا مكوناً) وسئل عن قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ . . .﴾ قال: كان مقدراً غير مذكور، وعن حمران عنه عليه السلام شيئاً مقدراً ولم يكن مكوناً أقول: التقدير هو تقدير العلم والخلق قبل أن يخلق.

(٤) أولى الشيخ الطوسي بإسناده إلى الإمام الباقر عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي عليه السلام: قل ما أول نعمة أبلاك الله عز وجل وأنعم عليك بها؟ قال: أن خلقني جل ثناؤه ولم أك شيئاً مذكوراً، قال: صدقت.

فهل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً؟ اللهم بلى، إذ كان مَنسيّاً في الخلق كإنسان، غير مذكور قبل خلقه إنساناً، ذكرَ الكيان أم ذكر اللسان، ثم اللهم لا! إذ كنتَ ذاكره كل الدهر: قبل خلقه وبعده!

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾:

فما هي النطفة الأمشاج؟ النطفة هي واحدة النُّطَف: الماء الصافي، فالمني نُطَف يُخلق الإنسان من نطفة منها: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾(١) وصفاؤها هي اصطفاؤها من البدن كله، فإنها: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾(٢) فالمني بحر لجي من ملايين النطف: الدودات العلقية، ولمائه صفائه لأنه المصطفى من كل البدن، ثم النطفة التي يخلق منها الإنسان هي سلالة من هذه السلالات، فالإنسان نتيجة نهائية لتسلسل سلالات عدة: يتسلل المني عن البدن كله بما تغذّى، كما الغذاء سلالة من طين، فالمني سلالة من طين: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾(٣): سلالة هي من طين، وهي المني، ثم نطفة: سلالة من هذا المني!.

ومن ثم إذا كانت هذه النطفة واحدة فكيف توصف بالأمشاج؟ فكيف يجمع بين الوحدة والجماعة؟ نقول هنا ما قلناه في ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾(٤) فهما من حيث الوجود اثنان، ومن حيث الآية المعجزة آية واحدة لتلازمهما فيها، كذلك النطفة واحدة في كيانها وجاه سائر النطف، ولكنها حصيلة الأمشاج: الأخلاط، جمع المشيج أو المَشِج أو المَشَج أو المَشْج: الخليط أو الخلط، فهي «محطّ الأمشاج من مشارب الأصلاب»(٥) حيث

---

(١) سورة القيامة، الآية: ٣٧.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٨.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٢.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٥٠.

(٥) في نهج البلاغة قوله عليه السلام عالم الغيب من ضمائر المضمرين إلى قوله: . . .

«ماء الرجل والمرأة اختلطا جميعاً»[١] وهذا مشج واحدٌ فما هي الأمشاج؟:

مشجٌ أوّل هو أصول الغذاء الإنساني المركبة من عناصر عشرة هي: الأوكسجين، والأودروجين، والكربون، والأزوت، والكبريت، والفوسفور، والبوتاسيوم، والمغنسيوم، والكلسيوم، والحديد، وتلك عشرة كاملة تتبنى غذاء الإنسان.

فهذه العناصر داخلة في كل نبات وحيوان، وأخيراً في الإنسان لأنها غذاؤه، فأعصابه وخليّاته تتكوّن وتتقوى منها، وهي كلها دخيلة في خلق المني، ويا لها من اختلافات لونية وعنصرية في المفعول!.

ومشجٌ ثانٍ: خلق المني من مجموعة هذه الأعصاب، ذكراً وأنثى، فهو قطرة من بحر الكيان الإنساني ككل، طالما تكون خزانته الاحتياطية البيضتين، والأصيلة صلب الرجل وترائب المرأة، ودليلاً حسياً على هذه الجمعية ارتخاء الأعصاب كلها، بما يشدها ويمدها المركز الرئيسي: الصلب والترائب.

ومشج ثالث: خلط ماءَي الذكر والأنثى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾[٢] اعتبرا ماءً واحداً لمكان المزج والمشج، ولكي يخلق منهما إنسان واحد فيمشجان في الرحم: بيت الزوجية الثاني للزواج الثاني.

ومشج رابع: تزاوج النطفتين: - خلية الذكر وبويضة الأنثى - بعد خلط الماءين، فالبحران المنويان هنا يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان، ثم تلتقي من كلّ دودة مع الأخرى في الآخر، زواج بعد زواج عجيب[٣].

---

(١) القمي: عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الأمشاج.

(٢) سورة الطارق، الآيتان: ٦، ٧.

(٣) راجع ج ٣٠، تجد فيه كيفية زواج النطفتين.

ومشج خامس: هو تتمة عملية الزواج الأخير في بناء الإنسان الجديد: أن يمشج الشريكان، كلٌّ ما عنده بما عند الآخر من عناصر التخطيط (الكروموزومات Chromosmes) وما فيها من الخلق المخلَّقة (الجينات Qenes) التي خطتَّها وخلقتها وسوّتها يد القدرة الإلهية بأقلام الإرث المنحدر عبر الأجيال من الجدود والآباء إلى الأبناء، فالوراثات المتداخلة الكامنة في النطفة، الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولاً، ولصفات الجنين العائلية أخرى، هذه الوراثات هي الدور الخامس من النطفة الأمشاج.

ومشج سادس: هو خلط الطبائع الكامنة في النطفة من حرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة، وتبتني البنية الحيوانية المعدَّلة الأخلاط منها، التي هي ظروف ومجالات فاسحة لتصرفات الروح: الغضبية والشهوية والعقلية وأمثالها، والى أمشاج أخرى لم تصل إليها أيدي العلم حتى الآن.

وكما الإنسان حين نزول القرآن ما كان يدري شيئاً من هذه الأمشاج، مما حمل جماعة من المفسرين يحاولون في جعل الأمشاج مفرداً، وجماعة أخرى ساكتون عن تفسير الجمع بعد تصديقه، وثالثة يكتفون بمشج ماءي الذكر والأنثى، رغم أن للقرآن آيات متشابهات يفسّرها الزمن!

﴿... نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾:

الابتلاء هو نقل الشيء من حال إلى حال، ومن طور إلى طور، كابتلاء الذهب من كدر إلى صفاء في البوتقة، والإنسان كائن متطور متنقل منذ النطفة حتى الممات، روحياً وجسدانياً، وكافة تطوراته هي من فعل الله وابتلائه، سواء أكانت من سعيه، كالمختار فيها بعقله وحوله، أم سواها مما لا حيلة له فيها، من التطورات الجنينية وسواها، من نطفة إلى علقة والى آخر الأطوار المتعاقبة حتى إنشاءه خلقاً، ثم من ولادته إلى وفاته من حياة التكليف والاختيار وسواهما، وإنما ابتلاءه في حياة العقل والتكليف يتطلب السمع

والبصر قلباً وقالباً، ولكي يصدر الإنسان بهما وبسائر وسائل الإدراك، من آفاق التكوين والتشريع إلى عقله وقلبه، استزادة للوعي واهتداءً إلى ما يجهله بما هداه الله السبيل، وليكون أحسن المخلوقين، فإما شاكراً وإما كفوراً.

فهل إنّ ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ هنا حال من الإنسان منذ النطفة حتى الممات؟ وابتلاءه من غايات خلقه - المهمة: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ لتكملة هذا الابتلاء بإكمال وسائله الاختيارية؟ إذاً ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ تفريع على نبتليه: فلكي نكمل ابتلاءه جعلنا له وسائله.

أم إنها حال من الإنسان في التطورات الجنينية ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ بعد ابتلائه هذا ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾؟ وأهم الابتلاء إنما هو في الحياة ولا سيما حياة التكليف! طالما يعم قبلها منذ النطفة حتى الولادة حتى عقل التكليف!

أم حال منه في حياة التكليف فحسب فابتلاؤه إذاً بعد جعل السمع والبصر؟ وهذا يقتضي قلب الجملة جعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه وهو خلاف الفصيح!

أم غاية لخلقته: «خلقنا الإنسان.. لنبتليه فجعلناه..» وهذا تكلّف دون دليل! والأول أشمل وأوفق لفظياً ومعنوياً دون تكلف: حال أنا «نبتليه» لهذه الحالة التي هي أيضاً غاية: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ لتحسن حالة الابتلاء!

والسمع والبصر هما العنصران الأساسيان للابتلاء، ولا يعنيان الجارحتين فحسب، لأن مدار الابتلاء هو سمع العقل وبصر القلب، ففاقدهما لا يبتلى مهما كان قوياً في سمع الظاهر وبصره، فأصل الابتلاء هو السمع والبصر عقلياً وقلبياً، وكمالُه السمع والبصر قالبياً ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[١] ولا يبتلى ويكلف من لا يجدهما عقلياً، دون العكس.

---

(١) راجع إلى تفسير هذه الآية في سورة الملك.

والسميع والبصير هما مبالغتان في السمع والبصر، ما ذكرا في القرآن إلا وصفين لله، إلا في موضعين ثانيهما: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ﴾(١) مما يدل على أهمية التوصيف بهما لغير الله تعالى، فالإنسان السميع البصير لا يكاد يخفى عليه ما ينفعه في ابتلائه واهتدائه السبيل، وقليل هؤلاء الذين يتذرعون هذه الوسائل لاهتداء السبيل:

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾:

السبيل هي الطريق الذي فيه سهولة، سبيل الخير لتُطلب وسبيل الشر لتجتنب: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾(٢) ولقد يسر الله هاتين السبيلين للإنسان: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾(٣) فهداية السبيل وتيسيرها، يوحيان بيسر على يسر مندغمين في ذات الإنسان، مركّزين في نجدي الخير والشر(٤) ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾(٥).

فالهداية - هنا - هي دلالة الطريق: فطرياً وعقلياً وأمثالهما من سائر التكوين، وتشريعياً بكتابات الوحي وأنبيائها ودعاتها ورعاتها.

والسبيل هنا تعم النجدين: الخير والشر، إذ ألهمناهما: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾(٦). فإن لاستبانة سبيل المجرمين دخلاً عظيماً ودافعاً لسلوك سبيل المؤمنين: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾(٧) فليست هداية سبيل الله كافية في اجتناب سبيل الطاغوت، فلنهتد السبيلين، لكي نكون

(١) سورة هود، الآية: ٢٤.
(٢) سورة البلد، الآية: ١٠.
(٣) سورة عبس، الآية: ٢٠.
(٤) راجع ج ٣٠ ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ [عَبَسَ: ٢٠].
(٥) سورة النساء، الآية: ١٦٥.
(٦) سورة الشمس، الآية: ٨.
(٧) سورة الأنعام، الآية: ٥٥.

على بصيرة منهما في الضلالة والهدى، وتتم حجة الله علينا فيهما: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[١].

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾:

﴿إِمَّا﴾ هنا ليست للترديد في علم الله تعالى، وإنما ايحاءٌ لتردد الإنسان بين الأمرين تخييراً دون تسيير، فيما إذا كان شاكراً أو كفوراً حالين من الإنسان أو خبرين «ليكون» المقدر.

أو إنها لتقسيم السبيل إلى شاكر أو كفور، إذا كانا حالين للسبيل أو بدلين عنهما: هديناه سبيل الشكر وسبيل الكفر، وما أجمل التعبير عن السبيل الواضح بالشاكر والكفور، كأنهما مندغمان في السبيل لكثرة وضوحهما فيها كالشمس في رابعة النهار: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾.

والآية تتحمل المعنيين معاً لفظياً ومعنوياً، فليكونا مقصودين، والشكر علّه من الكَشر: الكشف، وهو تصور النعمة وإظهارها، بخلاف الكفر، أو أنه «الأخذ بها، وكفرها وتركها»[٢] وأكمله الأخذ باللسان كله، والجنان كله، والأركان كلها، أن يصبح المنعم عليه شكراً للمنعم في كيانه ككل، وكامله الأخذ مبدئياً في الكلّ مع تسرّب اللمم أحياناً، وناقصه الأخذ بالبعض، وكله أخذ وشكر وتركه كفر، كلٌّ على حدِّه، وهذه المعاني الثلاثة متقاربة أو مترادفة تعني: إظهار النعمة وصرفها فيما أوتيت لأجلها، فاللسان معبر عما في الجنان، والأركان تعبر بأعمالها عن مدى الإيمان، وعلى حدِّ المروي عن الرسول ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه فإذا عبّر عنه لسانه إما شاكر وإما كفور»[٣].

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

(٢) التوحيد للصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام وأصول الكافي عنه عليه السلام والقمي عن الإمام الباقر عليه السلام في الآية قالا: (إما آخذ فهو شاكر وإما تارك فهو كافر) (نور الثقلين ٥: ٤٦).

(٣) الدر المنثور ٦: ٢٩٨ - أخرج أحمد وابن المنذر عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ.

ومقابلة «شاكراً» بـ«كفوراً» وهي صيغة موغلة في الدلالة على الكفران، دون «كافر» هذه المقابلة توحي بأن غير الشاكر كفور، فإن ترك الشكر بهذه الموهبات الربانية كفران لها وكفرٌ بالرب، وكفر بالفطرة والضمير والعقل: الدافعة إلى الشكر، وكفر بحملة الرسالات الربانية، إذاً فـ﴿كَفُورًا﴾: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾(١) مما يدل على أنه كل كافر، إذ يحصر الجزاء العقاب بالكفور، وكما الكفور أيضاً دركات حسب دركات الكفران، وهنا ينقسم إلى كافر وكفور.

ومن ثم تعني أن الشاكر أعم من الشكور، ولذلك لم تقابل الكفور بالشكور، فمن الشاكر شكور وقليل ما هم، ومنهم غير شكور وما أكثرهم، كأنما الإنسان بطبعه كفور: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾(٢) وليس بطبعه شكوراً ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾(٣).

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾:

والكافر هنا أعم من الكفور، كما كان الشاكر هناك أعم من الشكور، والإعتاد هو إعداد الشيء حتى يكون عتيداً حاضراً، فقد هيأ الله تعالى لأخرى الكافرين ما قدموه في دنياهم: سلاسل: قيوداً لأقدامهم، وأغلالاً: لأيديهم تشدها إلى رقابهم وتجعل الأعضاء وسطها، وسعيراً: ناراً متسعرة يُلقون فيها مسلسلين مغلولين، عذاباً فوق العذاب! ولقد ظلوا يوم الدنيا مسلوكين في سلاسل الهوى، ينقادون ما قادهم الشيطان، ومغلولين في أغلال الشهوات في سعير حياتهم الجهنمية كل الحياة، فالإعتاد الإلهي لهذا العذاب حسب ما أعتدوا وإعتدوا وبغوا، جزاءً وفاقاً، وهذه الآية كأمثالها

(١) سورة سبأ، الآية: ١٧.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٨.
(٣) سورة سبأ، الآية: ١٣.

من آيات الإعتاد توحي بخلق الجحيم بأصولها، وإنما تترقب حطبها لكي تسعر أكثر فأكثر. هذا هو جزاءُ الكفور، فما هو جزاء الشكور؟:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾:

الأبرار هنا تعم المقربين - وأحرى - طالما الآيات تنتهي بسيرة أقرب المقربين[١] أهل بيت الرسالة المحمدية «علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام»: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ ... إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ...﴾ فإنها خاصة بهم كما تواترت أحاديث الفريقين[٢] رغم أن كثيراً من مفسري القرآن لم يشيروا إلى نزول هذه الآيات بشأنهم عليهم السلام، وعله تجاهلاً عن فضلهم، لحدّ عدّوا السورة مكية، وهي تنادي بمدنيتها كما يأتي.

فهم يشاركون سائر الأبرار في أبر النعم وأوفرها، ويختصون بما لا ينالونها، وهم أصدق المصاديق لآيات الأبرار وعلى حد المروي عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام [٣].

---

(١) راجع ٣٠: ١، على ضوء الآية ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨].

(٢) راجع تفسير البرهان وتفسير نور الثقلين وكفاية الخصام، تجد فيها تضافر الأحاديث أن الآيات نزلت بشأنهم عليهم السلام وفضة طالما ابتدأت بالأبرار كل الأبرار، ولكي تشمل فضة خادمة علي وفاطمة، وممن صرح بذلك الواحدي في كتاب البسيط وصاحب الكشاف رواية عن ابن عباس، وفي الدر المنثور ٦: ٢٩٩ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ...﴾ [الإنسان: ٨] قال: نزلت في علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن ذلك، في الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه للقوم بعد موت عمر بن الخطاب: نشدتكم بالله هل فيكم أحد نزل فيه وفي ولده ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ ...﴾ [الإنسان: ٥] إلى آخر السورة - غيري؟ قالوا: لا.

(٣) مناقب ابن شهر آشوب بإسناده عن الهذيل عن مقاتل عن محمد بن الحنفية عن الحسن بن علي ابن أبي طالب عليه السلام قال: كل ما في كتاب الله عز وجل من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ [الإنسان: ٥]=

﴿... كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾: مزاج الكأس، لا المشروب، لذكورته وأنوثة الكأس، والكافور اسم أكمام الثمرة التي تكفرها، مبالغة في الكَفر: الستر[1]، فمزاج الكافور لكؤوس الشراب في الجنة، كَفرٌ لها عن كسرها وتغيّرها، وتغييرها لشرابها، ولم يأت في القرآن مزاج الكافور لشيء إلا الكأس، وإلا هنا، آية وحيدة في مزاج الكافور لكأس الجنة.

و﴿كَانَ﴾ توحي بسبق هذا المزاج عن الشرب والشراب والتفجير، مما يؤيد مزاج الكأس نفسه دون الشراب، وأنهم مزجوا كؤوس قلوبهم وأرواحهم بما يكفرها ويسترها عن موتها، ويعدّها لشرب مياه الحياة المعرفية والروحانية.

فهذه سيرة الأبرار في دنياهم، وتلك صورة واقعية لهم في عقباهم، كأساً بكأس، ومزاجاً بمزاج، وشرباً بشرب، فمن أين يشربون؟:

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾:

وما أحلاها مشرباً من نبعة تنبع بما يفجّرونها تفجيراً أنيقاً يسيراً ليس فيه من تكلف لا كثيراً ولا قليلاً، وإنما تفجيراً كثيراً وفيراً، فما أنظفها شرباً وشارباً وكأساً وعيناً وتفجيراً: عباد الله الأبرار، كأس الكافور، عين مفجرة بذات أيديهم، وعلّه بغمزة وإشارة، أو قولة وإرادة، أو أياً كان من تفجير كما يشاؤون: ف ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾[2]!.

ثم إن ﴿عَيْنًا﴾ تلمح لواحدة، فكيف يكتفي عباد الله بعين واحدة؟ أم

= فوالله ما أراد به إلا علي بن أبي طالب وفاطمة وأنا والحسين لأنا نحن أبرار بآبائنا وأمهاتنا، وقلوبنا عملت بالطاعات والبر، ومبراة من الدنيا وحبها وأطعنا الله في جميع فرائضه وآمنا بوحدانيته وصدقنا برسوله (نور الثقلين ٥: ٤٧٣ - ٤٧٤).

(١) والكافور المعروف تستخرج من شجرة أريجية من فصيلة الغاريات مهدها الأصلي جنوب الصين أزهارها بيضاء ضاربة إلى الصفرة.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٧١.

كيف يشتركون كلهم في تفجير هذه الواحدة؟ ولعل الجواب أنها واحدة في منبع أصيل، كثيرة في نبعات فرعية في مناكب أرض الجنة، كلٌّ يفجّر هذه الواحدة عنده بساقية تحت الأرضية عنها، والأصل من تفجير الله!: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[١] عيون مفجرة من تلك الواحدة، وكما المقربون لهم عين خاصة بهم: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[٢] وقد تجاوب هاتين العينين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾[٣] ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾[٤] عينان تفجّر من كلّ عيون!.

وهذه «هي عين في دار النبي ﷺ تفجر إلى دور الأنبياء والمؤمنين»[٥] كما تفجرت عيون النبوات إلى دور النبيين من البيت المحمدي طوال الرسالات الإلهية، وإلى دور المؤمنين، فلكلٍّ عين من هذه الأصيلة يوم الدين حسب ما فجروها يوم الدنيا.

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾:

قد يوحي تأخير ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ وهو عمل الدنيا، عن «يشربون» وهو جزاء الآخرة، يوحي هذا التعبير العبير بأن الوفاء بالنذر هو من هذه الأعمال الخيرة التي تُشربهم في الجنة وتفجِّر لهم عيونها، كما شربوا حب الله، وحب الفقراء في سبيل الله، وفجّروا عيون قلوبهم له ولهم، وكما يوحي بأن الحالة هذه نفس الحالة تلك، طَبَقاً عن طَبَق، فحال الأبرار في شربهم موجودة يوم الدنيا، كما أن حالهم في وفائهم موجودة يوم الدين.

والوفاء بالنذر - ومنه الإيجاب على النفس لسبب - يلمح بأنهم وصلوا

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٥.
(٢) سورة المطففين، الآية: ٢٨.
(٣) سورة الرحمن، الآية: ٥٠.
(٤) سورة الرحمن، الآية: ٦٦.
(٥) أمالي الصدوق عن الإمام الباقر عليه السلام في آية التفجير قال: (هي عين في دار...

في استجابة أمر الله القمة، فإذ يوفي الإنسان ما يفرضه لله على نفسه فهو أوفى لله بفروضه الأصيلة، وهذه الآية تجاوبها آيات عدة في وجوب الوفاء بالنذر: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾(١) ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾(٢).

وقد يعم النذرُ إيجاب الواجب، فرضاً على فرض، كإيجاب المندوب فرضاً على ندب، فالأبرار ينفذون ما اعتزموا من واجبات، وما التزموا من طاعات، كما ويعم ما أوجب الله عليهم في الميثاق(٣) فهم يوفون بنذورهم ونذور الله.

وإنها لهي صورة لمّاعة عن قلوب صافية، وصدور منشرحة ضافية، معتزمة على الوفاء لله، عاملة لوجه الله، دون أن تريد إلا مرضاة الله.

إنهم ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ فهنا شرٌّ مستطير، وهناك شرٌّ ثابت، فالمستطير هو شرّ الدنيا، والثابت هو شرّ الآخرة الناتج عن الأولى، فإن شر الآخرة من شر الدنيا المستطير إليها، فحقيقة الاستطارة من صفات ذوات الأجنحة: البعثة على الطيران، فشر الدنيا مبعوث من قبل الله للطيران إلى مسجلات الكون: شهود الأعمال، وللطيران إلى أعماق البرزخ والقيامة، ثم يقف للحساب والجزاء: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾(٤) وإنها تيارات الشر، كأنها طائرات وهي في أعناق ركابها.

وتُجاوب «مستطيراً» «كان» فإنها تلمح بمضيّها، بأن شر الآخرة -

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٩.
(٢) سورة مريم، الآية: ٢٦.
(٣) أصول الكافي بإسناده عن أبي الحسن الماضي في آية النذر قال: يوفون لله بالنذر الذي أخذ عليهم في الميثاق من ولايتنا.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٣.

المستقبل - هو استمرار لشر الدنيا - الماضي - المستطار، طَبَقاً عن طَبَق، فليقطع العاقل أجنحة الشر وأصولها في الأولى، لكي لا يستطير وإلى الآخرة.

ولأنهم يخافون ذلك اليوم البئيس العصيب، يدأبون - هنا - في اجتثاث جذور الشرور لكي لا تستطير، ويعملون في استطارة الخيرات لكي تستطير، ومن أسباب ذلك السلب وهذا الإيجاب الإيفاء بالنذر وإطعام الطعام على حبّه لوجه الله، المسكين واليتيم والأسير كما فعله علي وفاطمة والحسنان عليهم السلام واحتج به علي عليه السلام على أبي بكر[1].

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾:

مكرمة أخرى للأبرّين، هي إطعام الطعام على حبّه للمحاويج، إيثاراً على أنفسهم، وبهم خصاصة! لوجه الله لا سواه، أركان ثلاثة في الإنفاق ترفع به إلى قمته، وتوحي بالخير المستطير، بعدما اجتثوا جذور الشر المستطير.

١ - فمن أصول البرّ والإنفاق الحَسَن أن يكون محبوباً، طعاماً وإطعاماً: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ فلا كرامة في إطعام الطعام المرذول، أو إطعام مكروه وإن كان الطعام محبوباً وكان لوجه الله: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2] حبّاً مزدوجاً للإنفاق وما تنفقون.

والنص «على حبّه»: الطعام والإطعام لا «في حبّه» لكي يؤول إلى حب الله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾[3]،

---

(١) الخصال في احتجاج علي عليه السلام على أبي بكر قال: أنشدك بالله أنا صاحب الولاية ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧] أم أنت؟ قال: بل أنت (نور الثقلين ٥ : ٤٧٧).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

إضافة إلى أن الطعام هو المرجع الأقرب «الطعامَ على حبّه» و«الله» أبعد في الموقع الكلامي «عيناً يشرب بها عباد الله» وإن المضاف إليه ك «الله» هنا، لا يرجع إليه ضميرٌ أياً كان.

ومن الناحية المعنوية أيضاً قد يُطعَم الطعام غير المحبوب في حب الله، وأما إذا يطعم المحبوب لوجه الله فهو الوجه الأحسن في الإطعام، ووجه الله مذكور بعده ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ فلماذا يؤول «على حبه» إلى حب الله؟

كلا: إنما على حب الطعام والإطعام، حبّاً عالياً إلى حاجة مدقعة لهؤلاء المطعمين، فلم يقل «مع حبّه» إنما «على حبّه» ما يوحي باستعلاء حبّه عليهم، لا حبّاً ذاتياً للطعام أو نوع الطعام، فإنهم كانوا أخلص المخلصين وأبر الأقربين، لا يحبون إلا لله وفي الله، فإنما حباً لإدمان الصيام الذي نذروه، ولتقوى أبدانهم على طاعة الله وتقواه، ومعهم الطفلان الحسنان! وأنهم حصلوا الطعام على مشقة وصعوبة بالغة.

فهم - على حبهم هكذا طعام، وحبهم للإطعام يطعمون لقمة الفطور وبلغة الصيام للمحاويج السائلين، بأريحية نفس ورحمة قلب وخلوص نية، وكما فعله علي وفاطمة والحسنان «وهما صغيران»[١] ومعهما الخادمة فضة وقد تواترت به أحاديث الفريقين[٢].

---

(١) أمالي الصدوق عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام في الآية أنهما قالا: مرض الحسن والحسين وهما صبيان صغيران فعادهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه رجلان... وفيه أنهما صاما مع أبويهما - إلى نهاية القصة.

(٢) رواه فيمن رواه أبو صالح ومجاهد والضحاك والحسن وعطا وقتادة ومقاتل والليث وابن عباس وابن مسعود وابن جبير وعمرو بن شعيب والحسن بن مهران والنقاش والقشيري والثعلبي والواحدي في تفاسيرهم، وصاحب أسباب النزول والخطيب المكي في الأربعين وأبو بكر الشيرازي في نزول القرآن في أمير المؤمنين عليه السلام والأشنهي في اعتقاد أهل السنّة وأبو بكر محمد بن أحمد بن الفضل النحوي في العروس في الزهد، وروى أهل البيت عن الأصبغ بن نباتة وغيرهم عن الباقر عليه السلام (نور الثقلين ٥: ٤٧١ عن المناقب لابن شهرآشوب).

٢ - ومن أصول الإطعام أن يحل محله الأحرى والأحوج، ولا أحوج من: مسكين أسكنه العدم عن الحراك في حاجيات الحياة، ويتيم انقطع عمن يُصلح شأنه وهو قاصر عما يصلحه، وأسير: سجين أو ملك يمين: هؤلاء المحاويج الذين لا يجدون حيلة ولا سبيلاً، الذين طرقوا باب الرحمة سائلين، فآثرهم أهل بيت الرحمة على أنفسهم وقد كانت بهم خصاصة!

هنا تظهر مدنية هذه الآيات[١] لمكان الأسير بين السائلين، ولم يكن المؤمنون في مكة في حربٍ حتى يأسروا، ولا في قوة حتى يجسروا أن يأسروا المشركين، وإنما كانوا هم في أسرهم وحصرهم حتى اضطروا

---

(١) لقد روى نزول هذه الآيات في المدينة فيمن رواه: السيوطي في الإتقان عن البيهقي في دلائل النبوة عن عكرمة والحسين بن أبي الحسن، وعن الضريس في فضائل القرآن بإسناده عن عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه عن ابن عباس، وعن البيهقي في الدلائل عن مجاهد، وجلال الدين السيوطي في الدر المنثور بإسناده عن ابن عباس، وأبو حمزة الثمالي في تفسيره، والطبرسي عن السيد أبو الحمد مهدي بن نزار الحسيني القايني بإسناده عن ابن عباس، والأستاذ أحمد الزاهد عنه.
والقصة حسب نقل البحراني في غاية المرام عن أبي المؤيد الموفق بن أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين عليه السلام والحمويني في كتاب فرائد السمطين وعن الثعلبي والواحدي في تفسيرهما، وفي الكشاف: (أن الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ناس معه فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك، فنذر علي وفاطمة وفضةً جارية لهما إن برئا مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام فشفيا وما معهم شيء.
فاستقرض علي من شمعون الخيبري اليهودي ثلاث أصوع من شعير فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد! مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه، ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك فلما أصبحوا أخذ علي بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشد ما يسوؤني ما أرى بكم فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها فساءه ذلك فنزل جبرائيل وقال: خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة.

للهجرة إلى المدينة، ومن ثم قويت شوكة الإسلام وبدأت دولته، فكان أسير وحصير بأيديهم من جراء حروبهم مع المشركين، وكان الأسير منهم[١] لا من المسلمين إذ لا يعهد أسر المسلم إسلامياً، اللهم إلا الكتابي ولم يكن منهم أسير وقتذاك.

فهنيئاً لآل بيت الرسالة المحمدية إذ تنزل السورة بشأنهم، كما قال جبرائيل: «خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك، فأقرأه السورة» مهما شملت من حذا حذوهم ونحا نحوهم.

وهنا يبرز الحنان الإسلامي بشأن بني الإنسان كافة، وأسارى الحرب، المشركين، فلا يرضى أن يظلوا جياعاً، ولا يأسرهم إلا عن أخطارهم، وليتعرفوا إلى الإسلام في أسر المسلمين في دورهم وديارهم، علّهم يؤمنون أو يؤمَنون دون حبس وتعطيل عن الحياة إلا لضرورة، وسؤال الأسير هنا أقرب شاهد أنه لم يكن سجيناً مهما كان تحت الرقابة في بلد الإسلام، «وقد كان يؤتى الرسول ﷺ بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول: أحسن إليه فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه»[٢].

ويعم الأسير كلّ من هو في أسر الإنسان معنوياً أو مادياً، إلجاءً عليه، أو لجأ إليه، كـ«عيال الرجل، ينبغي له إذا زيد في النعمة أن يزيد أسرائه في السعة عليهم»[٣] وملك اليمين[٤]، والغريم كما عن الرسول ﷺ «غريمك

---

(١) الدر المنثور - أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه عن الحسن قال: كان الأسارى مشركين يوم نزلت هذه الآية ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الإنسان: ٨]. . .

(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ج ٢٩ ص ١٥٥ عن الحسن.

(٣) أصول الكافي بإسناده عن أبي الحسن عليه السلام قال: ينبغي للرجل أن يوسع على عياله لئلا يتمنوا موته وتلا هذه الآية ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ. . .﴾ [الإنسان: ٨] قال: الأسير. . وعن الرسول ﷺ: «اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم أعوان» (تفسير الرازي ج ٣٠ ص ٢٤٥).

(٤) تفسير الرازي ج ٣٠ ص ٢٤٥ روي مرفوعاً من طريق الخدري عن النبي ﷺ في الآية قال: مسكيناً، فقيراً، ويتيماً: لا أب له، وأسيراً: المملوك المسجون.

أسيرك فأحسن إلى أسيرك»[١] هذا وكذلك - بالأحرى - كل من تعوله علمياً وعقائدياً.

كما وأن المسكين واليتيم يعمان المسكنة واليتم معنوياً كما يعمان المادي سواء.

٣ - ومن أصول الإطعام أن يكون لوجه الله دون مَنٍّ ولا أذًى ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ...﴾ دون سائر الوجوه المادية والمعنوية: جزاءً أو شكوراً، رحمة فائقة فائضة من قلوب رفيقة ندية على من لا يرجى خيرهم، وإنما ابتغاء مرضاة الله ورجاء رحمة الله، متجردة عن البواعث الأرضية، إلى باعث سماوي فقط هو وجه الله: مرضاته، لا ذاته ولا وجه الذات، إذ لا وجه له كما لنا.

وهذه التجردية هي حجر الأساس في بناية الإنفاق على المحاويج، وفي سبل الخير: الفردية والجماعية، تضامنة اجتماعية عريقة على أساس التقوى وروح الحنان لبني الإنسان عامة، وللصالحين خاصة، تهذيباً لأرواح الباذلين ورفعها إلى مستوى رفيع، وحفاظاً على كرامة وسيادة المبذول لهم، وتعميماً للبذل.

ولو كان البذل محصوراً في حصار التجارات: جزاءً أو شكوراً، أصبح الكثير من ذوي الحاجة محرومين، ولو كان مقروناً بمنٍّ أو أذًى انقلب عاراً في أنفس المحتاجين، ولكنه اشترط في الإنفاق أن يكون مما نحب وبطريقة حبيبة بعيدة عن المنّ وعن بغيةِ الجزاء والشكور، وعن لمحات توحي بوهن ومهانة للمعطى، واستعظام للمعطي، ولكي يصبح الإنفاق كأنه من يد الله دون وسيط، ويا له إنفاقاً عزيزاً رفيقاً يصاحب حيوية العاطفة ويحافظ على حساسية القلوب.

---

(١) تفسير روح المعاني للآلوسي ج ٢٩ ص ١٥٦.

وهل إنهم خاطبوا مسكيناً ويتيماً وأسيراً هكذا: إنما نطعمكم.. قولةً في آذانهم؟ ولا نلمس هنا نقل قول: «قالوا إنما»... ولا أن في قول اللسان رجحان، وقد يكون نقصاناً من روحانية الإطعام وإخلاصه فو«الله ما قالوا هذا لهم ولكنهم أضمروه في أنفسهم فأخبر الله بإضمارهم، يقولون: لا نريد جزاءً تكافوننا به، ولا شكوراً تثنون علينا به، ولكنا إنما أطعمناكم لوجه الله وطلب ثوابه»[1]: ومن أثوب ثوابه معرفته ومرضاته وهذه عبادة الأحرار!. فليست إذاً قولة في الآذان، وإنما قالوا في أنفسهم قولاً بليغاً، فإطعام الطعام هكذا - مع ما تصحبه من ملابسات - تنفي الرئاء وسائر وجوه النية السيئة، وإنه تعبير عبير في أنفس المحاويج عن ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ...﴾ دون قولة باللسان، فالتلميح أبلغ من التصريح: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾: لا مكافأة ولا إظهاراً بثناء جميل، أو تلميحاً للناس أن ذلك من فلان وفلان، فإن شكر النعمة وشكورها هو إظهارها قلباً أو لساناً أو عملاً، فـ ﴿إِنَّمَا﴾ هناك تنفي كل غاية من هذا الإطعام إلا وجه الله، لا واقع الجزاء والشكور فهم رافضوه، ولا إرادته أو نيته فهم مترفعون عنها، وإنما إرادة وجه الله لا سواه.

فهل لا يريدون من الله أيضاً جزاءً كما لا يريدون منهم؟ تلمح ﴿إِنَّمَا...﴾ أنهم لا يطعمون جزاءً ولا من الله، فإنها عبادة الأجراء! ولا تحرزاً عن عذاب الله فإنها عبادة العبيد! وإنما يعبدونه لأنه الله، ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ وإنها عبادة الأحرار، فهؤلاء الأبرار هم أبر الأحرار، ولا تعني ﴿مِنكُمْ﴾ نفي ترقب الجزاء والشكور منهم فقط، وإنما كأقرب الجزاء المترقب، و«إنما» المسبقة تحصره في وجه الله، اللهم إلا أن يكون ترقُّبه من الله بأمر الله ولوجهه، لا أجراً منه، ثم وليس خوفهم يوماً عبوساً قمطريراً إلا خوف البعد

---

(١) أمالي الصدوق عن الصادقين عليهما السلام في حديث طويل عن القصة.

عن زلفاه ومعرفته ورضاه، وإنما هي جنة الرضوان يعملون لها، ونيران البعد يتحذرون عنها:

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾:

﴿نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ خوفاً من ربوبيته لعدله، الظاهر ﴿يَوْمًا عَبُوسًا﴾: قاطباً وجهه معبّساً «يقبض ما بين الأبصار»[1] يُستدل بعبْسه وقُطوبه على إرصاده بالمكروه وعزمه على إيقاع الأمر المخوف ﴿قَمْطَرِيرًا﴾: شديداً ضره، طويلاً شره، وهذا اليوم نفسه متطلق مستبشر لمن يخافون ربهم فيحسبون حسابه حياتهم، فالطّلق والعبس ليوم الحساب، كلّ بحساب كيفية الحساب، دون أن يحمل اليوم بذاته أياً منهما إلا ميزان الحق والعدل.

فـ «الكافر يعبس يومئذٍ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران»[2] والمؤمن يُلَقّى نضرة وسروراً:

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾:

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ﴾ بما وقوا أنفسهم يوم الدنيا واتقوا ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ وعبسه وقطوبه ﴿وَلَقَّاهُمْ﴾: استقبلهم ﴿نَضْرَةً﴾ في وجوههم ﴿وَسُرُورًا﴾ في قلوبهم[3] تلقية لكيانهم ككلٍّ إعلاناً وإسراراً كما كانوا يوم الدنيا ناضري الوجوه وطاهري القلوب.

﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾:

طرف من نعيم الجنة إيجاباً وسلباً جزاءً بما صبروا في الله على الحرمان من نعيم الدنيا، وعلى طاعة الله، وعن معصية الله.

---

(١) الدر المنثور ٦: ٢٩٩ - أخرجه ابن مردويه عن أنس عن النبي ﷺ في الآية.
(٢) تفسير روح البيان ١٠: ٢٦٧ كما روي أن الكافر...
(٣) أمالي الصدوق عن الصادقين عليهما السلام (نور الثقلين ٥: ٤٨٠).

فبعد أن سبق شرابهم من كأس الكافور، هنا يجمل في ذكر مكانهم وأكلهم بـ ﴿جَنَّةً﴾ ثم تختص الحرير من لباسهم، فإن ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[١] أنعم لباس وألينه وأحسنه، فهذه نعم إيجابية.

ثم سلبية هي عدم رؤية شمس ولا زمهرير، فهم في حياة مريحة مطمئنة ناعمة معتدلة دون أن يلمسوا شمساً لاهبة ساخنة ولا برداً قارساً، عوان بين ذلك سجسج لا قرّ فيها ولا حرّ.

تُرى إن الأبرار لا يرون فيها شمساً لأنها كورت عند قيامتها فلا شمس هناك؟ ولا زمهريراً لأنها لا تكون؟ إذاً فليست هذه نعمة يختصون بها عن أهل النار، إذ هم يشاركونهم في عدم الرؤية هذه وتلك!

أو إن في سماء القيامة شمس غير هذه المكوّرة، فقد ترجع هي شمساً أو غيرها من غازات فتصبح شمس الآخرة أو شموسها، كما أن هناك زمهريراً: برد قارس شديد، فزبائن الشمس ونورها للنافذ هي على أهل النار عذاب فوق العذاب، وأهل الجنة لا يرونها، إذ تجنّهم أشجارُها عن نورها، وجوُّها عن نارها، كما أن زمهرير على أهل النار عذاب فوق العذاب، فأهل الجنة لا يرون بردها وقرّها، إذ تبعد عن أولاء وتقرب من هؤلاء، فالأبرار في جنة عادلة معتدلة عوان، في دلال وظلال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾[٢] ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾[٣] ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[٤].

ولا معنى لظل ولا ظلال، إذ لا شمس تشرق وتحرق، فالظل دليل الشمس كما الشمس دليل الظل ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ... ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾[٥].

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٣.
(٢) سورة المرسلات، الآية: ٤١.
(٣) سورة النساء، الآية: ٥٧.
(٤) سورة الواقعة، الآية: ٣٠.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٤٥.

وعلى أن زمهرير العذاب لأهل النار كلهم مع النار؟ لا دليل على الشمول! فإنها الآية الفريدة في ذكرها سلباً عن الأبرار، لا إيجاباً على كل أهل النار!

أو أن المعذبين بزمهرير لا يعذبون بالنار؟ تنافيه الآيات في شمول النار لغير الأبرار! إذاً فهما في الجحيم متقاربان وكما في المروي عن الرسول ﷺ [(١)].

ومن ثم إذا اختصت زمهرير ببعض أهل النار أو شملتهم، فكيف يُجمع بين هذين المتناحرين المتنافرين، وكلٌّ يخفّف الآخر ويفنيه!

هذا الواقع الخطير من عذاب النار الزمهرير، يجاوبه واقع النار في الشجر الأخضر: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[(٢)] ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾[(٣)] وآية غرق آل فرعون في الماء والنار: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾[(٤)] ناراً برزخية أدخلوها وهم غرقى الماء[(٥)] وتجاوبه أولاً وأخيراً القدرة الإلهية النافذة في كل شيء، أن يجعل المنافرين يساعد بعضهما بعضاً جنباً بجنب!

---

(١) الدر المنثور ٦: ٣٠٠ - أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي وابن مردويه من طرق عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: اشتكت النار إلى ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضاً فجعل لها نفسين نفساً في الشتاء ونفساً في الصيف فشدة ما تجدونه من البرد من زمهريرها وشدة ما تجدونه في الصيف من الحر من سمومها. وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن قال ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: . . . وفيه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في حديث: وإذا كان يوم شديد البرد. . قال العبد: لا إله إلا الله ما أشد برد هذا اليوم اللهم أجرني من زمهرير جهنم، قال الله لجهنم، إن عبداً من عبيدي استجارني من زمهريرك وإني أشهد أني قد أجرته، فقالوا: وما زمهرير؟ قال كعب: بيت يلقى فيه الكافر فيتميز من شدة بردها بعضه من بعض.

(٢) سورة يس، الآية: ٨٠.

(٣) سورة الواقعة، الآيتان: ٧١، ٧٢

(٤) سورة نوح، الآية: ٢٥.

(٥) راجع تفسير الآية في سورة نوح.

ثم الرؤية المنفية في الشمس والزمهرير، ليست هي رؤية البصر فحسب، وإنما رؤية الإدراك المزعجة: لمسة الحرارة والبرودة، وإبصار عين الشمس ونورها الضارية، وأما إبصار الزمهرير، ومن بعيد، فلا عذاب فيه، كما لا عذاب في رؤية النار لأهل الجنة، بل رحمة فوق رحمة أن يروا أعداء الله كيف يعذبون! كما تجاويها آيات الترائي والحوار بين أهل الجنة والنار.

وكما تبعد عنهم الشمس والزمهرير، كذلك تدنو منهم ظلال الجنة عن الشمس:

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾:

ودانية عليهم ظلال الجنة بما تجنهم من شجراتها وقصورها، والقطوف جمع قطف: المقطوفة المجتناة، وهي عناقيد الأعناب وأشباهها، ذللت لهم: جعلت قريبة من أيديهم، غير ممتنعة على مجتنيها، لا يحتاجون إلى معاناة في اجتنائها، ولا مشقة في اهتصار أفنانها، كالظهر الذلول يوافق صاحبه، ويؤاتي راكبه، راحة لهم مرهفة وضيئة، غير شماس مستصعبة، فـ «من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذي يشتهيه من الثمار بفيه وهو متكئ»[(١)].

والتذليل هنا من الذِّل: ضد الصعوبة - كالأرض المذلول - لا الذُّل: ضد العز والحمية، حيث الجنة عزٌّ بحذافيرها، بنعيمها وأهليها.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾:

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾: والطائفون ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾[(٢)] ﴿بِآنِيَةٍ﴾: كؤوس ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ ويا لفضة الجنة من صفاء وجلاء! ﴿وَأَكْوَابٍ﴾: كوز وأقداح لا عروة لها

---

(١) روضة الكافي بإسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله سئل عن قول الله عز وجل: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤]: قال: . . . وفي آخره: وإن من الفاكهة ليقلن لولي الله: يا ولي الله كلني قبل أن تأكل هذه قبلي (نور الثقلين ٥ : ٤٨١).

(٢) سورة الواقعة، الآية: ١٧.

﴿كَانَتْ قَوَارِيرَاْ﴾ وليست قوارير زجاجية، وإنما ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ أصلها فضة، وقواريرنا هنا من الحصى، وإذا كانت قوارير الحصى الدنيا، لها جلاءها وصفاءها[١] فكيف إذاً قوارير فضة الأخرى، والفضة في الدنيا لا تصبح قوارير كيفما رقت ولطفت! فلو ضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم يُرَ الماء من ورائها. فنسبة قارورة الجنة إلى قارورة الدنيا هي نسبة فضتها إلى حصى الجنة وأدنى! ثم الأكواب هذه، الشفافة المتلألئة، التي تزيد شرابها صفاء كما تزيدها جلاء، إنها توضع في صحاف من ذهب: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ. . .﴾[٢] ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾: آنية وأكواباً وشراباً كما يشتهون، فمن لذة الماء والشراب أن يكون على قدر الريّ لا زائداً يُرفض، ولا ناقصاً ينقص.

فآنية الفضة، وأكوابها القوارير في صحاف الذهب، بطائفيهما الولدان المخلدين اللؤلؤ المنثور، تزيد الأبرار قراراً بين الظلال الوارفة، والقطوف الدانية والجو الرائع، ما لم تعهده الأرض، ولا تصوراً!.

وهل المشروب بآنية الفضة من قواريرها، هو الماء؟ أم خمر الجنة؟ علها هي[٣] حيث يذكر شراب الماء بعدها من ماء السلسبيل:

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾:

فللأبرار كأسان لشراب الماء، كأس الكافور وكأس الزنجبيل[٤] ﴿عَيْنًا

---

(١) المجمع ١٠: ٤١٠ عن الإمام الصادق عليه السلام في ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ١٦]: ينفذ البصر في فضة الجنة كما ينفذ في الزجاج.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٧١.

(٣) راجع ٣٠: ١: خمر الدنيا والآخرة، في ظل ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ [المطففين: ٢٥].

(٤) قال الدينوري (الزنجبيل نبت في أرض عمان وهو عروق تسري في الأرض وليس بشجرة، ومنه ما يحمل من بلاد الزنج والصين وهو الأجود وكانت العرب تحبه لأنه يوجب لذعاً في اللسان إذا مزج بالشراب فيتلذذون) أقول: «وزنجبيل الجنة يزيد لذة للشاربين كما يعلمها أهلها».

﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾[(١)] ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾[(٢)]: سهلاً لذيذاً حديد الجرية، غاية في السلامة وسهولة الانحدار في الحلق[(٣)] فـ «سل» عنها «سبيلاً»[(٤)] يوم الدنيا، أن تدخل في صنف الأبرار، فتشرب منها يوم الدين.

ومزاج الزنجبيل كمزاج الكافور هو كوقاية للكؤوس بما فيها من ماء الجنة وخمرها، وكما أن خمر الجنة وماءها جنة الخمور والمياه، كذلك زنجبيلها وكافورها.

وقد يذكر من عيون الجنة كنبعات أصلية لمياهها وأنهارها عيون عدة: هي الكوثر والسلسبيل والتي يشرب بها عباد الله والتسنيم، ونبعة الكوثر هي في جنة الرسول ﷺ ولها سواقي إلى بيوت النبيين والمقربين والصديقين والشهداء والصالحين.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ كخدام لمحاويجهم ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾: دائمون في طوافهم، وفيما هم عليه من البهاء والجمال وحسن الخدمة، كما هم في الجنة خالدون، خلوداً مثلثاً لا يعنى منه هنا الأخير، فإن أهل الجنة كلهم خالدون، دون اختصاص بـ ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾.

ومن حسن منظرهم: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ - وأنت أول من تراهم - ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾: حسباناً في النظر والبصر ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾: منشوراً بين أيدي أهل الجنة، مبذولاً لهم متوافراً، ورغم أن اللؤلؤ المنظوم له جماله، ولكنما المنثور أجمل

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٦.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ١٨.

(٣) لم تذكر سلسبيل إلا هنا، وقد يقال: إنها لم تسمع في غير القرآن إذ لا توجد إلا في الجنة، فليكن اسمها أيضاً خاصاً بها وكما يوحي له (تسمى) مما يختص هذا الاسم بهذه العين في الجنة.

(٤) تفسير الرازي ٣٠: ٢٥٠ وقد عزوا إلى علي بن أبي طالب عليه السلام أن معناه: سل سبيلاً إليها. (تفسير الفرقان - ج ٢٩ - م ٢١).

وأروع، للتشعشعات المتقابلة بينها، ولأنه تدل ألّا قيمة له وجاه أهل الجنة، فطالما للمنظوم حساب، فليس للمنثور المنشور حساب.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾:

نعيماً لأهل الجنة كلهم على درجات، وملكاً كبيراً لهم كلهم على درجات، وهو من أفضل النعيم إذ يرجع إلى حظوة الروح، ولا سيما نعيم القرب والرضوان من الله، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(١)، فالرسول هو ملك الملوك في الجنة بكل ما له من معنى عادل، وعلى حد قوله ﷺ: «أنا أوّلهم خروجاً إذا خرجوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا مستشفعهم إذا جاسوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا الكرامة، والمفاتيح بيدي، ولواء الحمد بيدي، وآدم ومن دونه تحت لوائي ولا فخر، يطوف عليهم ألف خادم كأنهم بيض مكنون، أو لؤلؤ منثور»(٢).

وإن النعيم العميم والملك الكبير في الجنة بعد العناء الطويل في الدنيا، هو من شؤون نزول الآية(٣)، ومن النعيم:

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾:

﴿عَالِيَهُمْ﴾: مكان تعلوهم على أرائكهم(٤) وتعلوهم على أبدانهم: لا

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

(٢) الدر المنثور ٦: ٣٠٠ - أخرج ابن مردويه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:

(٣) الدر المنثور ٦: ٣٠١ - أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال: دخل عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ وهو راقد على حصير من جريد قد أثر في جنبه فبكى عمر فقال: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت كسرى وملكه وقيصر وملكه وصاحب الجشة وملكه وأنت رسول الله على حصير من جريد، فقال ﷺ: (أما ترضى أن لهم الدنيا ولنا الآخرة فأنزل الله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾).

(٤) منصوب على الظرف كـ ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٢] لا الحالية فإن الحال =

يتكلفون في لبسها، وإنما تعلوهم الثياب فيلبسونها[١] ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾: ما رقّ من الحرير لهم شعاراً ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾: ما سمك منه لهم دثاراً فوق الشعار، وكلاهما خضر: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ...﴾[٢] ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾[٣] تقابلاً بينهم وفي ثيابهم ونِعمّاهما، ومن خواص الحرير - إضافة إلى ليونته ولطافته - أنه لا يجذب حرارة ولا برودة، وإنما يساير حرارة البدن والهواء لأنه حرير: حُرٌّ طليق عن التأثر والتأثير، والخضر أحسن الألوان وأنضرها وأطراها.

﴿وَحُلُّوٓا﴾: زُينوا ﴿أَسَاوِرَ﴾ جمع سِوار معرب: دِستِوَار، زينة الزَنَد، زيّنت بها زنادهم ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ ويا لها من صفاءٍ لبياضها، ومن ذهب ولؤلؤ: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[٤] أساور من أجملها: ذهباً وفضةً ولؤلوءًا.

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ فلماذا ﴿وَحُلُّوٓا﴾ و﴿وَسَقَىٰهُمْ﴾ كأمر مضى وهو يستقبلهم بعد الموت؟ علّه لأن تلك التحلية وذلك السقي، هما مما حلّوا به أنفسهم يوم الدنيا بلباس التقوى، وسقوا قلوبهم حب الله، فمستقبلهم إنما هو ابن ماضيهم، قد يعبّر عن سبب مضى، وقد يُؤتي بمسبَّب يأتي.

وكما كان شرابهم يوم الدنيا طهوراً: طاهراً في نفسه، مطهراً لهم عن سائر الأقذار، كذلك يتجلى يوم الدين شراباً طهوراً: يطهرهم عن سائر الأقذار وإن كان خمراً، فبين خمر الدنيا والآخرة بون الجنة والنار، فطالما

= لزامها التنكير، ولا كونه مفعولاً ل (رأيت) إذ يقتضى نصب ثياب كمفعول ثانٍ، ولا تصح قراءة الجزم إذ المدار على المتواترة الموجودة في المصاحف.

(١) مجمع البيان: وروي عن الصادق عليه السلام.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٣١.
(٣) سورة الدخان، الآية: ٥٣.
(٤) سورة فاطر، الآية: ٣٣.

خمر الدنيا تخمر عقل الإنسان وصحته، فخمر الآخرة تستره عما سوى الله:

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[١] ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾[٢] ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾[٣]: لا فيها صداع الرأس ولا فراغ العقل ونزفه[٤].

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾:

كان جزاءً فضلاً من الله، لا استحقاقاً عليه، جزاءً بما وعد وكتب على نفسه من فضل ورحمة، لولاه لم يكن استحقاق ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ يشكركم به الله: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[٥] ونفس هذا الشكر نعمة فوق النعم فإنه من جنة الرضوان ونعمته، يشكرنا ربنا أن عملنا من الصالحات لصالحنا: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾[٦].



(١) سورة محمد، الآية: ١٥.
(٢) سورة الصافات، الآية: ٤٧.
(٣) سورة الواقعة، الآية: ١٩.
(٤) راجع ج ٣٠ من هذا التفسير.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.
(٦) سورة النمل، الآية: ٤٠.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾:

تسلية أنيسة لخاطر الرسول الأقدس ﷺ الجريح من تهريجات المعارضين، سلواناً بمثلّث التنزيل للقرآن العظيم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا﴾ نزولاً في ظلال جمعية الصفات والأسماء الحسنى الإلهية «نا - نحن - نا» فيا له من قوة وروعة في التنزيل، ما له من مثيل بين كتابات السماء!.. لذلك فليصبر صاحب هذه الرسالة صبراً طويلاً لحكم ربه: صبراً يساير الحكم تثبيتاً وتنفيذاً، وصبراً يدافع عنه إذ يصدر أمر ربه بملاحقة المعارضين.

إنها ملابسات معركة مصيرية واحدة يخوضها كل صاحب دعوة في أي عصر ومصر، فليصبر صبراً جميلاً صارماً في وجه الطغاة دون انفلات عن الدعوة ولا فشل، لعلّ الله يُحدث بعد ذلك أمراً، ودون أن يطيع منهم آثماً

أو كفوراً، فهناك طرق لهم شتى من الإغراء والإطراء، والتهديد والإيذاء، ليلتقي بهم صاحب الدعوة في منتصف الطريق ويسايرهم مداهناً، ولكنه نقص في الدعوة ونقضٌ لها، فلتكن صارمة صابرة دون انزلاق عنها ولا قيد شعرة، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾:

إن العبء ثقيل، والطريق لتحقيق أمر الله طويل، فلا يكتفى فيه بزاد قليل، بل ذكراً لله تعالى بكرةً وأصيلاً، والسجود والتسبيح ليلاً طويلاً، اتصالاً دائباً بالمصدر الذي نزل عليك القول الثقيل، لتخف عليك أتعاب الدعوة ومشاغبها وعراقيلها.

والبكرة هي الصبح، والذكر الواجب فيها هي صلاة الصبح، والأصيل من الأصل هي قاعدة النهار وأصله في الطرف الأخير، والواجب فيه صلاة العصر، والسجدة المأمور بها ليلاً هي فريضة الليل: العشاءان أم إحداهما، والآية على أية حال لا تشمل الفرائض الخمس كلها، كآية هود: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[1] مما يدل على مكيتهما ونزولهما قبل فرض الخمس، وقد نوافيكم بالبحث الفصل حولها في طيات آياتها.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾:

إن الأئمة والكَفَرة يحبون الحياة العاجلة، حبّاً لا يُبقي لهم ولا يذر مجالاً أن يعملوا للآجلة، ليوم ثقيل بأوزارهم التي قدموها، فبدل أن يجعلوا هذا اليوم الأمام إمامهم: يذكرونه ويعملون له، إنهم يذرونه وراءهم ظهرياً كأنه لا يأتيهم، وإنما العاجلة أمامهم وإمامهم، يُبصرون إليه فيُعميهم، ولا يبصرون به

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.

ليبصّرهم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[(١)] غرقى في عاجلة الدنيا الخفيفة التي تمضي على أية حال، وغافلين عن الآجلة الثقيلة البعيدة المدى: ثقيلة بخلودها، ثقيلة بنتائجها، ثقيلة بحسابها، فيا لهم من غفوة وغفلة شملتهم وأعمتهم وجنّنتهم، حياةً صبيانية زهيدة حمقاء!

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾:

لفتة تذكر هؤلاء الغافلين المعتزين بقوتهم، المعتزمين التغافل طول حياتهم، تذكّرهم بمبتدئِهم ومنتهاهم: فقد صدروا بخلقهم وشدة أسرهم -: ربطهم الموثق، - صدروا من الخلاق الحكيم، أسراً وربطاً موثقاً بين الروح والجسم، وبين أجزاء كلٍّ منهما، وبينهما وبين العالم الخارجي، وبينهما وبين الله تعالى بما فطر الإنسان على معرفته، وسوف يبقى أسر الروح بجسمها إذ يتلاقيان يوم المعاد، فويل هذا الإنسان إذ يجعل نفسه في أسر الشهوات، ويفك أسره ووثاقه عن ربه!.

بدؤوا من الله وليسوا بمعجزيه، وإذا شاء بدّلهم أمثالهم[(٢)]: أمثالهم في المادة والصورة، كأن يفنيهم ويأتي بخلق جديد: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾[(٣)] ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾[(٤)].

أو أمثالهم في الصورة، والمادة نفس المادة، كما في قيامة الإحياء، فإن الأجساد لا تعاد بصورها الأوّلية وإنما بأمثالها في الصورة وأصولها في المادة، فالأجساد المعادة يوم المعاد هي هي بموادها وهي غيرها بصورها،

(١) سورة الروم، الآية: ٧.
(٢) بدّل يقتضي مفعولين، ذكر ثانيهما (أمثالهم) وحذف الأول (هم). بدلناهم أمثالهم.
(٣) سورة إبراهيم، الآيتان: ١٩، ٢٠.
(٤) سورة المعارج، الآيتان: ٤٠، ٤١.

طالما هي أمثالها: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾(١) ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(٢).

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا﴾ هم ﴿أَمْثَالَهُمْ﴾ في العاجلة بخلق جديد بدلَهم، وفي الآجلة بخلقهم مرة أخرى لتجزى كل نفس بما تسعى ﴿بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾: إلى مَن هم أحسن منهم، أو أبدانٍ أخلص وأخلد من أبدانهم كما في القيامة، وهذا الثاني مقصود من الآية قطعاً لمكان «إذا» الدالة على تحقق مدخولها لا محالة، طالما تشمل الأول ضمنياً.

﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾:

التذكرة حاصلة بالفعل، برحمة الله وحكمته، تذكرة بالغة كافية، ولكنما التذكر بها منوط بمشية الإنسان، فمن شاءه اتخذ إلى ربه سبيلاً كما يسعى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(٣) فالسبل إلى الله كثيرة، كلٌّ يسلك سبيلاً قدر سعيه، متذكراً بالتذكرة قَدَر وَعْيه، ولكنما المشية منّا غير كافية للوصول، فهي بحاجة إلى مشيئة الله، أن يشاء ما يشاءه العبد من خير فيوفقه له:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾:

هذا شرطُ الله لنا دائباً، أن لانشاء الاهتداء إلا أن يشاءه الله لنا بعدها، يشفع مشيئته بمشيئتنا نصراً من عنده، وتوفيقاً لنا لدَحْر ما لا نقدر عليه من عراقيل السير، فلولا توفيقه لم نقدر على ما نشاء. فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٤): في أن نعبدك لا سواك.

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٦٠، ٦١.
(٢) سورة ق، الآية: ١٥.
(٣) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٤) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بقصورنا ﴿حَكِيمًا﴾ في مشيئته، فلولا حكمته لم يشأ ما نشاء ووكلنا إلى أنفسنا، ولولا حكمته لشاء هُدانا شئنا أم أبينا فأصبحنا على سواء[١].

ولنا أن نعاكس المشيئتين: إن مشيئته المخاطبين هنا من مشيئة الله، لا يشاؤون إلا ما يشاء الله، فإنهم المعصومون المطهرون، مهابط وحي الله، وأمناء الله في مشيئته و«إن فعل أمناءه فعله»[٢]، فقد «جعل قلوب الأئمة مورداً لإرادته وإذا شاء شيئاً شاؤوه»[٣] والآية تتحملهما معاً، وهما متداخلان في المعصومين، فهم لا يشاؤون أمراً إلا أن يشاءه الله ويحققه، وليست لهم مشية إلا ما يرضاه الله، وأما غيرهم فليس لهم إلا المعنى الأول، وشاهداً على أن الآية تعنيه فيما تعنيه:

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾:

فإنه لا يدخل في رحمته إلا من يشاء الدخول في رحمته فيوفقه لها، فمشيئته للهداية هنا منوطة بمشيئة العباد، وأما الظالمون، الذين لا يشاؤون رحمته، فهو كذلك لا يشاء لهم الرحمة، وإنما ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ ختاماً في السورة كالمطلع تصويراً لنهاية الابتلاء، إذ خلق من نطفة أمشاج للابتلاء فجعل سميعاً بصيراً، وهدي السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾.

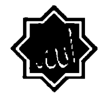
---

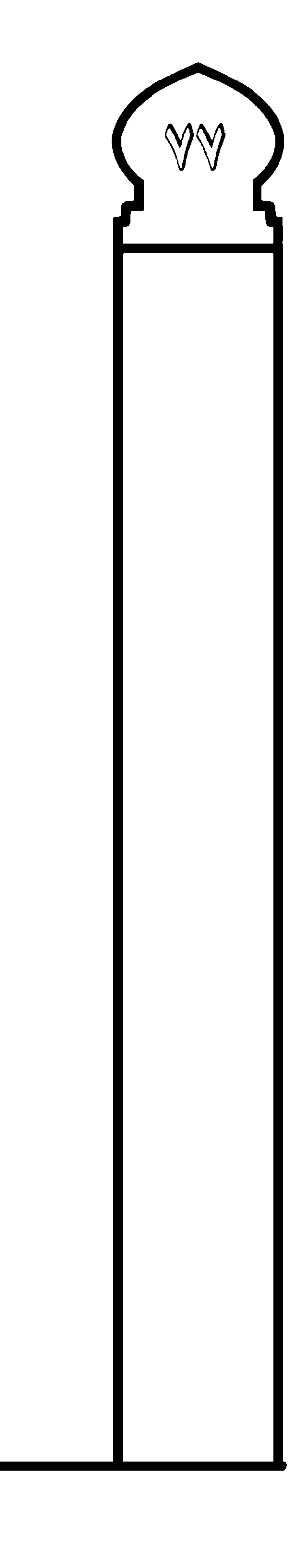
(١) راجع ج ٣٠ على ضوء الآية ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

(٢) الاحتجاج للطبرسي حديث طويل يقول فيه عليه السلام .. وفعل ملك الموت فعل الله، لأنه يتوفى الأنفس على يد من يشاء، ويعطي ويمنع ويثيب ويعاقب على يد من يشاء وإن فعل أمناؤه فعله كما قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

(٣) تفسير البرهان ٤: ٤١٦ عن الكافي عن أبي الحسن الثالث قال: .. ثم قال: وهو قوله: وما تشاؤون إلا أن يشاء الله.

هذا، وكما يعني أيضاً «من يشاءه الله» وهو - لا ريب - من شاء رحمة الله وسعى لها حتى شاء الله إدخاله فيها، فالمشيئة إذاً مزدوجة، بادئة من المرحومين إذ يعدّون لها عدتها بإذن الله، ومنتهية إلى الله إذ يدخلهم في رحمته، مشيئتين من الله، وواحدة من العبد.





سُورَةُ المُرسَلَاتِ



مكية - وآياتها خمسون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا (١) فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا (٢) وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا (٣) فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا (٤) فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا (٥) عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ (٧) فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ (٨) وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ (٩) وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ (١٠) وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ (١١) لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ (١٢) لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ (١٣) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ (١٤) وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ (١٥) أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ (١٧) كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ (١٨) وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ (١٩)﴾

﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا (١)﴾:

قسماً بالطاقات المرسلات من رب العالمين: مادية وروحية، ملائكية وبشرية وسواهما كرياح الرحمة[1]، آفاقية كهذه أو أنفسية كالفطَر والعقول،

---

(١) الدر المنثور ٦: ٣٠٣ - أخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: (الرياح ثمان أربع منها عذاب وأربع منها رحمة، فالعذاب منها العاصف والصرصر والعقيم والقاصف، والرحمة منها الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات، فيرسل الله المرسلات فتثير السحاب، ثم يرسل المبشرات فتلقح السحاب، ثم يرسل الذاريات فتحمل السحاب فتدر كما تدر اللقحة، ثم تمطر وهي اللواقح، ثم يرسل لنا الناشرات فتنشر ما أراد).

والعُرف هو المتتابع كعرف الفرس، والمرسلات الإلهية متتابعة كالآيات القرآنية النازلة تترى، والعرف هو المعروف من الإحسان: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾[1] وهذه المرسلات هي عرف بذواتها، عرف بطاقاتها، عرف في إرسالها، عرف في رسالاتها وغاياتها، أرسلت حال كونها عرفاً، وأرسلها الله عرفاً، ولغاية هي العرف: المعروف من الإحسان، رغم ما يبدّله الإنسان ويواجهه بغير إحسان[2].

فملائكة الوحي والحياة والموت والتدبير، من المرسلات عرفاً، كما النبيون أجمع، مرسلات روحية في الآفاق، وكما العقول والفِطَر مرسلات روحية في الأنفس: معروفاً من الإحسان متتابعاً.

كما وأن رياح الرحمة وأمطارها وأشباهها مرسلات مادية، فهذه المرسلات وتلك تُرسل عرفاً وتهدِف عرفاً وهي عرف في ذواتها وصفاتها، وكلها تشهد شهادات عينية وعلمية وعقلية ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾!

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾﴾:

توحي الفاء هنا أن العاصفات هي من المرسلات - وإن كانت بعدها عصفاً - فمنها عاصفات ومنها دون ذلك، والعصف هو شدة المرور، وهو الكسر، وهو المكسور من العلوفة كعصف مأكول.

فقسماً بالمرسلات العاصفات عصفاً، عرفاً أو سواه، فمن العاصفات عرفاً الملائكة النازلة بالرحمات سريعة كاسرة الموانع والعراقيل، وغير العرف منها هي النازلة بالنوازل والصعوبات، كما النبيون عرف للمصدقين، وعذاب على الكافرين، ومن الرياح عاصفات عرفاً كالتي تنشر السحاب

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٢) وعرفاً على ترتيب هذه المعاني: حال من المرسلات، حال للمرسل، مفعول لأجله من الإرسال.

وتثيرها، ومنها عاصفات نكراً كالصرصر والعقيم والقاصف، إذ تقصف بمرورها الشديد وتكسر وتُخسر.

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣﴾:

والنشر هو البسط، والإذاعة، والريح الطيبة، والتفريق، والنحت، والتعويذ، والهبوب، والإصابة، والإحياء، والنبت وإيراق الشجر: معانٍ عدة حسب عديد المتعلقات[١].

وقسماً بالطاقات الباسطات المذيعات أخبار السماء في أرجاء الكون حيث تبث رياحها الطيبة وتفرقها على أهليها، وتنحت بأخبارها ما يقبل النحت من قلوب صافية، وتصيب القلوب المقلوبة غير الصافية، وتهبّ كالرياح في الأجواء، والقلوب أوعية فخيرها أوعاها فتصيب كلًّا حسب وعيه، والتي تنشر الأجساد من الأجداث فإلى ربهم ينسلون.

﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤﴾:

فارقات من الناشرات، لمكان الفاء، الناشرات وحي السماء، الفارقات بين مصدقيه ومكذبيه، وبين الحق والباطل، والناشرات أرزاقَ الخلائق، الفارقاتِ بينهم حسب تقديراتهم، والناشرات أحياءً، فالفارقات بينها، ففريق في الجنة وفريق في السعير.

﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥﴾:

إنما يوصف وحي السماء بالذكر الملقى، بعدما يُنشر ويفرق بين الحق والباطل، والإلقاء هنا من النبيين، فإنهم هم رسل الخلق المذكرون لهم بوحي السماء.

(١) نشراً هذا مصدر ومفعول به أيضاً كما في الأحياء: الناشرات أحياء.

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾:

فلإلقاء الذكر أثره، عذراً عند الله فحجة على المنذَرين، أو نُذراً لهم به يُنذرون ويتأثرون[1]، فاشتراط التأثير نُذراً - فحسب - في وجوب البلاغ والأمر والنهي، شططٌ من القول وهُراءٌ، بل وعذراً أيضاً، كما هو لزام إلقاء الذكر دائباً، وعلى من لم يتذكر أيضاً، ونذراً أحياناً: لمن يتذكر، فالمعذرة إلى الربّ في أداء البلاغ لها المكانة الأولى في المنذِرين، لا يُعذرون في تركها بحال، فالله يُنجي من يأمر بالعرف وينهى عن السوء عذراً أو نذراً، ويأخذ الظالمين بعذاب بئيس، من فاعل للمنكر، وتارك للنهي عنه حتى عند عدم التأثير: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝١٦٤ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝١٦٥ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝١٦٦﴾[2] فإنها تصرح بنجاة الناهين عن السوء فقط، وبعذاب شامل تاركي النهي عن المنكر فيما لم يكن له تأثيرٌ، إلا معذرة إلى الربّ، طالما تشدد عذاب العاتين عما نهوا عنه: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[3]!

وهل إن هذه المقسم بها خمس كما يشهد له عديده؟ أم اثنان لأن الأصل المعطوف عليه فيها اثنان «والمرسلات... والناشرات» والثلاثة الباقيات متفرعات؟ أم واحد لوحدة المقسم لأجله، فلتكن متوحدة في رباطها به؟ لكلٍّ وجه، وهي متداخلات في صفاتها وغاياتها، وهي كلها دالات ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾.

---

(١) قد يكون عذراً أو نذراً، جمعين لعاذر ونذير، أو مصدرين بمعنى الإعذار والإنذار، وعلى الأول هما حالان للملقيات.

(٢) سورة الأعراف، الآيات: ١٦٤-١٦٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

فمرسلات العقول والفِطَر والفكر، ومعها مرسلات الرسالات الملائكية والبشرية، ومعها مرسلات الرياح وصلاً وفصلاً، وسائر المرسلات الفاصلة والواصلة، تدل دلالات عقلية وواقعية وحسية لإمكانية وضرورة وقوع الوعد الحق، وخسر هنالك المبطلون.

كما العاصفات من المرسلات تدل بشدة مرورها وكسرها ومكسورها أن موانع نشر الموتى سوف تذل لديها بما أراد الله.

وكذلك الأمر في الناشرات نشراً، فالفارقات فرقاً، فالملقيات ذكراً:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾[1] ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾[2] فويل للمكذبين بيوم الدين، رغم هذه الكثرة من الأدلة والبراهين.

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨﴾:

طَمْسُ النجوم هو محو آثارها، وذهاب ضوئها[3] وأنوارها، وإزالتها عن الجهات التي كان يُستدل بها، ويُهتدى بِسَمْتها، كالكتاب المطموس الذي أشكلت سطوره، واستعجمت حروفه.

يوم الطامة الكبرى تُطمس النجوم منكدرة، والكواكب منتثرة، كلآلي منظومة، ينخرط سلكها فتتفرّق، فتطمس عن كيانها كواكب ونجوماً وعلاماتٍ هاديةً ورجوماً، ذاهبة في الفضاء بدداً، كما تذهب الذرة التي تنفلت من عقالها.

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٥، ٦.
(٢) سورة الطور، الآية: ٧.
(٣) تفسير القمي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: فطمسها ذهاب ضوئها.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩﴾:

﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾[(١)] فالسماء غير ذات الفروج تصبح من ذوات الفروج، ولحد كأن كلها أبواب وفروج: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾[(٢)] فروجاً بزوال نجومها وبروجها، فإنها شغلت كثيراً من أجوائها، وفروجاً بانشقاقها وانكشاطها في كافة أرجائها[(٣)].

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠﴾:

قُلعت وأُزيلت بمتفجرات الزلزال الدكداك، وبالانفجارات الذرية وسواها آخذة مسيرها إلى الدمار والهلاك، تُنسف فلا يبقى إلا سرابٌ وقاعٌ صَفْصَفْ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ۝١٠٧﴾[(٤)] [(٥)].

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝١١﴾:

والتوقيت هو تقدير الوقت لوقوع الفعل، وتأجيله لأجله، فالرسل عند قيامة الإماتة تُؤقَّت، عند الصيحة التي تصعق من في السماوات والأرض إلا من شاء الله، وهم ممن شاء الله، لا يصعقون عن الحياة كلّ الحياة، مهما كانوا ميتين عن الحياة الدنيا، فهم في البرزخ أحياء، وإلى يوم يبعثون، لا يصعقهم الفزع الأكبر، فهم منه آمنون.

فالرسل تُؤقَّت تأجيلاً لقيامة الإحياء، لتحقيق الوعد الواقع الصادق وليُسألوا ماذا فعلوا وماذا أجيبوا، وسؤال المرسل إليهم ماذا أجابوا:

---

(١) سورة ق، الآية: ٦.
(٢) سورة النبأ، الآية: ١٩.
(٣) راجع سورة الانشقاق ج ٣٠ والانفطار ٣٠ والتكوير ٣٠.
(٤) سورة طه، الآيات: ١٠٥-١٠٧.
(٥) راجع سورة النبأ ج ٣٠.

﴿فَلَنَسْئَلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝﴾[١] ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[٢] ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٣] تساؤلات وتساؤلات وليشهدوا لهم أو عليهم، ولأنهم من أكرم الشهداء.

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝﴾:

إن التأقيت التأجيل هو ليوم الفصل: الفصل بين المختلفين، وبين المتصلين بالقرابات، وفصل الحق عن الباطل، والفصل عن الأعمال والآمال: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾[٤] للناس عامة، وللرسل بوجه خاص، وتوقيت لأجل معلوم.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝﴾:

إنك تدري ما هو، ولكنها بما أدراك ربك فلا سبيل لها إلا وحي السماء.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝﴾:

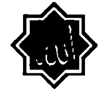
حذار وإنذار من العزيز الجبار، بويلٍ كل ويل للمكذبين بيوم الدين، وهم محضرون لمجلس القضاء يوم الفصل، ذلك لأن تكذيبهم كان ويلاً عقيدياً وعملياً.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۝ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝﴾:

إن ذلك الويل قد يهلكهم يوم الدنيا كما يهلكهم يوم الدين، فإهلاك

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٦، ٧.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٠٩.
(٣) سورة القصص، الآية: ٦٥.
(٤) سورة النبأ، الآية: ١٧.

المكذبين الأوّلين، ثم إتباعهم الآخرين، ذلك تحذير لهؤلاء الظالمين أن ليس الويل لهم مختصاً بيوم الدين، فحَذار حَذار أيها المكذبون، فإن مصارعكم تنكشف وأنتم حشود أقوياء، وعلى مدّ البصر تُرى المصارع والأشلاء لهؤلاء وهؤلاء، وأمامها وعيد الله ناطقاً بسنّة الله: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾.



﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ :

﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾[1] كما أن هذا المهين نفسه كان سلالة من طين: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ . . .﴾[2] . . وإنه تذكير بحالة

(١) سورة السجدة، الآية: ٨. (٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٢.

الإنسان المسبقة الهزيلة الرذيلة، النتنة المهينة، أن خلقه الله منها في أحسن تقويم، نعمة سابغة سابقة، وحجة بالغة على ناكري الألوهية.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾:

قرار الرحم وما أمكنه من قرار الحياة الجنينية، وقرار الأرض التي من طبعها القرار: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾(١) قراراً بكيانها وقراراً بحركاتها التي تفلتها من مداراتها لولا أن جعلها الله كفاتاً أحياءً وأمواتاً.

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾:

دون فوضى حتى في قدر القرارين: في الرحم وفي الأرض.

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

قدرنا لا فقط قدرناه أو قدرنا عليه أو قدرنا به وإنما قدرناه وعليه وبه والكل مقصود:

قدرناه: هيّأناه للتكامل الجنيني، أن قسمناه: الماءَ المهين، فأخذنا منه سلالة هي النطفة الجرثومية ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾(٢) واستخدمنا الباقي لتكملتها، فهذه النطفة الأمشاج تسير سيراً زهواً بطيئاً في البوق، ولا تنتهي منه إلى الرحم إلا بعد ثمانية أو عشرة أيام، تقوم خلالها بتقسيم نفسها تقسيماً بعد تقسيم، لكي تهيّىء كل قسم وتعدّه للدور الذي سيقوم به في تكوين الجنين الجديد، أو حفظه وحمايته، أو في تغذيته، فتصل البيضة النطفة إلى بيت الزوجية المهيأ لها، فتلتصق بجداره، وتبدأ خلايا الأقسام عملها العظيم بالتعاون مع بعضها أو مع خلايا جدار الرحم، فتجعل حول الجنين غلافاً فوق غلاف فوق غلاف: ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾(٣):

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٤.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٨.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٦.

و«قدرنا» عليه: قوينا عليه وتمكنا أن نخلقه ما نشاء كما نشاء، وضيقناه في مضيق الرحم حفاظاً عليه من كل صدام، وفي مضيق من الحياة الدنيا.

و«قدرنا» به: قسنا به سائر الخلق فجعلناه في أحسن تقويم ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[1] ودبرناه فصورناه: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ فيما قدرنا «ه» و«به» و«عليه».

وكما أن للإنسان قراراً مكيناً ركيناً في الأرحام، لا تنافيه تقلّبات الأمهات في مختلف الحركات، كذلك الله جعل له الأرض كفاتاً: قراراً مكيناً، رغم حركاتها الدائبة المتداخلة، تضم ما عليها في حضنها أحياءً وأمواتاً:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾:

هذا الاستفهام التقريري في مقام تعداد النعم السابقة يوحي بأن كفات الأرض نعمة غالية فيها، تُشابه قرار الرحم المكين، لولاه لم تُمكنْ أو لم تسغُ للإنسان حياة، كما أن لقرار الرحم دورَه الهامّ في بداية المطاف، وهذه هي الحقيقة التي تساعدها اللغة والواقع، مهما تغافلت عنها قرون خلت، فتخيلت أن الأرض جامدة على قرني الثور أو ظهر الحوت[2]!

«الأرض الكفات»:

إن آية الكفات هذه تُظهر الأرض بمظهر الطير المسرعة في طيرانها،

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

(٢) إنها ليست على ظهر الحوت أو على قرني الثور، وإنما هي كسائر الكواكب تسبح في جو السماء، وحديث الثور مقطوع في أوله، يعني غير ما عنوه، فقد سأل أحد الزارعين الإمام الصادق عليه السلام: إن لي ثورين أزرع بهما الأرض، وأنا كبير أريد أن أبيعهما فأعيش في عزلة العبادة بثمنهما؟ قال عليه السلام: (لا تفعل فإن الأرض على قرني الثور) يعني زراعة الأرض في تلك الزمن، كما في زمننا على قرني التراكتور.

المتقبضة جناحيها، حيث الكفات هي «الإسراع في العدْو والطيران مع تقبُّض فيه»[(١)].

وأوفق الوجوه في «كفاتاً» أدبياً ومعنوياً: أنها مصدرٌ، مفعولاً ثانياً لـ «نجعل» فقد كانت أرضاً ولم تكن كفاتاً، لا أموات فيها ولا أحياء، فلا تقبُّض لها لا للأحياء ولا للأموات، إذ كانت مجنونة الحراك محترقة، لا تحنّ لعايش: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾[(٢)] [(٣)] فذلت بعد شماس، واعتدلت بعد ارتكاس.

كذلك الله جعلها كفاتاً: سريعة الطيران في جو السماء، شديدة التقبض حالته: أحياءً وأمواتاً، طائرة متقبضة كأنها الطيران نفسه، والتقبض نفسه، كما يوحي به المصدر «كفاتاً» نفسه.

وما أهمهما من أصلين أصيلين في كيان الأرض، طالما غفل عنهما ساكنوها عبر قرون خلت قبل القرآن، وقرون بعده، بين مستند إلى الحسّ، فمؤوِّلٍ لآيات حركات الأرض، وساكت عنها شاكٍّ فيها حتى فسرها العلم، فليس العلماء بعد القرآن هم الكاشفين عن حركاتها، ولا أن (كبرنيك ونيوتون) هما اللذان أبدياً نظرية القوة الجاذبية، رغم ما يزعمه الزاعمون[(٤)]. وإن للقرآن آيات متشابهات تفسرها الزمن.

---

(١) كما في لسان العرب وتاج العروس وغريب القرآن وأمثالها، ففي التاج عن الزهري: (كفت الطائر وغيره يكفت كفتا وكفاتاً ككتاب وكفيتاً كأمير وكفتاتاً): أسرع في الطيران، والكفتان من العدو والطيران كالحيوان في شده، ويقال: كفت الطائر إذا طار وتقبض فيه، والكفت في عدو ذي الحافر سرعة قبض اليد.
وفيه عن الصحاح: الكفت السوق الشديد، ورجل كفت وكفيت سريع دقيق، وفرس كفيت وقنيص وعدو كفيت أي: سريع، وكذلك في اللسان وغيره.

(٢) سورة الملك، الآية: ١٥.

(٣) راجع سورة الملك الجزء ٢٩ في تفسير آية الذلول.

(٤) مضت قرون والبشر تزعم الأرض جامدة على قرني الثور أو الحوت أم ماذا؟ وأول من تجرأ=

فأرضنا هذه محكومة بحركات عدة أنهاها العلماء إلى أربع عشرة[١]، وكما توحي بها: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾[٢]: حركات متداخلة يعبر عنها بالرَّجْفة، وقانون الفرار عن المركز يقتضي فرار ما عليها متناثرة إلى أعماق الأجواء، وكذلك تفسُّخ الأرض نفسها، ولكنها كفات تتقبض الأحياء والأموات، بقانون مكافح قانونَ الفرار، تبديلاً له بالقرار: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ

= على خلاف هذا المحسوس! (فيثاغورث الحكيم ٥ ق م) ثم تبعه (فلوترجوس وأرشميدس) ثم أيدها بعد قرنين (آرسترجوس) وأبدى نظرية حركة الأرض حول الشمس، ولذلك كفروه، وبعد نصف قرن أوضح (كليانتوس) أن الأرض محكومة بحركتين الوضعية والانتقالية، فألحقوه بزملائه الكفرة، وبعد قليل قام (بطلميوس) ضد هذه البدعة! ولذلك سمي بعلامة القرون ومحيي العلوم.

إن الهيئة البطلميوسية أخذت من الشهرة والاعتماد مبلغاً وافقها جماعة من المسلمين كأنها وحي السماء، فأولوا آيات وروايات تدل على حركات الأرض، كأن كتاب بطلميوس هو كتاب الوحي الأصيل، يحق تأويل القرآن لأجل الحفاظ عليه! طالما النبهاء منهم كانوا بين مخالف أو ساكت.

ثم بعد الألف من الهجرة أخذ (غاليلة) يبحث بصراحة عن حركتي الأرض، ولذلك سجن وأحرقت كتبه في المجتمع الأوروبي، ولقد كان القرآن أصدق شاهد على هذه النظرية المسجونة المهانة.

إن القوة الجاذبية التي توحي بها آيات بينات، ليست هي القوة المغناطيسية، إنما هي قوة مرموزة تستفيد منها كافة الجاذبات في الكون، ولو أن أرضنا ما كانت كفاتاً أحياءً وأمواتاً، فلم تملك القوة الجاذبية، لم يكن لها قرار عليها، ولا إمكانية التنفس فيها، فمن فضل هذه القوة ترى الكواكب السيارة تسير حول مداراتها الخاصة دون انفلات عنها كأنها تسير على جادة حديدية ثابتة.

هذه القوة توجد في أبعد الكواكب والمجرات التي تسير في مسايرها كل ثانية مئات الأميال، الأرض تسير حول فلكها كل ساعة مائة ألف كيلومتراً، ولا يستطيع أي إنسان مواجهة الرياح بهكذا سرعة، ورغم ذلك يعيش على هذه السفينة الفضائية في كمال الطمأنينة والارتياح، وحسه ينكر حراكها.

(١) كما عن (فلا ماريون) و(فيلكس) قبله كان يقول بإحدى عشر حركة، وبالإمكان أن تستكشف حركات لها أخرى في المستقبل.

(٢) راجع ج ٣٠ حول آية الراجفة.

لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾[١]، وهو الجاذبية العمومية التي اعتبرت كجناحين لهذه الطائرة العجيبة: «كفاتاً. أحياءً وأمواتاً»: تقبض على ظهرها ما عليها، بهذه الأجنحة غير المرئية: «الجاذبية» وكما أن السماء بكواكبها مرفوعة بها: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[٢] فثمَّ عَمدٌ ولكن لا ترونها[٣] وهي أو منها: الجاذبية العمومية التي تقبض بها الأرض الكفاتُ الأحياءَ والأموات.

كما وأن الرواسي الشامخات عدّلت حركاتها ومنعتها عن التهافت والانفراج: «وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها.. فسكنت من المَيَدان برسوب الجبال في قطع أديمها» «فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحملها أو تزول عن مواضعها»[٤].

ولقد تُجاوب آيةَ الكفات آياتٌ أخرى بيّنات في حركات الأرض، تتجلى لكم في طيات الكتاب، كآية المهد والمهاد والقرار والذلول ويسبحون[٥] فإنها تتجاوب في أن كرتنا الأرضية طائرة قوية، وسفينة جوية، تسبح في البحر المحيط كبحّارة دائبة الحراك والمَيَدان، مهداً لأطفالها، ومهاداً للحياة عليها، وذلولاً لركّابها دون شماس وشراس وانطماس، وإنما حنونة رؤوفة لا يحس أولادها بحركاتها السريعة لحد نكرانها، فيا لها من أمان رغم المَيَدان!

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٤.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢.
(٣) كما عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام.
(٤) نهج البلاغة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام وعن الإمام الصادق عليه السلام: (إن حركات الأرض وسكانها من جملة أدلة حدوث العالم) (الاحتجاج للطبرسي).
(٥) وهي على الترتيب ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣] ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ: ٦-٧] ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [المُلك: ١٥] ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ ... وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى ... وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ ... وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٣-٤٠].

﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾:

علّ الأحياء هنا تشمل أصول الحياة كالأوكسيجين، فَكُرة الفضاء المحيطة بسفينتنا الأرضية، تشعُّ عنها قرابة مائة كيلومتراً، وهي مركبة من أوكسيجين وأزوت وأرجون، وكافة نباتات الأرض وحيوانها وإنسانها بحاجة حيوية إلى هذه الكرة التي تعتبر حياتاً للأرض وما عليها.

ففي حالة نقصان الأوكسيجين أو فقدانها لا واقع للحياة على وجه الأرض، فإنها مادة ضرورية للتنفس أولاً، ولتركيب الماء منها ثانياً وقد جعل منه كل شيء حيّ، فالأوكسيجين بأصلها وتراكيبها هي أصل الحياة، لا للنبات والحيوان والإنسان فحسب، بل لمثل النار كذلك فإنها تخمد لو لم تستمد بأوكسيجين الفضاء.

فلو لم تكن الأرض كفاتاً، تتقبض بالجاذبية كرةَ الأوكسيجين، لتكافح قانون الفرار عن المركز وخفة الأوكسيجين، في فرارها وانهيارها عن الكرة الأرضية، لماتت الأرض وما عليها!

ومن جهة أخرى: إن كرة الفضاء الحائلة حول الأرض التي قطرها ثمانمائة كيلومتراً، إنها تعتبر مدرّعة مجنزره تحافظ على الأرض من عشرين مليوناً من الأحجار السماوية التي تقصدها بسرعة ٥٠ كيلومتراً في كل ثانية - يومياً، فلو لم تكن الأرض كفاتاً لانصدمت بهذه النيازك النارية والقاذفات الجوية، فتدكدكت.

إن هذا الجو المدرع - إضافة إلى هذه المكافحة الخارجية - يعدّل درجة الحرارة على سطح الأرض، وينقل الذخائر اللازمة من الماء وبخاره، من البحار إلى البراري والقفار، فلو لم تكن الأرض كفاتاً لأصبحت القارات كلها قاحلة يابسة.

ثم بقية الأحياء من حيوان وإنسان، تعيش على طمأنينة تامة، وتمشي

على مناكبها، فلولا جاذبية الأرض الكفات، لانفلتت إلى أعماق الأجواء، ولولا كفات الحركات المنتظمة المعدّلة لاستحالت عليها الحياة في الحركات الراجفة، ولكنها كفات ويا لها من بركات!

ومن ثمَّ الأموات التي لا مُسكة لها في قرارها على وجه الأرض، فلولا كفات الأرض لانفلتت إلى غيرها، فيا لها من كفات كافية للحفاظ على الأحياء والأموات!

ومن أهم ما يحافظ على طمأنينة الأرض وما عليها، لحدّ لا تُحسّ حركاتها، أنها تتحرك مع كرة الفضاء المحيطة بها فلا يُحسّ حراكها، كمن يقفز في طائرة، فإنه يرجع إلى مكانه الأول لأن الطائرة تطير بفضائها، خلاف ما إذا لم تكن مسقفة، إذ لا تطير بفضائها، كذلك الأرض تطير بكرة الفضاء، المدرّعة حولها، فلذلك لا تبدو حركاتها لركابها.

هذا هو المعنى الشامل لكفات الأحياء والأموات، وقد يشمل قبور الأموات وبيوت الأحياء دون اختصاص بهما، فإنهما ليسا من ضمنيات جعل الأرض، وإنما من فعل المخلوقين، والآية في مقام الامتنان بما خلق الله، لا بما فعل الناس[١].

فيا لكفات الأرض من بركات في جاذبيتها وحركاتها، للأحياء وللأموات! ويا لرواسيها الشامخات ومياهها الفرات من خيرات، لولاها لم تكن لأهلها حياة، سبحان الخلاق العظيم!

---

(١) القمي: نظر أمير المؤمنين عليه السلام في رجوعه من صفين إلى المقابر فقال: هذه كفات الأموات أي مساكنهم، ثم نظر إلى بيوت الكوفة فقال: هذه كفات الأحياء ثم تلا قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦]. وفي معاني الأخبار للصدوق مثله عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام). (نور الثقلين ٥: ٤٨٩) أقول: وهذا من باب الجري والتطبيق لا التفسير، وإنما بياناً كما كان يفهمه الناس في تلك الزمن، ولقد فسر العلم كفات الأرض كما تصدقه اللغة أيضاً.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٤)﴾:

﴿انطَلِقُوا﴾: تخلّوا وتحلّلوا من وَثاق التكذيب وأسره، إلى حرية التصديق: بما كنتم به تكذبون، في تأنيب مرير وإيلام عسير، ﴿انطَلِقُوا﴾: متجللين عن رهانة ثالوث التكذيب: بالله ورسوله واليوم الآخر، بثالوث ترك التصديق والإقرار والعمل إلى ثالوث العذاب: ﴿ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾: سرادقات ثلاث تحيط بكم: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾[1] ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾[2] انطلقوا إلى ظلّ ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ رغم أن من فوائد الظل أنه ظليل عن وهج النور والنار، وأنه يغني من لهب النار، ولكنه ظل حار لافح خانق، أشد حروراً من النار: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾[3] يزيد أهلها تغلغلاً في زبانيتها وشرَرها القصر، وأنه ظلّ نارها بدخانها دون نور، ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾: كما أنهم طول حياتهم الشريرة النكدة كانوا يرمون بشرر من قصورهم، كذلك ثالوث ظلهم في النار ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣)﴾: جمالة صفر ترتع هنا وهناك، وتحرق القصر بأصحابه..

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥)﴾:

﴿لَا يَنطِقُونَ﴾: لا هم ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[4] أجل - وفيم ينطقون؟، فهل في تخليص أنفسهم عن رهانة العذاب بعد ثبوته

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الزمر، الآية: ١٦.
(٣) سورة الواقعة، الآية: ٤٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧٧.

عدلاً؟ ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾[١] فهم في البداية محكومون دون حاجة إلى استئناف وتمييز، إذ لا يخفى على الحاكم هناك أمر عن إضبارات المحكوم عليهم، ولا هو جائر فيميل عن العدل فيهم.

أم ينطقون بالاعتذار وقد مضى حينه وحان حين الجزاء الوفاق وإنما الاعتذار لمن كان له عذر والله أجلّ وأعدل وأعظم من أن يكون لعبده عذر ولا يدعه يعتذر به، ولكنه فلج فلم يكن له عذر[٢]: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣] ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[٤]. فلا كلام هناك إلا بإذن الرحمن إذا كان صواباً: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[٥] فالكلام المأذون مقيد بالصواب، كما الصواب أيضاً مقيد بالإذن، فهل يتأتى صواب من أهل النار حتى يؤتوا إذناً في الكلام؟! كلّا! وإن الهول هناك يكمن في الصمت الرهيب، والكبت الرعيب، الذي لا يتخلله كلام، ولا يقطعه اعتذار، فلا يؤذن لهم حتى في الاعتذار ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ إذ حجبوا عن رحمة الله وعن خطابه، بعداً في بُعد، ظلمات بعضها فوق بعض!

وإنما لا ينطقون بما ينفعهم، وقد ينطقون بما يضرهم ويخجلهم: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[٦] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[٧] ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾[٨].

---

(١) سورة النمل، الآية: ٨٥.
(٢) روضة الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية قال: . . .
(٣) سورة التحريم، الآية: ٧. (٤) سورة التوبة، الآية: ٦٦.
(٥) سورة النبأ، الآية: ٣٨.
(٦) سورة الزخرف، الآية: ٧٧.
(٧) سورة السجدة، الآية: ١٢.
(٨) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٠٧، ١٠٨.

﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٨ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ۝٣٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٤٠﴾:

﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ﴾: فصل القضاء، فلا رجوع بالاعتذار، وفصل الحق عن الباطل فلا اعتراض ﴿جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فـ ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾(1) ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ﴾ حيلةٌ للفرار أو الاستعفاء والاعتذار ﴿فَكِيدُونِ﴾ كلّا وإنما هو الصمت الكظيم في ذلك اليوم العظيم على العذاب الأليم ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٤٢ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٤٤﴾:

إنهم ﴿فِي ظِلَٰلٖ﴾: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾(2) ظلال ظليلة تعاكس ظلال المكذبين، ظلال عن نور الشمس بما تجنهم من أشجار، كذلك وهم في ظلال السابقين والمقربين.

﴿وَعُيُونٖ﴾ تحت هذه الظلال، بكل جلال ودلال ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ وهذه النعم الناعمة للمتقين ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ ويلٌ على ويلهم!

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٤٥ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ۝٤٦ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٤٧﴾:

ويلهم إذ لا يتمتعون إلا قليلاً، وكلٌّ فانٍ قليل، ولا سيما الذي يعقّب العذاب الوبيل، وهذه القلة المنقطعة بانقطاع الحياة الدنيا، ليست إلا ﴿إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾: قطعتم ثمرة الحياة واجتثثتم أصولها بالمغريات.

---

(1) سورة الدخان، الآية: ٤٠.

(2) سورة النساء، الآية: ٥٧.

فأنتم أجرمتم الأكل والمتعة: قطعاً لهما عن الخلود، وحصراً في الأولى الفانية القليلة: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(١).

فويلهم في هذه المتعة القليلة، إذ جنّدوا لها طاقاتهم الكثيرة وخسروها بها، ويلهم بعدها: أكلٌ ومتعةٌ قليلةٌ يتوسطان ويلين: فكلوا وتمتعوا قليلاً في الأولى، لتحرموا وتعذبوا طويلاً في الأخرى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾(٢) ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾(٣).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

هؤلاء الذين يركعون ويسجدون للشهوات الطائشة، والمحرمات الفاحشة، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟﴾ والقائل هو الرب المنعم، والركوع هو الخضوع لمن يربّيهم، شكراً لبعض النعم، وتركاً للفرعنة والاستبداد، دون أن ينتفع به المنعم.. مع كل ذلك ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ وإنما يمرحون في غفلة، ويلتهون في شهوة وغفوة كأن لا ربَّ ولا حساب ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾(٤): يأمرهم الرسول ﷺ عن الله بالصلاة فيقولون: لا ننحني، فإن ذلك سبّة علينا، فيقول ﷺ: لا خير في دين ليس فيه ركوع وسجود(٥).

لا يحنون ظهورهم لله مخافة المسبّة، ويحنونها لمن يستحمرهم في اللهو ولا مسبّة!

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٧.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٨.
(٤) سورة غافر، الآية: ٣٧.
(٥) المجمع عن مقاتل نزلت في ثقيف حين أمرهم الرسول بالصلاة...

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾(١) ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾(٢)؟ فهل في الكون حديث أثبت من الله، وأضبط من كلام الله؟ فأنى يُؤفكون؟

ومَن لا يؤمن بهذا الحديث الذي يهز الرواسي ويصدّعها من خشية الله، فبماذا يؤمن؟: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾(٣) فما لهذه القلوب المقلوبة الصَّلْدة الصُّلبة، وهذه الضمائر اليابسة البائسة، ما لها لا تتقلّب بما يقلّب الجبال الرواسي!؟.



(١) سورة الجاثية، الآية: ٦.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٧.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٢١.